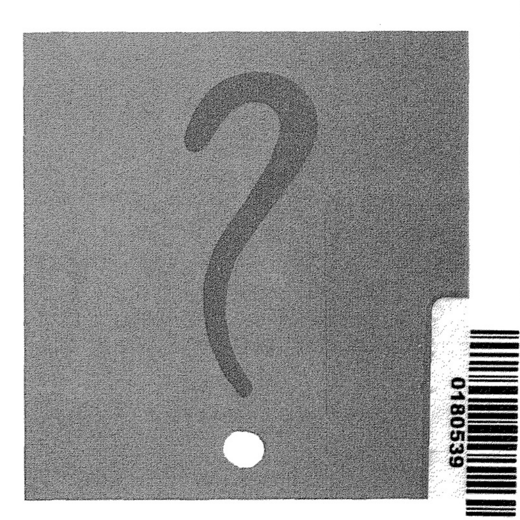
أمبرتو الباحث



محمد علي الشحيمي



امبرتو الباحث

• أمبرتو الباحث «رواية»
• محمد علي الشحيمي
• الطبعة الأولى 1998

• الناشر:
دار الحوار للنشر والتوزيع
ص.ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ اللاذقية ـ سورية

محمد علي الشحيمي

أمبرتو الباحث

« روايــــــة »

دار الحوار

الفصل الأول

تعلقت به نظرات نافلة بن محسن عندما انتفض واقفاً، إذ كانت تجلس إلى يمينه، كما كانت على علم بكثير ممّا يدور في ذهنه من أفكار، وانطباعات منذ مدّة، وتوقعت نفوره من أعضاء الحركة والثورة عليهم... «قد تكون ثورة مدمّرة، حدثت نفسها وأضافت، ولن يستطيع حبسها طويلاً، حتى وإن حاول» أزفت لحظة الانفجار إذاً، وليس أمامها الآن أكثر من أن تراقب الوضع بحذر وصمت... جعل بسام عاشور يحدّق في الرؤوس والوجوه المقابلة له... حشد من الناس يجتمع في ورشته سراً، كلّما ظن أنّ له حاجة، وجدوى من ذلك وفي آخر المطاف لايخرج بشيء. لاقرارات مهمّة، ولا توصيات ذات شأن ولارؤى واضحة فالجميع يخبط خبط عشواء.. وإذا بالحركة اسم دون كيان... وإذا بالأوهام تزف إلى مثيلاتها، دون رباط مقدّس...

- يا رفاق، دقيقة... دقيقة من فضلكم...

لم ينتبه كثير من الحاضرين لمطلب بسّام، وقليل منهم لم يعره اهتماماً فواصلوا أحاديثهم الثنائية، ونقاشاتهم البعيدة كلّ البعد عن مصالح الحركة، ومسيرتها وأهدافها، كان بعضهم يدحض، وبعضهم يؤكد إصراره على موقف يتبناه أو يظن أنه سليم، ومفيد، بالنسبة إليه... التفت إلى نافلة كأنّما يستفتيها فيما يمكن أن يقوم به، ثم عاد يحثّ المجتمعين على الاستماع إليه. ومرة أخرى لم يلحظ عليهم أي اكتراث.

لم يكن أعضاء الحركة يرون في بسّام غير العضو الدائم في الجهاز التنفيذي باعتبار أنه صاحب المحل الذي يجتمعون فيه دون كثير من العناء، وهو منصب تشريفي ليس أكثر. والحقيقة أنه رفضه عندما عرض عليه، ولكن إلحاحهم الشديد جعله يقبل به، ويتنازل عن عديد الأشياء الأخرى. عندما كان في حرم الكلية يلقي خطاباته على الطلبة، كان يبدأ بصوت خفيض، حتى أن من يقف إلي جواره لايكاد يسمعه جيداً، ويسود الصمت الجمع الغفير... وتنشدّ الأنظار إليه، ويبدأ صوته شيئاً فشيئاً، بالإرتفاع

إلى أن يبلغ أقصاه، فتكون الكلمة الواحدة كالزلزال ترتج لها الصدور، وأرجاء البناية الشبيهة بالبئر... كثيراً مايقاطعونه بسيل من التصفيق، والهتاف.. وكثيراً مايزحف البوليس، فيتكتل الطلبة حوله كقبضة اليد.. ولكن ذلك أمسى من الماضي ولم يعد يشدّه إليه غير إنتماء أجوف عليل لحركة ولدت ممسوخة وستظل إلى ماشاء لها أعضاؤها أن تبقى.

قد ارتعدت نافلة عندما رأته يلتفت إليها، وهي الآن أكثر خيفة وارتجافاً فعدم اكتراث الأعضاء من ناحية وإصرار بسّام من ناحية أخرى ينذر بانفجار أكبر ممّا توقعته بكثير، قد يصل فيه الدم إلى حدود السّيلان، وتمنت أن يتراجع بسّام عمّا يمكن أن يقدم عليه، وتمنت لو تملك القدرة والشجاعة الكافية لإثنائه، وبعد فتح عينيها إثر إغلاقهما للحظة، رأته يرفع واحدة من قوارير الماء البلورية ويلقي بها على مرآة كبيرة مشدودة إلى الجدار فتساقط الزجاج على الأرض محدثاً دوياً حادّاً، انتفضت نافلة واقفة واضعة راحتها على فمها. وانصبت أنظار الجميع على المرآة المهشمة، وعلى بسّام عاشور، التقت الأعين أخيراً، وساد الصمت... صمت مسبوق بعلامات التساؤل، والإدانة، والأسف... مشوب بالحيطة والحذر... انقبض وجه بسام أكثر وهو يمرّر بصره على الوجوه المصطفّة أمامه... بدت له وكأنها حبّات بطاطا صفراء ملوثة بالتربة... ودون أن يمهل نفسه أو أحداً منهم كثيراً، قال:

ـ هكذا تريدون؟!

عادت نافلة للجلوس، والتفتت بعض الرؤوس إلى بعضها وواصل بسام إثر رفعه إحدى الشظايا من الأرض والتلويح بها...

ـ للظفر بشيء من الانتباه تحطم مرآة بمساحة الباب، للاصغاء تحطم المحلّ بكامله إذاً؟!! لايهم... اعتدنا تحطيم أنفسنا من أجل أن نتكلم... والغاية، والنتيجة، لاتهم، لأننا لم نبلغ التفكير فيها بعد.. أو نفكر فيها ولكن سرعان ما ننساها لأنها خرجت من دائرة رغباتنا.

نظر إلى موضع قدميه، وعلى شفتيه ابتسامة تطفح تهكماً. وقال الأمين العام حسني عامر:

ـ من حطّم المرآة؟!

ـ من يكون محطم المرآة؟!

قال بسّام وهو يدفع الشظايا بقدمه.

ـ ليس العنف من شيمنا.

ـ ولكننا من شيم العنف.

ـ ماذا تقصد؟

ـ المرآة اصطدمت بأحدنا فتهشمت.

ـ هذا..

ـ لاهذا ولاذاك سي حسني، لاتسأل من حطّم المرآة، واسأل عن سبب تحطيمها. أنا من حطمها، أنا، بسام عاشور...

ـ طبعاً حطمتها عمداً. قال أمين المال ياسين خبّاز.

ـ أعتقد ذلك. ولكن لنتحدث في شيء آخر.

ـ أنت من سيـ...

ـ لم يعد مهماً الآن من يدفع التعويض.

ـ ما المهمّ برأيك إذاً؟ المحلّ محلك، المرآة مرآتك، نحن مجتمعون، أنت كسّرت.. تضاعف الهمس بين الأفراد الجالسين بعيداً عن الأمين العام وعيونهم لاتفتأ عن الحركة، في اتجاه بسام الذي لايزال واقفاً وحسني عامر وقد تحوّل إلى محقق في الحادث مرة واحدة، ودون أن يمهله بسّام قال موجّها خطابه للجميع:

ـ ومازلت مستعداً لتحطيم المحلّ ومافيه، إن شئتَ قلت: علي وعلى أعدائي، طبعاً، فأنتم أعدائي الآن.

ارتفع اللغط، ونهض بعض الأعضاء وقوفاً، وواصل بسّام.

ـ كم من الزمن قد مضى على تأسيس الحركة، ثلاثة، أربع، خمس سنوات، الكل يعلم المدّة بالتدقيق، ويعلم أيضاً كم وقع من اجتماع، وكم من اللقاءات، والخصومات والأحاديث الطويلة المغرية والقرارات التافهة... و و... ولا أعتقد أني أبالغ إذا قلت أن الأمن، السري منه والعلني، يعلم ولكنه يغض البصر لسبب بسيط جداً، وهو أنكم

لاتقدرون على فعل شيء، أو بالأحرى لاتريدون عمل شيء... لأنكم لاشيء... أعتقد أن الأوراق...

قال أمين السر الهادي موسى ولم يتمّ إذ حدثت قرقعة كراسي في الجانب الأيمن من المحل عند الدخول، تلاها صوت حكيم بن موسى:

ـ هذه مهزلة..مهزلة فعلاً، تشويه للحركة، وتعريض بأعضائها، أهلاً، أهلاً بحامي الحركة ومناضلها العتيد. أهلاً. قال بسّام.

ـ تتهكم، تتهكم ممن...

ـ الآن نعم، أتهكم، لأن كلّ شيء في العالم يتقدم ويتطور ما عدا حركتكم هذه، ثابتة في مكانها لم تتقدّم خطوة واحدة، إذا لم تكن قد تراجعت خطوات، حركة وبشر واجتماعات، ولاشيء، لاشيء سنوات من النضال كأنها لم تكن. حبسنا في أماكننا بأيدينا، لامعارضة، لانضال لاحقوق، لماذا تفكرون في الاجتماعات... إذا نسيتم اسم تجمعكم أذكركم لابأس، إنها حركة وليست بنادي، حركة سياسية معارضة، لاتزال في طور السرّية، يا سادة! والآن إذا لم تعملوا على إصلاح منهجكم الذي تسيرون عليه ليس أكثر من أن أقول لكم، ابحثوا عن مكان آخر تجتمعون فيه...

ـ رفيق بسام ـ قال عبد الناصر مفتاحي ـ إننا لانريد صداماً مع السلطة ليس في صالحنا الآن...

مشى بسّام بين الجالسين وهمسهم لايفتأ عن الارتفاع، إلى أن وصل قريباً من مرشد عبّاس، نظر في عينيه لحظة دون أن ينبس بحرف ثم واصل المشي ليقف قريباً من عبد الناصر وقد أحنى رأسه وانغمس في حديث مع الجالسين حوله، مطّ بسام شفته السفلى وهو يراقبه.

ـ فعلاً لاتريدون الاصطدام مع السلطة، تعلم لماذا يا عبد الناصر؟ أقول لك: لأن وجوهكم مليئة بالخيانة مليئة بالضعف والصّغار.

انتفض عبد الناصر واقفاً وكذلك مرشد عباس، وحسني عامر، وبشير سالم ومنصور علي بن محمد، وغيرهم، قالوا دون اتفاق:

ـ هذا قذف وتعريض.

ـ هذا سب واحتقار لا للأفراد الأعضاء فقط ولكن للحركة كمؤسسة أيضاً.

ـ هذه خيانة، وشتم، لابدّ من أخذ الاجراءات اللازمة..

وتقدم البعض الآخر من الأعضاء إلى أن تحلقوا حول بسّام.. قال أحدهم وهو ينظر عند قدميه.

ـ أحد أمرين إمّا أن تكون مصاباً بخبل، وإمّا أن تكون عميلاً للسلطة.

قهقه بسّام لسماعه هذا القول وتوقف فجأة... ثم سأل متهكماً:

ـ وأيها تختار أنت منصور مزيان؟

اقتربت نافلة بن محسن منهم وبداخلها رغبة لتهدئة الوضع، ولحقت بها آسيا صرّاف، وأمينة شعبان، ثم اقترب الأمين العام حسني عامر، لقد أوشك منصور مزيان أن يمسك بطوق بسام، ارتفع الدم إلى وجهه واشتدت أعصابه، قال منصور:

ـ الحركة لن ترضى أن تضمّ بين جنباتها خائناً.

ـ هذا جميل.

ـ ولن ترضى...

ـ أن تكون قميئة، إسماً بلا مسمى...

ـ أنت تدفعني إلى استعمال العنف...

اقتربت آسيا أكثر حتى كادت أن تقف بين منصور وبسام، وصرخ حسني:

ـ لايعقل، هذا لايعقل...

ـ بل يعقل. قال بسّام..

مسك منصور طوق بسّام. ارتفع اللغط وصراخ نافلة، وآسيا، نهض من بقي يراقب من مكانه واقترب أكثر، تدافعت الكراسي وسقط بعضها على الأرض، قال حسني:

ـ لايعقل... هذه حركة سياسية... سنضيع جميعاً، لسنا في بار... لسنا في بار. قال بسّام:

ـ اضرب، اضرب إن كانت فيك ذرة من الرجولة، اضرب.

حدق منصور، ولكم بسّام على وجهه تساقطت القوارير وسادت الفوضى البعض

يقتلع من ديكور المحل، البعض يختفي خلف الطّاولات، أو يسارع للخروج، آسيا تشدّ ذراع منصور وقد اختلط صراخها ولهاثها.

حبا عبد الناصر مفتاحي على ركبتيه، للخروج من الجمهرة، البعض ومنهم ياسين خباز أسرع يلمّ الملفات الموضوعة على الطاولة، انقطع النور وسادت الظلمة، وأضحى بعضهم يضرب البعض الآخر، والجميع يقذف الأثاث. والأكيد أن عدداً منهم اغتنم الفرصة لتقويض ونهب المحل..

* * *

وصل محمود بن حازم إلى الوردية على متن سيارته، بعد ساعتين من السير المتواصل، كان ينوي حضور اجتماع الحركة، واكتفى بأنّ له مشاغل ينوي القيام بها حين سئل. لم تتقبل زوجته هذا الرّد بارتياح، ومع ذلك دعت له بالتوفيق وصمتت. وعلماً والداه في نفس الوقت بهذه السفرة وأصرّا أن يأخذهما معه إلى منزل شقيقته بالعاصمة. ماكان الزحام شديداً بالمدخل الجنوبي للعاصمة ومع ذلك فلابدّ من الانتظار، والضغط على المنبهات.. ومن توتر الأعصاب. والسبّ، والشتم أحياناً... وتحويل الأبصار عبر جميع المرايا العاكسة في السيّارة... ومضى الوقت مع التقدّم البطيء. كان قلب محمود يخفق في مكانه وكأنه مقبل على أمر خطير، ولم يقل شيئا لوالديه. كانا هما الآخران صامتين، لمّا وصل إلى معهد الصحافة، حاول محمود أن يتناسى ماهو فيه من مشاعر، شغّل جهاز الراديو. نجوى إكرام تنبّه المواطنين ليخفضوا من أصوات أجهزتهم، ويروا راحة غيرهم... ابتسم وهو ينظر إلى وجه والدته عبر المرآة العاكسة فوق رأسه، كانت صامتة، ترقب الرصيف وهو ينسحب إلى الخلف بطرف عينها. أعلنت إشارة ضبط الوقت بالاذاعة: العاشرة تماماً.

قال محمود:

ـ العاشرة الآن يا حاجّة. ناس العاصمة يشرعون في اعداد أسرّة نومهم من الآن. حوّلت بصرها إليه، ولم تنبس بحرف واحد، فواصل محمود:

ـ لاتصدقينني؟! اسألي أبي.

وابتسم، وضل الوالد صامتاً مع ذلك. قالت الوالدة بعد لحظة وكأنها أفاقت من سبات.

ـ اللطف يا كبدي، كيف تقول هذا؟ من أصدّق إذاً؟!

سعل الوالد مرّتين أو ثلاث بهدوء، ثم أنزل زجاج النافذة وبصق في الخارج ثم أعاد رفعه. الأخبار تنساب من الجهاز بصوت المكي كربول المتأني بعض مايتلى هامّ، ومع ذلك لم يستمع محمود إلى كلمة واحدة منه. حوّل الموجه إلى الإذاعة الدولية، ثم «ميدي آن»، ثم «فرانس أنتار». «فصوت أمريكا» الكلّ لديه مايقول ولكن نفس الحديث، نفس الكلمات... أو... اقفل الجهاز، وشغّل شريطاً وما إن بدأ حتى انتزعه، أحسّ وكأن بوماً ستخفق بجناحيها داخله. وضع آخر مكان الشريط الأوّل: السمفونية السادسة لـ «تشايكوفسكي»... قال في نفسه وهو يطوّح برأسه في اتجاه النافذة: «يجب أن ألحق قبل أن ينفضّ الاجتماع. ينبغي أن أسرد انتقاداتي وأعلن مواقفي... ليقبلوها إن شاؤوا وإلا يكون الانسحاب.. بأقل وجع للدماغ... سأحاول..» وماكاد يتم حديثه حتى توقفت جميع حواسه دفعة واحدة وفي أقل من غمضة عين ليكون النصف الأمامي للسيارة تحت عجلات شاحنة عملاقة كانت تمرّ... لم ينتبه محمود لتبدّل الأضواء في مفترق الملاسين، ولم ينتبه سائق الشاحنة لمرور السيارة، وقد مرّت العجلات الأمامية للشاحنة عليها ثم جرّتها العربة المحمّلة بأكياس الاسمنت لعدة أمتار، حتى تحوّلت إلى كتلة من الحديد، والكاوتش، واللحم الدامي... تعطّلت الحركة لأكثر من ساعة ونصف. نزل الركاب والسائقون من وسائلهم، ليشاهدوا ليسألوا... ليتأففوا ليضربوا كفاً بكف ويستعيذوا بالله... وامتلأ المفترق بالشرطة والحرس والإسعاف... كلّ يؤدي مهمته...

ماكانت شقيقة محمود بن حازم تعلم بأمر الزيارة، فالعائلة شاءت أن تتركها مفاجأة، حتى وإن كانت متأخرة نسبياً. ولذلك نامت عائلة الشقيقة منذ العاشرة، وماكادت تغطّ في النوم حتى هتفت زوجة محمود لديها كانت تنوي تذكير زوجها ليمرّ إلى والدها قبل عودته وإخباره برغبة جارها في كراء غابة الزيتون منه... نفت الشقيقة وصول ضيوفها بعد. ثم أيقظت زوجها ليترقب معها... كان الزمن يمرّ بطيئاً... النوافذ مفتوحة وبعض الأضواء الثابتة تكتسح الصمت المخيم على كامل الحتي... اقتربت الساعة من منتصف الليل والنصف ولم تظهر أي علامة تدلّ على قدوم العائلة، ألقى الزوج النظر عبر النوافذ، دقق السمع مرّات ومرات... لاشيء ينبئ بالوصول. مواء القطط يحتدّ في فترات متقطعة ثم يخبو... رفعت الزوجة السمّاعة وطلبت زوج شقيقها، أخبرت بعدم وصوله، وطلبت منها أن تتأكد من الوجهة التي سلكوها. ليس

هناك تغيير للوجهة ومن المفروض أن يكون قد وصل في حدود الساعة العاشرة مساءً «قالت زوجة محمود وهي ترتعد قلقاً، جفّ حلقها وصارت بشرتها إلى الصفرة أقرب. قالت «إني خائفة أن يكون قد حصل مكروه لهم» لم تجد شقيقة محمود ما تقول هي الأخرى أصابها الفزع وجف بريقها، لقد تأخروا أكثر من ساعتين... ووضعت السمّاعة دون إشارة مسبقة، نظرت في وجه زوجها كأنما تطلب حلاً للغز ودون أي انتظار رفعت السماعة وطلبت الشرطة...

اجتمع أغلب أقارب محمود في بيته فكأنما أرسلت لهم جميعاً برقيات عاجلة، وأقرّ البعض منهم السفر إلى العاصمة لمعرفة ماحصل، وتحوّل الزوج وشقيقة محمود إلى مستشفى الرابطة مباشرة عند معرفة ماحصل... ظلت الأعين تذرف الدمع إلى حدود الفجر وعجزت أغلب الأرجل عن حمل أصحابها، وماكادت الشمس ترتفع عن الأفق قليلاً حتى علم الجميع نتائج الحادث بتفصيل يكاد يكون دقيقاً...

كان محمد بن رابح يعمل موظف بمكتب التموين بالمستشفى، وهو واحد من أعضاء الحركة، إلى جانب نزيهة الحاج منصف التي تعمل بقسم التوليد بنفس المستشفى أيضاً. عندما علم محمد بالحادث أغمي عليه وهي أول مرّة يصاب فيها في حياته. كما هو الشأن بالنسبة لنزيهة. ومع أن مدة غيبوبة كل منهما لم تكن متساوية من ناحية الطول إلا أن محمد لم يكن ليقبل بما سمع بسهولة. فهو يعلم حرص محمود الشديد على احترام قواعد المرور، وعلى تأنيه الشديد وانعدام مخالفاته منذ أوّل يوم يجلس فيه أمام المقود... وليس ذلك كما يعلم حرصاً على حياة الآخرين بقدر ما هو حرص على حياته الخاصة، وعلى حبه للحياة وإقباله عليها. وما إن بدأ يتقبل الأمر الواقع حتى جعل يكرر ساعة البلاء غفلةً؟ وهذه غفلة محمود بن حازم.

لقد استدل محمد من الحادث المروع أن محمود كان يسرع لحضور اجتماع الحركة أما «لماذا؟» فهو مايجهله خصوصاً وأنه قد لاحظ عليه في الأونة الأخيرة فتوراً في الاقبال عليها. وتوجس خيفة من أن تكون مع محمود بعض الوثائق السريّة ساعة وقوع الحادث، وحاول جهده إيقاف خواطره عند هذا الحدّ حتى لايسوء الوضع أكثر...

لمّا علمت زوجة محمود بحصيلة الحادث المروع، كادت أن تفقد عقلها رغم أسلوب «جرعة، جرعة»، المعتمد في التبليغ، فالحصيلة ثقيلة جداً: قطع رجلي حماتها، وتحطم رأس حماها، واندلاق مخه من الجمجمة، ووفاة زوجها على عين المكان وتلاشي

أعضائه... لم تسمح لها برفض الحقيقة فقط. وإنما أيضاً المطالبة برؤية محمود، تركه يقابلها، الاتيان به إليها... فهو زوجها هي فقط، وليس زوجاً لأي أحد آخر أيّاً كان.. ولم يكن من السهل على عملة المستشفى ولا أقاربها تهدأتها... فهي واحدة أخرى غيرها في تلك الساعة... ولم يجد العملة من وسيلة إلا حقنها، والقاؤها على أحد الأسرّة لترتاح بعد أن باءت كل الجهود بالفشل.

* * *

ما كادت تمضي ثمان وأربعون ساعة حتى علم جميع الأعضاء ـ من غاب منهم عن الاجتماع ومن حظر، بتصدع صفوف الحركة فجأة، وبحادث السير الذي أودى بحياة محمود بن حازم. تدهورت مشاعر الغالبية الساحقة منهم، فشردت بعض أبصارهم، وعجز البعض الآخر عن التعبير، واتفق القليل منهم على وصف هذه الليلة «بالانهيار»، تميزاً لها عن بقية الليالي السابقة واللاحقة.

كان بسام عاشور ممدداً في فراشه ببيته. يعاني بعض الآلام التي لحقت به جراء تبادل اللكم ليلة الاجتماع، ولم يبلغه الخبر إلا حوالي الخامسة مساء من اليوم الموالي. جلست نافلة على حافة السرير بعد أن وضعت باقة من الورود في يد بسّام، سألته عن صحته. وعن الجرح الذي لحق ذقنه، فأجاب بابتسامة متعبة. أنه بخير على العموم. ثم سردت الخبر دون تمهيد:

ـ أصيب محمود في حادث سير.

كان ينظر إلى ركبتيها العاريتين، فرفع بصره إلى عينيها بسرعة البرق.

ـ أي محمود؟!

ـ محمود بن حازم، قالت نافلة، وقد توفي على عين المكان.

ـ محمود بن حازم. ولكن...؟! محمود، من أخبرك؟! متى وقع الحادث؟

ـ ليلة أمس، حوالي العاشرة، أو الحادية عشر.

كان ممدداً، فانتصب قاعداً، لم تنطق شفتاه غير همهمات، أدلى بساقيه إلى الأرض. حاول النهوض واقفاً ثم عاد فجلس، أصدر أنين ألم. لطم قبضته على الفراش، وبعد وقت عاد يسأل.

ـ أنت متيقنة أنه محمود بن حازم؟! محمودا

حركت رأسها مجيبة، ثم نهضت، وهي تنظر من خلال النافذة قالت:

ـ سمعت أنه حادث أليم. تناثرت أعضاؤه، لم يكن لوحده كان معه والداه. تهشم رأس الوالد، وقطعت ساقا الأم... اصطدمت السيارة بشاحنة كبيرة، كانت تحمل إسمنتاً.

ـ شاحنة، ولكن كيف تدخـ.....

ـ لم تدخل كان ذلك في مفترق الطريق بالملاسين، كان متجهاً إلى منزل شقيقته...

نظر إليها وهي لاتزال تنظر من خلال النافذة إلى إحدى الأشجار الساكنة قرب النافذة، هبّ واقفاً:

ـ سأخرج الآن.

ـ إلى أين؟ قالت نافلة، وأعادت النظر إليه، إلى أين تذهب.

ـ إلى... إلى... لاأعلم. وشرع في فك أزرار القميص.

ـ أنتَ مجنون، كيف وإلى أين؟

وأعاد النظر إليها بعصبية، فتألّم، ووجد نفسه جالساً على حافة السرير من جديد ممسكاً ذراعه براحة يده الأخرى.

ـ ابقى، ابقى هنا أرجوك سأقوم بما تريد عوضا عنك أنت مريض، ومنظرك في هذه الحال يجلب الشبهات.

حاولت الابتسام ولكنها عجزت قالت بعد لحظات:

ـ حادث جلل، ومحمود يعزّ على الجميع، وخروجك لن يعيده إلى الحياة. وضع وجهه بين راحتيه، وانغمس في صمت طويل.

ـ قالوا عن ليلة أمس أنّها «ليلة الانهيار». أنا شخصياً موافقة على هذه التسمية ولا أجد بديلاً لها لو بحثت.

قالت نافلة وهي تدخل مع نسيم المهداوي إلى غرفة بسام ليجداه لايزال يضع راحته على خدّه، جلس نسيم على حافة السرير وسأل:

ـ كيف حالك؟ قالت نافلة إنك تتألم كثيراً.

هزّ بسام رأسه وكأنه في تلك اللحظة فقط شعر بوجوده إلى جانبه وأجاب.

ـ بخير شكراً. وبعد وقت قصير أضاف. أنت طبعاً علمت بوفاة محمود.

ـ علمت، كانت وفاة بشعة.

ـ هل تعلم شيئاً عن حال زوجه.

ـ أعتقد أنها خرجت من المستشفى، هذا المساء لتعود إلى بيتها.

ـ هل كانت معه؟

ـ لا ولكن، اضطر الفريق الطبي إلى تركها في المستشفى لساعات حتى تهدأ. لم يفهم بسام الكثير مما قاله نسيم ومع ذلك احتفظ بالصمت جاءت نافلة بكرسي من خارج الغرفة وضعته قبالتهما وجلست.

ـ الأوضاع تسوء بسرعة. قالت فحدق فيها بسام كأنما يريد توضيحاً.

قال نسيم:

ـ الجماعة تفكر في احتلال الورشة.

ـ الورشة؟!

ـ نعم الورشة، يعلمون أنك لم تسجّلها في الدفتر خانة.

ـ ولكن لي عقد الملكية.

ـ قالوا إنه...

ـ قالوا... قالوا... ماذا قالوا؟ أتكون الأوضاع سائبة إلى هذا الحدّ؟! وانتفض واقفاً بعصبية، جعلته يتألم ويعود إلى الجلوس.

ـ أعتقد أنهم يدرسون الوضعية فقط الآن، إن كان بإمكانهم بسط اليد عليها.

ـ وما لديّ من العقود، وما دفعته من أموال، وما... وما...

ـ على كلّ نحن معك، قالت نافلة، والأفضل أن تقوم بتسجيلها في «الدفتر خانة» في أقرب الآجال.

ـ أرجح بسام رأسه، واكتفى بـ: «نعم».

بعد خروجه من السجن وطرده من الجامعة، اشترى بسّام المحلّ الذي حوّله إلى ورشة لصناعة المنحوتات الخشبية، كان في البداية غير مقتنع بفكرة الشراء هذه لعدم توفر الثمن بين يديه، ولكن إلحاح أصدقائه وإصرارهم جعله يتنازل ويشتريه، فجمعوا له المبلغ وسلموه إياه، مقابل خدمة يسديها، وهي أن تجتمع الحركة في الورشة متى لزم الأمر، ماكان يحلم بوجودها في البداية إذ تأسست وهو في السجن ولمّا تيقن من أن كافة أعضائها أو أغلبهم ممن عرفهم أثناء النضال السياسي في الجامعة تقبّل الفكرة وطالب بالسرّية والتكتم الشديد، حتى لايضيع كلّ شيء، كما ألزمهم بحريته التامة في العقار وإعادة المساهمات المقدّمة إلى أصحابها كلّما توفر له ذلك... وحتى لايتعنت في مستقبل الأيام رأوا من المفروض أن يقع تعينه عضواً دائماً وتشريفياً في الجهاز التنفيذي للحركة دون أن يكلّف بشيء... وهذا معناه أن يتحمّل المسؤولية مثل بقية عناصر الجهاز دون أن يقوم بمهمّة ما، ومع مرور الأيام أحسّ أنه قد سلب حق المبادرة، والمشاركة الفعلية في أي عمل يمكن أن يقوم به أعضاء الحركة، وحتى ماضيه النضالي. وتحوّل مع الأيام إلى الصفوف الخلفية، أو بنك الاحتياط كما يقول وشكى وضعه هذا إلى محمود بن حازم، فتعاطف معه وأقرّ استعداده لتغير العديد من القرارات، والقوانين بعد كسب التأييد من بعض الرفاق والمطالبة بتغير مسار عمل الحركة بل والنضال من أجل تغيره إن لزم الأمر. وها قد انتخب الرجل ليجد بسام نفسه على قارعة الوقائع مفرداً.

* * *

ارتجّ المنزل تحت وطأة الطرق العنيف على الباب الخارجي، كانت عائلة محمد الورّاق نائمة، والأضواء مطفأة، وأغلب أبواب الغرف ونوافذها مفتوحة، تسارع الطرق أكثر واشتدّ، أحست ابتسام وهي الوسطى من بين ثلاث بنات أن السقف يكاد يقع، تسلل الذعر إلى أعماقها دفعة واحدة، وبشكل مضاعف انتصبت واقفة، حافظت على الظلمة في غرفتها، اقتربت من الباب الساعة تقترب من الثانية صباحاً والطرق لايشاء التوقف، أو الخفوت، انغمس صوتها إلى القاع، وجفّ ريقها حتى أضحى فمها كقطعة الكرتون. سرت الأسئلة إلى قمّة دماغها. كتيّار كهربائي، هل تصرخ في وجه هذا الذي يطرق، وكيف تصرخ؟ من الطارق؟ ورددت في أعماقه ذلك. لاأحد يسمعها، لاأحد يجيب. هكذا بقي صوتها منغمساً خلف الحلق... تحت الأعماق، «من الطارق؟!» لاأحد يسمع... لاأحد والطارق أيكون واحداً أم مجموعة، وماذا يريدون، ماذا يشاؤون في هذا

الوقت المتأخر... عادت إلى الجلوس على حافة السرير أكثر من مرّة، وأكثر من مرّة همّت بالسعي إلى الباب، والانفجار في وجه الطارق... أكثر من مرة همّت بولوج فراشها، وتكديس الوسائد على أذنيها، وليكن مايكون ليقتلع المنزل بما فيه، ليحوّل من مكانه...

بقية أفراد العائلة يواجهون الموقف بنفس الخوف والتوجس، بنفس الذعر والحيطة.. استمرّ الطرق واستمرّوا في مواجهة بعضهم البعض، بالنظر، كأن كلّ واحد منهم يقول للآخر اذهب أنت. اسأل أنت، افتح الباب أنت. الأعين منتفخة، والشعور مشوّشة كأن مشطاً لم يمر عليها أبداً... كأن الأدمغة التي تحتها ليست إلا أدمغة مجانين، كأنهم يواجهون قضاء ساحقاً.. «من؟» هذه هل تكفي، نهضت ابتسام وسألت نفسها وكأنها تقذف بكرة الموت. «من؟» ولم يرتجّ كلّ شيء، ولم يسقط كل شيء.. من؟ معناها إعلان التواجد، إعلان الحياة، وإن كانت في لفافة من الذعر والرهبة...

«أنا؟» أنا المعروف، والمحمي بينكم، أنا المرعوب أكثر وأكثر. أنا الأقرب إليكم. ولدكم. إيقاع الصوت. ترنيمته حتى وهو في أقصى درجات الـ... يشهد أني لست أحداً آخر غيركم، «أنا» تؤكد، تشهد، تشهد أني أنتم، ولدكم. «المنذر»، أنا، أنا، أنا صوتي من داخلي ينفجر.

هل يتطلب الإغماء تفكيراً، أو بديهة، لو كان يتطلب ذلك، لأقرت ابتسام الإغماء عليها ولكن بعد دخول شقيقها، بعد التأكد من سلامته ومما يرعبه ـ «تك، تاك. بف، رك،رك، إزيت، فتح الباب ودخل المنذر يتصبب جبينه وكامل وجهه، ويديه عرقاً. كأنه أقبل من الجحيم دون أن يدخلها. توقف بين بقية افراد العائلة، وهم ينظرون إليه وفي أعينهم أكثر من علامة تقريع، لمّا التفتت ابتسام وجدتهم الواحد إلى جانب الآخر ولم يكونوا قبل لحظة، كأنهم نبتوا من الأرض لحظة الفتح، نصف المصابيح تضيء وقد كانت مطفأة. من تسأل ممن تقترب؟ أمن منذر، أم من بقية العائلة؟ وقفت صامتة، لاأحد يسأل، ولاأحد يجيب مرّ المنذر بين أعينهم جميعاً إلى غرفته. ثم لحقوا به.

كان لابدّ أن يطرح السؤال الأوّل من طرف محمد الوراق، مؤسس العائلة بأكملها ولكنه لم يفعل لأنه قد أعيق حيث فقد القدرة على تسيير العائلة، ضرب من الجنون، أو صدمة حادّة أنزلته من طبقة الرشد إلى طبقة الطفولة... كان ينظر في عيني ولده كما ينظر البقية، مع شيء من التساؤل المخالف من نوع «من يكون؟ لماذا يجلس هكذا؟...» واقتربت الوالدة من محمد وقادته إلى غرفة النوم وفي الطريق أسرّ لها أنه أحسّ بخوف

شديد. لمّا عادت وجدت ابتسام تسأله عن ساعة خروجه والطريقة التي تمكن بها من ذلك؟! وعندها بدأ في الإجابة قاطعته الوالدة للتوبيخ، وتدخلت البنت الكبرى لتهوّن عليها وتترك المجال حتى يقول مالم يقله بعد. ولكن الأم لم تسمح له بذلك بل كادت أن تطلب منه الخروج من بيتها وأن لايعود أبداً إليه. وعندما استعصت الكلمات عن الخروج من بين شفتيها، طلبت منه ومن اخوته أن يناموا دون إضافة حرف واحد و«الصباح رباح» وبالفعل تحوّل كل إلى فراشه.

ماكان الشقاء إلا سليلا لشقاء سابق، تمدد منذر على سريره وعيناه ثابتتان في السقف، ماوصل إليه الآن ليس إلا قشرة رقيقة من الحماية، كأنه اختفى خلف ستارة شفافة، أو كأنه اختفى خلف نار تتقد. ولم تستطع والدته أن تضع رأسها على الوسادة، جلست على حافة الفراش والدمع من عينيها يتساقط سريعاً، كانت ستطرده من بيتها، ولدها الوحيد، وذخيرة عمرها الشقي، كانت ستقول له أخرج ولاتعد أبداً وهو الذي لم يرتكب هذه الحماقة مرة واحدة في حياته السابقة، كانت ستدفع به إلى الشياطين، إلى الشقاء الأبدي دون أن تعلم منه سبباً واحداً من الأسباب التي جعلته يقوم بما قام. ومع ذلك وإن بقيت أعين الرأس مغلقة فلا بدّ أن تكون أعين القلب منفتحة مبصرة حتى في أقصى درجات العتمة. فهو قطعة من الكبد، أو الروح بكاملها.

وضعت رأسها على الوسادة، وهي تعلم أن لانوم قد يطأ جفنيها حتى الصباح، حتى تسأله وتعلم منه ماينبغي أن تعلمه، حتى يقف أمامها ويعدها بأن لايعيد ماقام به هذه الليلة، تنهدت، انقلبت على جانبها، ثم على جانبها الآخر، ثم عادت كما كانت، محمد في الجانب الآخر من الغرفة، يتنفس بصعوبة شخيره يكاد يتجاوز باب الغرفة، لم تنهض لتصلح من وضع رأسه لأنها لاتسمعه، لأن عقلها يتساءل عن أسباب ماجرى ويبحث لها عن إجابات قد تكون صائبة وقد تكون مخطئة تماماً. ابتسام هي الأخرى وجدت نفسها في غمامة من التساؤلات دون أن تجد لإحداها إجابة، لم تعهد من أخيها مثل هذا السلوك، فهي لم تشهده يوماً في حياتها يعود بعد العاشرة ليلاً وقد اقترب منه الآن من الثلاثين، نهضت واقتربت من الباب الذي أعادت إيصاده، كانت تنوي التسلل إلى غرفة والحديث معه ولكنها خشيت من والدتها أن تدركها. عادت، وتمددت على سريرها، وهكذا أمضى مابقي من الليل.

* * *

أقبلت ربيبة بوسبعة وأمينة شعبان من حمام الأنف إلى العاصمة على متن القطار. كانتا قد علمتا بما تتخبط فيه الحركة من مشاكل.. وبجميع ماقاله بسام وأكثر... كان ينبغي أن يتصلا في أقرب وقت ممكن بجهاز الحركة وإن استطاعتا حضور الاجتماع الاستثنائي فلا يتأخرا... وانعقد اجتماعان اثنان بمخازن سليمان الناعوري ولم يحضرا.. لم تكن ظروف العمل سبباً وحيداً أمام تخلفهما ولاصعوبة الأوضاع داخل الأسرتين اللتين تعيشان. مع أفرادهما... التقتا بعد يومين من الاجتماع الأوّل عند باب الخروج بالمحطة ودار الحوار بينهما لأكثر من ساعة في غرفة ربيبة بوسبعة بمنزل ابن خال والدتها وهو رجل يزيد عمره عن الستين... طرحتا فكرة حضور إحداهما؛ وهي في نفس الوقت تنوب رفيقتها وتبلّغ رأيها وموقفها إن دعت الحاجة.. ولكنهما تراجعتا عن هذه الفكرة... وفكرة الحضور رأساً في هذه الظروف... واتفقتا على تدبير تعلّات كافية للاقناع في الأيام القادمة...

والآن وقد نزلتا من القطار وجعلتا تندفعان بين تلك المئات من البشر... هل فكرتا في موقع المخازن وكيف يمكن الوصول إليها؟! وهل فكرتا فيمن ستصادفان من الأعضاء ومن سيكون مسانداً ومن سيكون معارضاً؟! أسئلة لم تخطر على بال كل منهما، لذلك لمّا وصلتا قريباً من تمثال ابن خلدون نظرتا إلى بعضيهما وكأن كل واحدة تترقب من الثانية أن تدلّها عن الطريق التي ستسلكانها ولما أدركتا خيبتهما طفقتا تضحكان حتى سال الدمع من عينيهما واتجهتا إلى محل بسّام، فوجدتاه كعادته يسلخ الخشب سلخاً... وقد تطايرت بعض الشظايا والتصقت بثيابه... ووجدتا نافلة، وآسيا حراث واقفتين قريباً منه، وجعلتا تضحكان مرّة أخرى وقبل أن تنطق إحداهما بحرف... وحال انتهاء النوبة. جلستا على الكراسي. وقالتا إنهما تودان معرفة المقرّ الجديد للحركة. ألقى بسام الآلة من بين يديه واتجه إليهما حتى خالتا أنه سيلطم واحدة منهما ولكنه قال ببرود وحزم معاً...

- أنا لاأعرف شيئاً عن الحركة ولا عن مقرّها.. مفهوم؟

- إم (وقد برقت عيناهما) ألهذا الحدّ.

واقتربت نافلة وآسيا من بسام فالتفت إليهما ثم إلى ربيبة وأمينة وأضاف.

- وأكثر... لاأود أن أسمع شيئاً عن هذا الموضوع...

- (همهمت).

- إن أقبلتما، ضيفتين مرحباً بكما... أكثر من ذلك لاأقبل شيئاً. وعاد إلى حيث كان واقفاً. نظر إليهما لحظة ثم جلس وعقد قبضته وأسند إليهما رأسه كأنّما يترقب أمراً ما قد يحدث... ورغبت أمينة شعبان في قول شيء ما ولكنّها تراجعت خوفاً من اندلاع ثورته من جديد، ولمّا طال الصمت قالت آسيا.

- الحقيقة أن كل مايحدث لايستحق هزّة رأس واحدة.

- فعلاً... قالت أمينة مؤكدة.

- يستحق أو لايستحق... أعتبر هذا الموضوع قد انتهى.

- حسناً سننصرف إذاً.

ونهضتا الاثنتين معاً ولم يحرّك بسام طرفاً... ولمّا كادتا تقتربان من الباب قالت نافلة تسأل:

- ألم تحضرا الاجتماع... ألم تعلما أنه وقع اجتماع..

- الحقيقة علمنا.. ولكننا فضّلنا عدم الحضور... مافائدة حضورنا؟ لاشيء. أن نكون هناك أو في الخارج سواء، هذا تصوّرنا على أي حال.

واقتربت منهما نافلة واضعة راحتها على ذراع ربيبة بوسبعة وقالت.

- فعلاً. لا يجني الواحد غير وجع الدماغ.

- أعتقد ذلك أيضاً (قالت ربيبة).

وعادوا جميعاً للجلوس. وبعد عدّة دقائق قضاها بسّام وهو صامت قال:

- ترددت أخبار قليلة حول الجماعة، لم أسع لمعرفة المزيد... أنا متيقن أنّهم سيكونون أكبر خونة عرفتهم البلاد.. يدّعون النضال... ما النضال؟!! إنهم لايعرفون معناه، ولايفقهون له مدخلاً... عندما كان التيجاني النقاش حيّاً كان يقول «إن الزهور تناضل أيضاً ولكنها ليست مثل الشرفاء من البشر فهي لاتثور... حتى الخنافس تناضل.. كل كائن يناضل ولكن البشر فقط البشر يناضلون ويثورون في نفس الوقت» أنا نفسي أتفق معه في هذا الرأي، لأن النضال يمكن أن يكون من أجل ترسيخ قدم فاسدة في مكان جميل أخضر حي فتفسده... ولكن الثورة مع النضال تعني القلب التام للواقع الفاسد وإيجاد واقع آخر أكثر تقدماً وسلامة، أكثر حرّية، وأمن وعدالة وقابلية للانتاج لاللاستهلاك فقط... أمّا

هؤلاء فليسوا أكثر من «فئران» يدّعون أني حدث عنهم.. عن قيمهم وأني رجعيّ لم يسألوا أنفسهم وصلّوا من شاء سؤالهم لماذا حدث عن قيمهم.. أنا رجعي!.. كيف أكون تقدمياً؟؟! حداثوياً إذا. بأن أتناحر معهم لملء بطني كما يفعلون وأسعى بكل الوسائل حتى وإن تحالفت مع الشيطان والعدوّ الحقير، الحقير، من أجل المناصب والوجاهة وبأي الألوان أصبغ نفسي بعد ذلك وأخفي عني حقيقتي... (نهض واقفاً وسار قريباً، منهنّ) علمت أن أحدهم هدد بالانسحاب إن/ لم ينصّب أمين مساعد.. وأنّ آخر اقترح اندماج جميع أعضاء الحركة في أكبر حزب بالبلد وتشكيل لوبي داخله... السعي خلف أخبارهم عار، على عار... عندما كنت أوزع انتاجي على المتاجر... رأيت خميّس داخل إحداها.. ابتسم بحقارة وصفراوية، لم أحاول الحديث معه، جعلت أخرج اللعب وأرصفها، وأعدّها، وأحسب ثمنها بقلمي هذا. اقترب مني ومدّ يده مصافحاً... بإمكاني أن لاأصافحه.. ولكني فعلت لأنه ليس لدي من الوقاحة مالديه.. ربّت على كتفي وقال: «إنك لاتزال... ولكن أخبارك لم تعد تصلنا... ماذا لديك؟!» يسألني ماذا لدي؟! ويعلمني بإشعاع أخباري والحال أنه يتجسس عليّ ـ قمة الخسة وضعف المروءة.. فضلت الصمت إني لاأخشاه، ولكن من ضعف الهمة أن أجيبه، لأنه يعلم ما أنا فيه وإني لاأسعى خلف حرف واحد ممّا ينبسون... وانحنى إلى الخلف ضاحكاً... وسأل من جديد «ماذا؟... هل صرت تخشى من الحركة، أم هو حياء منّا...». إنه كالدب ولاأدري مع ذلك كيف يتكلم بل كيف يجد من الشجاعة والكرامة مايجعله ينظر إليّ بتلك الأعين الوضيعة. لقد فكرت في بعج بطنه أو فقء عينيه في تلك اللحظة ولكن حتى هذا التشويه أسمى وأرفع من أن يحدث لمثله... اكتفيت بالنظر إليه من أعلى إلى أسفل ثم تناولت مالي وخرجت... كان ينبغي أن أعتبره غير موجود في المحل بل وعلى وجه البسيطة كلها، وهذا حسب رأيي أقسى عقاب يمكن أن يناله خائن جبان.

ـ أكلّ هذا يحدث بين أفراد الحركة، قالت ربيبة والتفتت إلى آسيا كأنّما تبحث عن تأكيد أو نفي آخر، فقال بسام.

ـ ماكنت أتخيل ذلك مثلك، قمّة الوقاحة... فعلاً قمة الوقاحة.

وقالت نافلة:

ـ ولعلّ مالم تسمع به أشدّ لؤماً، أنت تعلمين موضوع الورشة وكيف تم شراؤها ودفع ثمنها.

ـ فعلاً.

ـ لقد طالب بعض الأعضاء الهوش الحمقى بإرجاعها إلى الحركة، بل نقل ملكيتها عن طريق تسجيلها في «الدفتر خانة» باسم أحد آخر من الأعضاء.

لطمت كل من ربيبة وخديجة بوراوي خدها استنكاراً وتعجبتا مما صدر عن هؤلاء الأعضاء. ثم سألت عن المصير فقالت آسيا:

ـ لن يستطيعوا شيئاً، الأموال دفعت والوثائق موجودة وقد سجّلها بسام في «الدفتر خانة» حال سماعه بالنبأ، «سيجدون خروبة في التبن» وأمالت فمها ورفعت حاجبها، واندفعت في كيل الشتائم وكأنّ الأمر يخصّها قبل بسام ذاته. وتحوّل الحديث بعد ذلك عن الاعتقالات في صفوف حزب «الصف الاشتراكي القومي» والتكهن بما إذا كانت السلطة على علم بحركتهم المنهارة، وإذا كان بالإمكان تقديم طلب إلى الوزارة للاعتراف بها، ودون أن يصلوا إلى نتيجة في هذا المجال وجدوا أنفسهم يعودون للحديث عن الورشة وماحصل فيها من تحطيم وعنف. والطريقة التي أعاد بها بسام الترتيب دون الاستعانة بأحد أيّاً كان رغم الحرارة، والآلام التي مايزال يعاني منها آنذاك.



الفصل الثاني

كغيره من المستقرين الجدد بهذه المدينة، لم يكن أمبرتو مارسيلو بلانكي يعلم شيئاً عنها في البداية. اللهم إلّا كونها كانت قرية صغيرة منغلقة على نفسها إلى حدود بضع سنوات قليلة ماضية... ثم تضخمت أضعافاً في ظرف وجيز.. ولكن مع اندماجه بسكانها الأصليين عرف عدداً من «الحقائق» كتحوّلها من مكانها أكثر من مرّة، من الساحل والسهل والجبل مرفقة بتأسيس جديد على الدوام... وسبب ذلك كما هو متداول أن طوفان سيدنا نوح «قبل ألف عام»، دمّر مدينة السهل حتى لم يبق منها غير قطع متناثرة من الأواني الطينية لاتزيد الواحدة عن مساحة ظفر اصبع القدم الكبير. وسيقان قناديل الزيت. أو قطع من الزجاج وهي قليلة بالمقارنة.. وبعد إعادة التأسيس ثانية امتدت مياه البحر وغمرت كامل السهل ولم يبق إلا أساسات الأبنية، والدواميس، والمغاور... وفي المرّة الثالثة وإثر الجزر الذي حدث وقعت إعادة البناء قريباً من الشاطئ، ولكن زحف رماله أدى إلى غمر جميع المنازل، بناسها وحيوانها ممّا أبقى على المنطقة قافرة خالية موحشة لفترة طويلة حتى استوطنها المهجرون العرب من اسبانيا... فأسسوا من جديد مدينة ولكن على منحدر ذيل الجبل هذه المرّة، بحيث يكون آخر دورها على الظهر وأولها في السهل....

دخل أمبرتو مارسيلو بلانكي الغرفة مرّة أخرى في ذلك اليوم الحار وألقى بجسده الضخم على السرير «حرارة غير عادية». قال في نفسه وجعل يحك أظافر يده على الجدار المطلي باللون الأزرق، وشبّ عن أسطورة المدينة ليجد نفسه يحاور خيال تلك الفتاة وبصره يسبح في سماء الغرفة. بالأمس كانت تجلس على كرسي منفرد في الحافلة وطول المسافة كانت تشيح بوجهها إلى الزجاج ممعنة التحديق في جانب الطريق... حاول تذكر ملامحها اجتهد، بدأت تصطفّ. عينان قسطليتان وشعر طويل مشدود إلى الخلف.. وحاجبان أسودان... «آه» أصدر آهة وقام يطارد ذبابة تقلقه بطنينها وفتح كفيه وحاول

دعسها بينهما ولكنه أخفق، وما إن عاد إلى السرير حتى تناهى إلى سمعه صوت أحد يناديه. كان طارق بوعنين واقفاً تحت ظل الجدار المقابل وغير بعيد عنه مجموعة من الصبية يلهون بالتراب والماء... اقترب منه أمبرتو مصافحاً ونصفه الأعلى عار... قال طارق:

ـ هل تشاء أن نبحر... باقي المجموعة نزلت قبل ساعات؟!

حك أمبرتو رأسه وأجاب:

ـ لم لا... ترقب قليلاً..

وأسرع أمبرتو، داخل المنزل... أقبل بلوازم السباحة وسار إلى جانب طارق نحو الشاطئ. وهناك وجدا بقية الأصدقاء...

كان البحر هادئاً بداية النهار ومع تقدمه شيئاً فشيئاً أخذ في التغير وانتشرت على صفحاته نقاط من الزبد... وظل الجميع يسبح إلى أن تعب أغلبهم. كانت الناحية المختارة، خالية من الناس فهي تبعد حوالي كيلو متر ونصف غرباً عن الجزء المأهول بالعائلات عادة، وتمددوا على الرمل الناعم دون إعارة أي اهتمام للرمال المتقاذفة عليهم... وتعالت أصواتهم ضحكاً، وسباً وحديثاً وكلها تدور حول الفتيات... كانت مساهمة أمبرتو في هذه الأحاديث منعدمة في البداية إلى أن لكزه عباس بوعنين بمرفقه وقال:

ـ أمّا لدنكم، فالفتيات كالبطاطا؟!.. لاتقل، لا...

ـ لا... أبداً. إنّهن كالباذنجال فقط...

ـ لا. إنهنّ كالفراز...

وضحك الجميع، وقال أمبرتو في نفسه «وهل تضاهي تلك؟ غلال الأمس!» فقال سليم القابسي إثر ذلك:

ـ ألديكم شك... إنها بلاد الرمّان يا رفاقي.. هكه الرمّان.

وأشار بحفنته قريباً من صدره، وقال عبّاس من جديد...

ـ راك كي كنت غادي، كنت تشاطي وتباطي.

وفي تلك الأثناء خضّ أمبرتو رأسه موافقاً. واستند خميس جاموس على مرفقه وبإصبع يده الأخرى أشار إليه وقال:

ـ وراس حبيبتي، وراس حبيبتي، دار شبيه، من وقت ماجبتنا لبنات وهوّ تغير، وسرح...

فقال عباس بو عينين.

ـ يخمّم في العرس.

ـ لايخمم في الطهور.

وانفجرا ضاحكين باعتبار أنه رومي ليس مختوناً، والتفت إليهما أمبرتو وهو يخاطب نفسه دون أي اهتمام لما يقوله البقية. «أتراها تطلب الزواج، أتمنى ذلك... إني لست ناسكاً» وأثر انتهاء الضحك أردف بحزم.

ـ لانخمم في الطلاق.

وضحكوا بحرارة أقل ثم طلب منهم العودة. كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف أو جاوزتها قليلاً. وسار بينهم وبداخله رغبة في سؤالهم عن تلك الفتاة التي قاموا بالأمس بمغازلتها في الحافلة. وهمّ بذلك ثم عرّجه فلم يتضح شيء... كانت الحافلة متجهة إلى بنزرت. وقد أقبلت من غار الملح. لم تصعد الفتاة من محطة المدينة، وهذا معناه أنها ليست من المنطقة، وحال رآها سليم القابسي اقترب منها وتحادث معها ولكنها بدت نافرة وتوالى البقية إلى نفس الناحية وأطلقوا عبارات الغزل والمراودة. ونزلت هي مدارج الصمت طوال مابقي من الطريق وبقي أمبرتو فقط يراقبها من مكانه القصي... ولمّا نزلت نزل خلفه لمراقبتها ولكن لحظت التفاتة إلى أحد أصدقائه ليجيبه عن سؤال طرحه توارت عنه... وحاول البحث عنها في الزحام لكن دون جدوى، ولعن صديقه، والأسئلة والاجابات ألف مرة... وصل طارق إلى منزله ورفع يده محيياً للدخول... وفعل أمبرتو نفس الشيء مضيفاً تأكيده على طارق للحضور باكراً إلى المقهى وابتعد خطوات ولكنه عاد مسرعاً فنادى صديقه... مسكه من ذراعه وابتعد وإياه قليلاً عن الباب المفتوح. وسأل عن الفتاة. كان طارق واحداً من بين الحضور أمس، وساهم بقسط لابأس به في كلمات المراودة وكأنه يعرف الفتاة معرفة تامة... انفجر ضاحكاً عند سماعه السؤال... وطلب إعادة سماعه ولكن أمبرتو ظل صامتاً.. فقال طارق ساخراً...

ـ صُمت.. صمت وافطرت على جرادة.

ارتجّ أمبرتو لسماعه رد طارق... وأحسّ بالحرج... حاول أن يحدّ من عياطه لكن دون جدوى.. فقال:

- عيب... عيب طارق.. عباد ربي تقول عليهم جراد... شكون فينا خير من غيره موش كلنا كيف كيف متساوين؟!.

- صحيح... صحيح حتى الجراد زاده... قلي ماعجبك في الدنيا كان جليلة... وعاد يضحك من جديد... ثم أردف.

-... هذا ذوقك في النساء... كان هذا هو راد ضحل. مايصلحش...

- يعيش طارق... سئلتك على البنية موش على رايك في ذوقي...

فقاطعه أمبرتو ورذاذ البصاق يتطاير من بين شفتيه.

- أمبرتو راك صاحبي وصرت من أهل هالبلاد... فهمت! وتبارك الله عليك ماكش ناقص...

وبعد صمت قصير وضع خلاله راحة يده على كتف امبرتو وقال:

- هاذي اسمها جليلة ميش مالبلاد.... جليلة اسمها. تخدم قحبة... عاهرة.. تركّب... فهمت، نحي عليك هالدودة...

وانسحب داخلاً إلى منزله وسار أمبرتو خلفه خطوة وعاد يذكره باللقاء الذي ينبغي أن يكون بعد ساعة من الزمن ليس أكثر...

* * *

انتشر الخبر بين عدد كبير من أصدقائه وحتى ممن هم ليسوا على علاقة طيبة معه، سواء كانوا نسوة، أو رجالاً.. أضحى أكثرهم ينظر إليه شزراً.. وبعضاً ممن يلقي عليهم السلام لايردون... انتشر الخبر كالنار في الهشيم... بل أضحى فضيحة أمبرتو الطلياني يريد أن يتزوج جليلة العاهرة «أمبرتو الطلياني خطب جليلة المومس وفي أقرب الآجال سيكون الزواج» «لن يقع حفل، ختم على دفاتر البلدية دون حضور، ولازغاريد ثم تكون الدخلة...» «كيف ستكون المعاملة بينهما...» غلمته غير مختونة، أما هي فقد افتضت بكارتها واعتادت...» «قد يعمل على الاتجار بها ستجدها فرصة ستكون سعيدة... و.. و...» ولجميع هذه الأسباب كاد أن يرحل إلى جهة أخرى من البلد أو يعود إلى بلده...

صاحب المنزل: عم علي الناصر تحاشاه لبعض الوقت حتى لايثير أية مشاكل.. وهو يعلم حدساً أن أمبرتو لاينوي شيئاً من هذا وكذلك السيدة زبيدة جارة أمبرتو وزوجها الحاج السالم جاموس، ولذلك عندما سمعوا خبر نيته في الارتحال هبوا للحيلولة دون ذلك قال الحاج السالم:

- يا ابني إلى أين...؟! بعد هذه السنين تتركنا لترحل... كيف تطاوعك نفسك..؟ بعد أن اندمجت، وسرت منّا..؟! هكذا بهذه السهولة تسافر... كيف يمكنك أن تندمج من جديد... أما نعزّ عليك؟!

وقالت السيدة زبيدة...

- الله يتولاكم يا ولدي... اصبر يا ولدي اصبر الصبر باهي. احنا والفنايك وحبيناك كولدنا.

وشكرها أمبرتو وقبل رأسها مرتين..

وقال عم علي الناصر:

-.... مايمشيش في بالك كوني خايف على الكراء الي شتدفعو بالعكس تحب انسلفك واتعرّس انسلفك كلْ معند ربي... أما رانا ولفنا بيك ولّيت ولدنا، وانت زادة ولفت بينا. وليت ولدنا مش حاسس....

هزّ أمبرتو رأسه شاكراً دون أن يدري مايقول عن سفره، أيبقى أم... وأجاب باقتضاب ودون وضوح.

- باهي يا سيدي تونشوف...

ويُلقي التحية في كل مرّة ويتجه إلى المقهى ليركن في إحدى زواياها..

ولم تمحي رغبته في جليلة مع ذلك وتمنى لو يفتح أحد أصدقائه له صدره ويفهم مايريد، ولكنهم معرضون كسدّ من رخام... ولبعضهم معها «ذكريات»... عندما دخل آخر مرّة إلى المقهى سحب كرسياً وانتبذ مكاناً قصياً هادئاً. قرّر أن يعيد ترتيب أفكاره من جديد... أن يظفر بجليلة، وأن يبقى في المدينة ويعيد صلاته بمن انقطع عنهم، أو انقطعوا عنه... طلب قهوة عربية في فنجان فجيء بها إليه، أدار الملعقة بضع مرات وسط الفنجان وهو يحدّق في رغوتها. ارتشف. وأشعل سجارة. فكر في تسجيل مذكراته، أحس في تلك اللحظة بحاجة أكيدة إلى ذلك... الناس هنا لايسجلون مايعترضهم من

أحداث يكتفون بالذاكرة، والرواية الشفاهية، لايحسبون الزمن بالدقة اللازمة، ويتعاونون، يشجع بعضهم البعض سواء على الحسن أو الخبيث... كل ساعاتهم وأيامهم واقع جدّي يفترض الحزم ولافائدة من الماضي وتأمل الذكريات... ما فسد من الأخلاق لايعتقدون في إمكانيه إصلاحه وتنقيته من جديد...

الآن. استقر رأيه الآن. اتصل بخميس جاموس في بيته فلم يجده... فرك جبينه بأصابع يده ومشى، الساعة تقترب من العاشرة ليلاً.. حث خطاه ودّ لو يعترضه طارق أو عباس بوعينين فيكفيه مؤونة الوصول إلى أحد منزليهما... سيحاول اقناع من يجد منهما بكل مالديه من وسائل، قال لنفسه «لاأعتقد إني أستطيع العيش دون جليلة في المستقبل، وإن كانت أخلاقها غير مرضية فيمكن... ليس هناك مستحيل» ومع وقع كل كلمة في نفسه تثبت خطوته وتمتد أكثر ويستقبل صدره نسائم الشمال الطرية فتزيده حماساً، ونشاطاً.. منذ أيام كان خالي الذهن من فكرة الزواج... ولكن... الآن. الآن لاتقوده الفكرة والاحساس والرغبة من أنفه وكأنه مسحور... ابتسم لكلمة مسحور أعادها على نفسه أكثر من مرة «مسحور... مسحور...»... راجع صورة جليلة... كان ينبغي أن لايصدق أحداً. ولايسأل أحداً عنها... ويقابلها ويكلمها هي ويسألها وو... ولكن ماوقع الآن قلب الأمور، لو سألها عن نفسها مباشرة وعن عائلتها ربما أخبرته بتفصيل أكبر... وربما أعرضت عنه.. أو عرضت عليه النوم معها وبمقابل فقط.... امتعض لهذا الخاطر... حنى رأسه وواصل السير.

لما وصل إلى منزل طارق توقف لحظة طويلة... أعاد فيها ماسيقوله له... سمعه يتحدث في الداخل بصوت مرتفع... كان يتناقش مع والدته حول مسألة ما ثم هو يقهقه الآن... تقدم إلى الباب ونقر عليه بأطراف أصابعه ونادى... وتأخر خطوة... سمع والدته تقول:

ـ أحد يناديك... كأنه الطلياني صديقك.

مرّ بعض الوقت قبل أن يخرج لم يكن يود الظهور ولكن لاأحد من عائلته موجود ويمكن أن يعلن غيابه فخرج. اتجه إليه أمبرتو مسبلاً يده أمامه تصافح الإثنان وقال باسماً...

ـ انسيتني يا صديقي!!. أكثر من أسبوع قد مرّ ولم أرك.

ـ لأبداً بعض المشاغل صدّقني.

وخرج عدد من الأطفال من منزل قريب مروا بينهما ودخلوا المنزل يصرخون.

ـ هل تريد أن نتمشى قليلاً... مارأيك؟

أشاح طارق بوجهه يميناً ويساراً ثم قال:

ـ حسناً لنتمشى.

وسارا جنباً إلى جنب. وبعد صمت لم يدم طويلاً قال سائلاً.

ـ ماذا قررت... هل عدلت عن فكرة الزواج من جليلة؟!

ابتسم أمبرتو. ودّ أن يقول «لا، أبداً، لم أعدل، ولكن جئت أطلب مساعدتك للوصول إليها: نظر إلى الأرض عند موقع قدميه. وقال باقتضاب:

ـ أعتقد ذلك.

وضغط على شفته وأضاف.

ـ ليس من السهل ذلك، ولكن...

ـ هذا خبر مفرح، ومساعد لعودتك كما كنت. نظيفاً... محبوباً من طرف الجميع

وابتسم أمبرتو من جديد ابتسامة يأس ثم مشى صامتاً... تاركاً طارق يقذف الحصى بمشطة قدمه حاملاً داخله شعوراً بالانتصار.

* * *

تسللت أخبار أمبرتو إلى جليلة بن محسن عبر أكثر من طريق، ماكانت في البداية لتصدق ما تسمعه، «زوج! وطلياني أيضاً؟!!» رددت لنفسها أمام المرآة عشرات المرات، وتساءلت ما إذا كان باب العرش يفتح لموس! وإذا ماكان هناك من يفكر فيها لذاتها، لابشكل تبادل تجاري، وإنما لعاطفة يكنها، يمنحها أو يترقبها.. كانت في بعض الأحيان تتخدر حواسها بسبب مايعتريها من انتشاء وسعادة، وتهتاج أعضاؤها أحياناً أخرى، حتى أنها تمارس الحب برغبة المحروم متمثلة صورة أمبرتو متناسية، أو مذهولة عن الحريف الذي يطأها وهو يضم في قبضته ثمن مايطلب منها.

ترقبت قدومه إليها بفارغ الصبر، وتابعت أخباره، وحللتها، وأوّلتها. كما ينبغي لموس أن تفعل... تراءت لها بعض الأحلام الرومنسية، وحدثت رفيقاتها بما يجيش في

صدرها من مشاعر وأمنيات، ولم تنس أن ترجوهنّ أن يتحفظن عن إعادتها، ومع كل يوم جديد كانت تبدو كفتاة بكر أكثر حيوية وأملاً في المستقبل وشروداً أيضاً... تزينت في أحد الأيام الموالية، وطلبت من زميلاتها أن يبدين الرأي فيها، فوصفنها بالمجنونة، فضحكت، وخرجت في شوارع بنزرت، كانت تأمل أن يراها الناس جميلة، جذابة، في تلك الساعة، وأن تسمع منهم ذلك... ولايهم ما قد يلي... ومضت بين الناس امرأة محترمة وكأنها لاتسمع غير نداء أمبرتو يقبل إليها من أطراف الشوارع التي تسلكها دون أن تراه... مع كلّ لحظة تتخيّل أنه يمكن أن يصادفها، ويلتقطها من تخيلاتها ليعيدها إلى الواقع... إلى «الحياة الجميلة»... بعد عودتها إلى المنزل طرق الباب ثلاث مرات فتفتح هي وتسأل القادم قبل أن يخطو خطوة إلى الداخل عمّا إذا كان أمبرتو الطلياني أم لا، وما إن تجاب بالنفي حتى توصد الباب في وجهه، وتدير المزلاج دون أن تنبس بحرف آخر...

* * *

ـ أعلم أن دينكم لايحلّ الزواج بمسلمة لغير المسلم... وأعلم أن جليلة ليست على خلق حميدة ومن العار أن أتزوجها، هذا صحيح، ولكن لست على دين المسيحية، ولاأي دين آخر، فأنا لم أدخل الكنيسة يوماً... ولازرت ديراً منذ نشأت... ولا أعلم أن والدي فعلاً ذلك. ثم يمكن لي والجليلة أن نستقيم على دينكم وأن نكون من أفضل المخلصين، يمكن لها أن تستقيم من جديد. إني لاأعتقد في المستحيل: هل تعتقدون أنتم؟!!

قال أمبرتو بعد نقاش حادّ دار بين الزبير وحسان جباسي في مقهى الرحبة، أثناء جلسة مسائية، حضرها أيضاً طارق وخميس وسليم، ماكان في البداية يرغب في الولوج في هذا الحديث إن لم تمض سوى أربعة أيام فقط عن عودته إلى المجموعة، وإعلان تخليه عن جليلة. وبما أن خميس ألحّ عليه ليبدي رأيه فقد حاول بدرجة أولى أن يقنعهم بلين بإمكانية أن تصطلح أخلاقها... ولكنهم وهم يستمعون إليه لم يعجبوا برأيه رغم طرح إمكانية دخوله الإسلام، وختانه إن أمكن... كانت العروض تنصبّ عليه بين الحين والحين ثم تتراخى دون أن ينطق أصحابها بحرف.. وبعد فسحة من الصمت إثر انتهاء أمبرتو قال الزبير يسائل طارق تحت غشاء ساخر:

ـ لاأدري ما أعجبه في هذه «الجليلة»! جمالها! قوامها؟! أم... مهنتها!!؟

ـ مدّخراتها... لها مدخّرات يا لطيف! قال حسان جبّاسي وهو يشير براحتيه إلى صدره، وعجيزته، فحدّق فيه طارق فصمت الاثنان معاً. ذلك أنه لاحظ على وجه أمبرتو شعوراً بالضيق والمهانة. ودون أن يمضي وقت طويل بعد ذلك عرض كلاهما اعتذاره، وعدم نيته في الإساءة إليه.

قبل أن تنقضي الجلسة حوالي الحادية عشرة ليلاً أعيد طرح الموضوع من حيث لايشعرون، ووجد أمبرتو نفسه يقول:

ـ ... ولكن يعجبني فيها شيء لاأعلمه بالتحديد إلى الآن، وقال سليم بو عينين وخميس معاً.

ـ يا أخي نحن لانريد بك الغرور... لك في هذه البلاد من السنوات ما يكفي لتعرف مافي سرائرنا، وتعرف أخلاقنا، كما نعرفك نحن.

لقد كان ينتظر غير هذا القول، بداية إعلان مساندة، أو ليس على الأقل، ولكنهم بما سمع منهم الآن ازداد تأكداً من أنهم ازدادوا صلابة وتمسكاً بموقفهم وليس أكثر من أن يبقى الآن محاصراً بين عواطفه من ناحية وموقفهم هذا من ناحية أخرى. وكلمح البصر شعت في ذهنه فكرة كسب الوقت، وابتسم دون أن يشعر أحد منهم بذلك. وأقر مع ذلك تغير مسار الوصول إلى مايريد، لايدري الآن كيف ولكن حتماً سيتوصل إلى هذا المسار الجديد. في أقرب وقت ودون أن يشعر أحد منهم بذلك. وماكاد ينتبه إلى وجوده بينهم من جديد حتى وجد حسان يطبطب على ركبته ويقول:

ـ يمكن أن تبحث لك عن فتاة أخرى. اسألني، أدلك وسترى...

أرجع أمبرتو رأسه وأجاب:

ـ سأفكر... فعلاً يمكن لي أن أفكّر في هذا الموضوع بجدية.

ونهض واقفاً ونهض الجميع إثره.

* * *

ثلاث أسابيع قد مرّت على جليلة دون أن يتقدم إليها أمبرتو، عدتها يوماً يوماً، ساعة ساعة، كأنها الدهر كلّه... تضاعف فيها الأمل واليأس مرات، أحست بالاحتقار

والدونية، فكرت في عبث الحياة، وليس من جدوى لنسيان ماتتخبط فيه غير السكر.. السكر والنوم الطويل، والحياة! لتكن لمن تشاء، لتكن للشيطان، لتكن للآخرين الآخرين... سكرت حتى لم تعد تذكر ماتقول وما تفعل، وكتبت رسالتها الشديدة الإيجاز إليه.

يبدو أن الحياة المحطمة لاتنزاز إلى تحطّماً.

ومع ذلك قد نلتقي قريباً[1].

ربما كانت في قمّة وعيها عندما كتبت، وربما انعدم وعيها تماماً في تلك اللحظات، ومع ذلك هل سيلتقيان حقاً؟ وكيف يمكن أن تكون متيقنة وهي في ذروة سكرها؟! لقد كتبت ماكتبت في ساعة متأخرة من الليل وفي الصباح لما استيقظت وقرأت ماكتبت، ضحكت بهوس شديد لما كتبته، وحاولت اصلاح ما أخطأت فيه ثم أقلعت عن فعلها لتبرير وجدته في ذهنها وهو أنه قد يعي الحالة التي انحدرت إليها من السوء بذلك وطوت الورقة وأدخلتها في مظروف. ألقت الرسالة في صندوق البريد، وطفقت على نفسها ضحكاً حتى وصلت إلى المنزل الذي تسكنه.

لقد تدهورت أوضاع جليلة المالية والنفسية كثيراً، إذ قلّ زبائنها بسبب الرفض الدائم لمقابلتهم، وإقبالها المكثف على الشرب... إضافة إلى أنها لم تكن تدخر شيئاً من المال... وأنحت عليها صديقاتها باللائمة بعد وبائل من النصح... وانفضت غالبيتهن عنها، وانطوت علىنفسها في البيت... شعرها منفوش، ووجهها متفخ من أثر النوم والسكر... لمّا أقبل عليها بنعيسى الطويل حريفها المتبقي وشاهدها على تلك الحال، أصابه الذهول فحاول معرفة السبب، ولكنها أشاحت عنه.. بقي على أحد الأرائك بقاعة الاستقبال مايزيد عن الساعة، صامتاً، ساهماً، وكانت هي تشرب، وتلعن..تلعن من؟!... كلّ شيء، وأي شيء سبب تعاستها، الرجال، والحب، والمال، والأعراف. إذ ليس لها أن تسعد أبداً مثل بقية النساء... ليس لها ذلك، أبداً!! وانخرطت في البكاء... اقترب منها بنعيسي الطويل وأخذ الكأس من يدها ووضعها على الخوان ثم عاد وجلس حذوها وضمها إليه. رفع شعرها وألقى به إلى الخلف فاتضحت سحنة البؤس والتعاسة في عينيها وعلى كامل وجهها وحاول تقوية خاطرها قال:

---

(1) - يبدو أن الحياة المحطمة لاتزداد إلا تحطماً. ومع ذلك قد نلتقي قريباً.

ـ عهدتك قوية، صلبة العزيمة فمالك اليوم.... تأخذك عواطف اليأس. وظلت باكية. فأضاف بعد برهة...

ـ ليس من السهل أن يقف المرء، أمام العواطف... ليس من السهل أبداً.. السقوط وأره في أية لحظة، ولكن ينبغي أن يتبعه النهوض.... لتتواصل الحياة... ينبغي ذلك... يا جليلة لأحد في الخارج يفكر فيك إن لم تفكري أنت في ذاتك...

ـ إني تحطمت... تحطمت يا بنعيسي ومع اللحظات أزداد تهشماً..

ـ لم أفهمك...

ـ ولن تفهميني أبداً.

ـ كيف تحطّمت؟! من حطّمك؟!!

ـ كيف؟!! هل أعيد عليك تاريخ حياتي.

ـ لا ولكن أريد أن أفهم قد يكون بمقدوري مساعدتك..

ـ مساعدتي!!! (وضحكت هازئة... ثم أعادت) مساعدتي!! ياللك من رجل طيب.

وفي الأثناء دخلت إحدى صديقاتها، وقد لبست تنوراً قصيراً لايتجاوز ركبتيها وتزينت بألوان شتّى، ولكن زرقة جلدتها لم تزد تلك الألوان إلا نفوراً... رحبت بنعيسي الطويل وسألت جليلة عن حالها اليوم، فحدقت فيها دون أن تنبس. بشيء ولمّا دخلت الصديقة إحدى الغرف التفتت جليلة إلى الرجل وقالت: بشيء من اليأس:

ـ لاأستطيع شيئاً اليوم... أشعر بنفسي باردة كلوح من الثلج...

ابتسم بنعيسى الطويل مواسياً وربت على ذراعها بشيء من الحنان ثم قال:

ـ لاعليك لاتحزني... كل شيء سيسوى. مارأيك هل نقوم بجولة في المدينة من رأيي أن نقوم بذلك... هيّا... هيا... لاتضيّعي الوقت البسي وتعالي ننزل... وسحبها من يدها فنهضت متثاقلة... وبعد خطوات قالت إنها لاتستطيع وتشعر بدوار.. ولكنه مع ذلك ألحّ عليها وشجعها بمساعدة صديقتها...

مرة ثانية شاهدها بمدينة بنزرت، واقفة أمام مغازة لبيع الملابس الجاهزة فكّر في الوقوف إلى جانبها، ولكنه عدل، فابتعد بضع خطوات وانحنى مع الطريق القاطع، توقف أمام محل لبيع المصوغ... أمعن النظر لأقل من دقيقة ثم عاد مرّة أخرى للتفكير

في جليلة، ودّ لو يستطيع الوصول إلى الشيء الذي يجذبه إليها، عيناها... أنفها، شعرها المشدود إلى الخلف، لون بشرتها ماذا؟ شدّة ماذا؟! في هذه المرأة التي رفضها كلّ أصدقائه... كأنه يعرفها منذ زمان بعيد بعض ملامحها تدل!.. ولكن أيّها؟

بدأت الشوارع تزدحم، وإن لم تكن مكتظة بالسيارات فإن البشر فيها يملؤون كلّ شيء... المحلات والأرصفة والساحات وكأنهم في مظاهرات عارمة.. التفت أمبرتو يميناً وشمالاً... ومشى عائداً للقاء جليلة.. لمّا وصل حيث تركها لم يجدها بحث داخل المحلّ وفي المحلات الملاصقة وأشرأبَّ على أطراف أصابعه بدون جدوى، وعاد مرّة أخرى إلى حيث توقف ليجدها هناك أمام عارضة محل لبيع المصوغ تتفرّج. وقف إلى جانبها وسأل دون تقديم.

- أأنت جليلة؟!

نظرت إليه ولم تجبه، لم تكن تعرف صورته... وإنّما كل مالديها بعض إرشادات عن ملامحه، ولم تتذكرها كاملة في تلك اللحظات وأردف أمبرتو:

- أعتقد أننا التقينا سابقاً.

حاولت تركه واللحاق بينعيسي الطويل وهو رجل معتدل الطول عليه «كوستيم» رمادي وربطة عنق، وشعره مصفف إلى الخلف، حليق الذقن، وأفقم بعض الشيء. لم ينتبه إليه أمبرتو... مسكها من ذراعها وأخلاها سريعاً إذ توقفت، وقال:

- أريد التحدث معك قليلاً...

التفتت إليه ورفعت بصرها إلى وجهه، وقد تذكرت بعضاً من تلك الارشادات مع اللكنة الخفيفة والتي لاتكاد تظهر في حديثه بسهولة قالت:

- أنت أمبرتو مارسيلو بلانكي، أليس كذلك...

- فعلاً أنا.

- يالك من تعيس الحظ!

قالت دون أن تشعر،

- نعم!؟

- في ماذا تريد الحديث؟!

لست أدري الآن... ضاع... ضاع السؤال.

- سؤالك ضاع! وأنت ضعت!؟ وأنا، والدنيا، والكلّ إلى ضياع..

ابتسّم وقال بسرعة:

- كيف علمت أني أسمّى أمبرتو مارسيلو بلانكي.

- وذكاؤك محدود أيضاً!

- ترغبين في إضاعة الوقت..!!

- الوقت الوقت.. وهل ربحنا شيئاً من الوقت... كله يسير إلى ضياع يا عزيزي أمبرتو... وكلّ شيء... كل شيء وأنا وأنت وهلّم جراً.

- إذا كيف عرفت؟!

- سأجيبك ومتى أضفت شيئاً آخر سيضيع كل شيء...

لم يفهم أمبرتو قصدها وفي الأثناء اقترب منها بنعيسى وأصرّ لها في أذنها فقالت تخاطبه بصوت مرتفع...

- أرجوك بنعيسى، ترقب قليلاً في بداية الشارع..

وابتعد بنعيسى خطوة، خطوة... وعادت هي للحديث مع أمبرتو...

- علمت في وقت تعيس بما كنت تريد مني... كنت ترغب في الزواج مني أليس كذلك.

- لا...

فقاطعته.

- لايهم، ولكن لو اتصلت بي مباشرة، وجنبتني وجنبت نفسك شقاء الأقاويل وشقاء النفس، ربّما كان للموقف أن يكون هيناً أكثر بكثير، أمّا الآن فلا أعتقد.

وانسحبت بعض الخطوات توقفت قبل أن تواصل وأضافت مشيرة إليه بيدها.

- ياللك من طلياني مجنون.

- ولم يفهم كثيراً ما أرادت قوله، «فمضى واضعاً صلبيه تحت إبطه» كما يقول.

* * *

لم تعد المصالحة بين الأصدقاء إلى ماكانوا عليه في السابق... فأمبرتو يجالسهم ويشترك معهم في كثير من الأمور، والأعمال ولكن مع نفور بسيط قد ينقلب في بعض الأحيان، إلى غضب، ونرفزة. ومحاولة لمغادرة المجلس سواء كانوا في المقهى أو في أحد المخازن... فأمبرتو لم يعد يحسّ بذلك الرابط القوي من الألفة الذي يجمع بينه وبينهم، يستثقل نكتتهم، ويمج بعض اختياراتهم، وأضحى يتحدث بكثير من التبجح عن إنجازات الغرب وإيطاليا خصوصاً، كما يردد قوله بأنه لم يستقر بهذه البلاد رغبة في الكسب وجمع الثروة... حتى دفع ذلك بعباس بو عنين في إحدى المرّات إلى القول ساخراً:

- لواه جيت Donky. باش تتفرج؟!

وضحك الجماعة من Donky هذه. وقال ابن العربي وهو خميس جاموس.

- لا لا... بعثو الأمم المتحدة شْيْكدس[1] يتفرج. والأمم المتحدة غايتها شريفة ونهض أمبرتو ليغادر ولكن سليم وطارق أرغماه على البقاء... فبقي صامتاً طوال بقية الجلسة.. وعندما كانوا عائدين أعلمه طارق أن الزبير القاسمي وهو يشتغل مع القرعي في سانيته أعلمه أن القرعي يريده للعمل في السانية وها قد أبلغه هزّ أمبرتو رأسه موافقاً وسأل «متى؟».

- غداً، غداً. قال طارق.

وبعد أن تفرق الجماعة عائدين إلى منازلهم سأل طارق عن السبب الذي جعل أمبرتو يغير سلوكه، ويغضب سريعاً ولأتفه الأسباب. فأجاب أمبرتو.

- أنا. لا، عادي، والله عادي.

- ليس صحيحاً، ماكنت في السابق تغضب إذا ماضحكنا، بالعكس كنت تشاركنا.

- ولكن...

- ولكن ماذا؟ هل يستحق نقاش اليوم كل هذا؟

قلّص أمبرتو شفتيه ولم يضف حرفاً آخر مما شجع طارق على مواصلة الحديث.

- نحن لانقصدك بسوء، وماذكرت عن سبب مجيئك إلى هنا، وفخرك بإيطاليا في كل لحظة وبإنجازات الغرب لايهمنا إلى الحدّ الذي يجعلك تردده بين الحين والآخر...

(1) - ليجلس دون عمل أو مساهمة.

إن بقيت، فعلى الرحب والسعة، واحداً منّا، لاميز ولاتمييز وإن شئت غير ذلك فالمسالك أكثر من أن تحصى...

وعند اقتراب أمبرتو من منزله صمت طارق مكتفياً بذلك رغبةً منه في عدم إثارة مشاعره أكثر...

* * *

مرّة أخرى وبعد حوالي الشهر يلتقي أمبرتو بجليلة في سوق غار الملح... كان يعرض خضر القرعي مع الزبير زادة وسط السوق... لم يكن الاقبال كثيفاً.. وهو ماسمح له برؤية جليلة فاهتزّ وضاع أغلب صوابه.. لم يخبُ حبه ولارغبته أبداً. ظلّ يراقبها لبعض الوقت، كان الزبير زادة منحنياً على السلع يساوم الحريفات. ولايفتأ يلقي كلمة إعجاب أو غزل لاحداهن بين الفينة والأخرى قال لواحدة:

ـ تصوري! إني ماكنت أحسب هذا السوق فيه من الضياء مافيه...

وابتسمت المرأة، وانحنت تبدل قبضة البقدونس، فأدنى منها رأسه وقال بصوت خفيض:

ـ ليتني كنت بقدونساً.

ـ يالطيف.

ـ لمَ؟! ألا يعجبك البقدونس!.. إذاً فجلاً مارأيك في الفجل نصف أحمر ونصف أبيض وسيقان خضراء.. ولكن الرأس الأحمر هو المهم دوماً.

وانسحب أمبرتو من وراء السلعة دون أن يشعر به الزبير... واتجه إلى جليلة... وقد قرر الحديث معها وشرح موقفه، وإبداء رغبته من جديد... مباشرة ودون وسائط... اقترب منها وقال:

ـ جليلة، أرغب في الحديث إليك...

التفتت إليه ولم تكن قد رأته في السوق قبل. وما إن وقع بصرها عليه حتى قالت.

ـ الطلياني من جديد؟! ماذا؟!

ـ في الحقيقة ما أريد قوله لايمكن أن يطرح في هذا الإطار: الزحام، وصراخ الباعة والمشترين...

- أين إذاً؟!

- مكان آخر هادئ...

- الله... الله عالرمنسية.. قلت لك اتركني ولكنك لم تشأ... (وبعد لحظات أضافت) حسناً. أتفاهم مع النّصّاب[1] وآتيك...

مسكها وهو يقترب منها أكثر وقال:

- أحبيتك رغم كلّ ما حصل ولازلت...

- أنصحك بالابتعاد عني، فأنا عاهرة.. أنت تعرف معنى عاهرة...

- أعرف نعم، ولكن كل امرأة تبحث عن بيت آمن، أياً كانت المرأة... تنهّدت وبعد لحظات قالت وهي تمسح بإصبعها إحدى مقلتيها...

- أمّا أنا فلم أعد أعتقد ذلك أبداً... أبداً... أرجو أن تتركني في حالي فقط...

- لاتعتقدين أنك...

فقاطعته:

- الزمن قد مرّ بشكل فظيع الآن، صفّر القطار... وربما وصل إلى المحطة الموالية.

- دعينا من القطارات. أنت الآن أمامي أنا، وأنا أطلبك أنت وليس القطار...

- فعلاً!

- أحبيتك، أقسم أني أحبيتك... ألا تصدقين؟

- أصدّق... وأصدّق أن الزمن أفظع من أن يؤتمن... و...

- إذاً...

- إذاً ماذا، أبهذه السهولة...

- ألست ولية أمرك... ألسـ...

- ولية أمري؟!! صمتت لحظة كأنما تفكر فيها ثم أضافت.

- يا أمبرتو. أرجوك... إني أريد أن أختلي بنفسي الآن..

(1) - من عرض بضاعته على الأرض...

ـ الآن...

ـ نعم الآن، بعد غد سأجيبك...

ـ لماذا؟ ماذا تنتظرين؟! وأنت على علم بكل شيء منذ زمن بعيد...

ـ لاتلحّ أكثر أرجوك. قلت أنّي سأقول لك رأيي بعد غد... إن شئت نلتقي أمام تلك المصاغة في بنزرت... أودّعك الآن...

وتركته واقفاً وذهبت. وبعد أن ابتعدا تذكرت أنها لم تسأله عن مصير الرسالة.

لم يره الزبير إلا وهو يقبل من بعيد بين النسوة الملتحفات بالبياض. ولما وصل إليه سأله أين كان؟ ومنذ متى ترك السلع فأجاب باقتضاب.

ـ ذهبت لاقتناء علبة سكائر فلم أجد.

وعاد إلى العمل كأن شيئاً لم يقع.

O O O

الفصل الثالث

أيام عديدة قد مضت على بسام دون أن يعترض نفرٌ من الحركة سبيله فحسب لبعض الوقت أنهم نسوه. وأسرّ لنافة بذلك، فاختلجت، إذ قرأت في تصرفهم هذا أن عملاً خبيثاً يمكن أن يقوموا به بعد الهدوء الذي يصنعونه. والحقيقة أنها لم تعلن له تخوفها بقدر ما أكدت رأيه في انفراج الوضع... واحتفظت لنفسها بمهمّة مراقبة الوضع في الحركة لإعلامه بما قد يخططون ضدّه عند اللزوم.

مضى شهر جويليه بتأن وبدأ أوت في اللحاق به العاصمة شتت أهلها وقاطنيها ليستقروا على شواطئ الضواحي، حتى لم يعد منهم إلا قليل بين شوارعها.. وارتفعت الأصوات من المآذن، فكان الصدى، ولاشيء آخر بعد أن كانت تضيع وسط المارة وأصوات السيارات، ونداءات الباعة المبحوحة.. «كأن خريف الناس يسبق خريف الطبيعة، قالت زوجة الفقيد محمود بن حازم وهي تمرّ في شوارع المدينة. متجهة إلى محطة الجمهورية، وماكادت تتوقف أمام «المترو» حتى نسيت الرقم الذي أشار به عليها أحد الموظفين، فلم يسعها إلا أن تسأل واحداً من المسافرين المهلكين بحرارة الشمس.

ـ لو سمحت... هل يصل.. إلى محطة ابن خلدون؟!

ارتجف صوتها، وضاع التركيز فنسيت شيئاً ممّا ينبغي أن تقول. ومع ذلك أجاب المسؤول وهو ينظر إليها بعينين تكاد أن تنغلق...

ـ نعم... يصل..

قفزت صاعدة، وما إن تجاوزت الدرجتين حتى التفتت وشكرته، فلم يردّ عليها بشيء، ولما وقفت خارج محطّة ابن خلدون بدا لها الحيّ كتلة من المسخ برغم العمارات الحديثة، والمنازل المتشابهة في كل شيء، وحتى لاتواصل التأمل في هذا الوجه من الحيّ أخرجت من حقيبة الكتف، عنوان ورشة بسام عاشور. وقرأتها بضع مرات، ومع علم

درايتها أي طريق تسلك فقد أعادت العنوان وسارت في أحد الاتجاهات على أمل أن تسأل من يعترضها.

انتهت زيارة نافلة لبسام فخرجت من المحلّ. وسيمرّ هو إليها قبل العودة إلى بيته. كان في الحقيقة يشعر بالسعادة لهذه الدعوة من طرفها.. وبعد دقائق، تتجاوز الخمس توقفت سيّارةُ «تاكسي» أمام الورشة، نزلت منها امرأة في الأربعين من العمر، تبدو أنيقة إلى حدّ كبير، وخطت إلى داخل الورشة، كان بسام يراقبها وهي تتقدم نحوه، حاول تذكرها فهو ولاشك قد رآها، ولكن أين؟ ومتى؟ نهض واقفاً، وتلفظ بعبارات الترحيب، ثم أزاح آلات النحت من أمامه، والقطع التي في طور الانجاز... شعر بالارتباك وهو ينتظر ماستقول هي أيضاً لاتقل عنه درجة في هذا الشعور. بعد وقت قصير عرض عليها أن تجلس ففعلت، وجلس هو أيضاً، إنها ترى هذا الشخص لأول مرة في حياتها يبدو محترماً رغم غبار الخشب المتناثر على ملابسه وشعره، ويبدو أيضاً مثقفاً في تعامله مع الناس، كان ينبغي أن تبدأ هي بالسؤال كما خططت قبل وصولها ولكن الارتباك لخبط كل شيء، قال بسام:

ـ تفضلي مدام، هل تودين سلعة معينة؟!

ارتبكت من جديد، فهي لاتريد سلعة ولاإرشادات ولاأموال، ولاأي شيء وكل مافي الأمر أنها تلبي دعوة وصلتها عبر البريد من هذا الشخص، صاحب هذا العنوان، إذاً ما الحكاية؟! حاولت الحدّ من ارتباكها، وأسرعت في القول:

ـ لا شكراً إني... أقصد أني جئت إلى السيد بسام عشور: فهل... أنت بسام..؟!؟

ـ أنا بسام عاشور، وليس عشور..

ـ المعذرة.. أقصد عاشور هكذا كما قلت أنت.

ـ لابأس تفضلي مدام، ليس هناك أي مشكل تفضلي.

لقد شعر بشيء من الخوف يسري إلى صدره، وهو يترقب هذه المرأة لتفصح عن رغبتها.

ـ أنا زوجة المرحوم محمود بن حازم، قالت المرأة، وهي تثبت بصرها على وجهه وتحوّله إلى موضع قدميها، فامتقع وجه بسام وسرت إلى ذاكرته.. صورة هذا الرجل وأخلاقه، كان ينبغي أن يتصل بعائلته بأي شكل ليبلغهم تعازيه ولكن حالته الصحية

ماكانت لتسمح بذلك إلى أن نسي تماماً، وبما أن زوجته تأتي إلى محله بنفسها ولايدري الآن مايقول ومايفعل، ولم تصمت المرأة طويلاً فأضافت.

ـ الواقع أني جئت دون سابق موعد، ربما لم يكن لديك علم بوفاته:

فقاطعها وقد سرى شيء من الحزن في صوته.

ـ بلى سمعت، ولكن عارضاً صحياً وقف دون إبلاغكم تعازي، رحمه الله كان شهماً.

ـ فعلاً. كان شهماً. في الواقع لم يمض على وفاته الآن إلا شهر وبضعة أيام، وقد استغليت زيارة لعائلتي في العاصمة فقدمت إليك.

ـ أهلاً بك الآن وفي كل الأوقات.

ـ شكراً.

كان بسام ينتظر الهدف من الزيارة الذي لم تعلنه بعد، وهو لذلك لايزال متردداً في كل كلمة يقولها، كما أن أحساسه بالارتباك لايزال قائماً ولايدري السبيل لتجاوزه، حتى وجد نفسه يقول:

ـ كما ترين لست إلا نحاتاً للعب خشبية للأطفال. هل تودين مشروباً معيناً أم أحضر لك قهوة.

ابتسمت. فانتا إن أمكن.

نهض وسار أمام الباب. ونادى بصوت مرتفع أحد الشبان ليأتيه بفنطا صغيرة ثم عاد ليجلس في مكانه. وقالت المرأة وهي تفتح حقيبة الكتف.

وصلتني رسالتك. الحقيقة أني لاأدري ما أقول وأنت حاضر قربي كما ترى... ارتعد بسام وأحس بظلمة تعلو عينيه، عادت العبارة في أعماقه. رسالة!... أقصد، أنا رسالة مني أنا!

أحست بالارتباك. سحبت الرسالة، وحدقت في عينيه، لماذا يتكلّم بهذا الشكل، أعادت النظر في المظروف، ثم في وجهه، قدمت إليه الرسالة هذه رسالتك أليس كذلك. أنت الذي بعثت بها وطلبت مني المجيء متى استطعت وها أني فعلت.

ـ أنا! أرسلت! طلبت!... يامدام بن حازم.. أنا صحيح أعرف محمود وهو صديق

عزيز عليّ دون شك. ولكن ماكتبت هذه الرسالة التي تتحدثين عنها بل ماكتبت رسالة في حياتي أبداً حتى لعائلتي.

اصفرّ وجه المرأة ونز العرق من جبينها، ولاحظ بسام ارتباكها وتخوّفها فبقي صامتاً يترقب ماقد يصدر عنها. تعددت أسئلتها، واحتارت في الاجابات التي تتقبلها، هل تنهض، هل تطلب المعذرة، ومن أرسل بهذا المكتوب، وماذا يريد من ورائه: وشرد ذهنها لفترة قصيرة، بسبب دخول الشاب وبيده «الفانتا» التي طلبتها. وضعها على الطاولة وهو يبتسم، ثم رفعها بسام وقدمها لها. لم تعد تشعر بأي حاجة لهذا المشروب حتى وإن كان مثلجا ولذلك تناولتها من يد بسام وأعادتها إلى الطاولة.

* * *

اتجهت نافلة إلى منزل آسيا صرّاف بعد خروجها مباشرة من ورشة بسّام وما إن وصلت إلى النهج حتى رأت أحد الأعوان السريين جالساً أمام محلّ عطارة وبيده مجلة فرنسية، كانت آسيا في غرفتها تساعد طفلاً صغيراً من عائلتها على إعداد أحد تمارين الحساب، فجلست نافلة إلى جانبها، وقد أرسلت الطفل ليلعب في الخارج. قالت نافلة مبتسمة.

- دعيه يرتاح، العطلة للراحة، وليست للعمل.

- ينبغي أن يتمرّن على العمل المتواصل منذ الصغر... تنقلب الحياة دوماً وتتغير الفرص... قالت آسيا.

- لاحظت قبل دخولي النهج أحد الأعوان السريين جالساً قرب العطار.

- أعتقد أنه يراقب منزل محمد الوراق.

- محمد الورّاق! محمد الورّاق.

- ذاك الرجل السمين، أبيض الشعر، تربته دائماً يجلس على عتبة الباب في مدخل النهج.

- تذكرته الآن. نعم.

- له ولد منخرط في «الصف الاشتراكي القومي».

- إذن!

- يطلبونه للاعتقال، وقد اختفى منذ أيام. ولاأحد يدري أين. وكل يوم يقبل عون جديد.

تنهدت نافلة، كأنها لم تجد تعبيراً لمساندتها لهذا الشخص، فعادت تحملق في أثاث الغرفة وما إن سألتها آسيا عن بسام حتى ابتسمت وقالت:

- كنت عنده في الورشة، بدا سعيدا لعدم اعتراض أي شخص من الحركة له هذه الأيام ولكني مع ذلك أخشى عليه من أن يكونوا يخططون لعمل ما ضدّه دون أن نعلم،

- يبدو أنك...!!

- فعلاً إني متعلقة به جداً.

دخلت والدة آسيا، فصمتت نافلة. سألتها عن حالها وعن عملها، فأجابت أنها لاتزال تبحث عن شغل وطلبت منها أن تدعو لها. كانت المرأة قد دخلت لتسأل ابنتها عن العشاء الذي يمكن أن يعدّ لهذه الليلة فلم تجد منها أي إجابة معقولة. ولذلك خرجت سريعاً. وواصلت نافلة:

- لقد جلس حذوي وطوّقني بذراعه. كان هادئاً، وكنت كغصن زيتون طري، التصق جنبانا ببعضهما البعض، ثم كان دافئاً، رقيقاً في عباراته، رمنسياً في اختياراته الشعرية، قبلني قريباً من شفتي، كان حنوناً رغم ماهو فيه من ضيق، وتعب. وكان حارّاً في أدائه، إني...

- فهمت، حاذري...

دخل الطفل ثانية إلى الغرفة، كان يبحث عن حذائه بين الأرائك.. وما إن فرح حتى قالت آسيا:

- إنه إنسان طيب وشهم.

- فعلاً ولعلّ ذلك ماجعلني أتعلق به أكثر وأجتهد في شدّه إليّ، ولكن الخبثاء لايشاؤون تركه في حاله، قد حدثتك في السابق أن ثلاثة من أعضاء الحركة قد اقتحموا الورشة وهو موجود بها. وطلبوا منه العودة إلى صفوفها عنوة وهددوه، ولمّا أصرّوا على آرائهم، هددهم بإبلاغ الأمن، فاعتدوا عليه لكماً وشتماً ثم قلبوا ماوجدوه أمامهم من سلع.

ـ لو كنت مكانه لأبلغت الأمن.

ـ كان أرفع من أن يفعل ذلك، فهو رغم كل ماقاساه لايشاء لأحد منهم أن تطأه يد رجل أمن، كان يردد أن الخيانة ليست من شيمته أبداً حتى وإن كلفه ذلك حياته. في لقائنا الأخير قال بعد أن قبلني على جبيني:

ـ «اسمعي» رفعت رأسي وحدقت في عينيه، كأني كنت أقرأ ما سيقول فيهما. قال لأقول إني خائف، ولست كذلك أبداً. كما لست بالمتوحش أو المتهور، إني عاقل كل شيء أعيده للعقل حتى وإن كان مخالفاً لطبعي ورغبتي... إني أشعر فعلاً وهاأني أستشيره قد اعترضني مختار عيسى منذ يومين بطريق النحاس باشا، شتمني، وشتم والدتي اغتظت لذلك إنْ أني ما أسأتُ له، ثم ماشعرت إلا ولكمة منه تستقر على ذقني، وأخرى على بطني، كان ينبغي أن أضربه كما فعل ولكني مارضيت ذلك. قلت: لايستحق لمسة مني، إنه أنذل وأحقر من أن ينظر إليه مخلوق. وانسحبت مع ذلك. لو كان شخصٌ آخر مكاني ألا ترين أنه يبلغ الأمن أو يرد عليه بلكمات تنسيه نفسه وقوته... إنني أستشيرك، هل ترين فائدة من الابلاغ عنه وعن زملائه. لقد صرخت ومددت راحتي إلى خدّه أتلمّسه. لم يكن يشعر بالألم ساعتها... كنت سأنفجر غيظاً... واستدرت لأجلس بالناحية الأخرى، وتطلعت إلى رقبته وصدغه... الكلب بن الكلب. قلت بصوت مشحون غيظاً... وأضفت وهو يستمع إلي: لماذا لم تخبرني قبل الآن، لو كنت معك ساعتها لأهرقت عينيه، الجبان.

وصمتت نافلة لحظة من الزمن شربت فيها ثم واصلت.

ـ كان ينبغي أن تقطعه إرباً ابن الكلب. قلت. ثم أضفت: لايستحق الحياة، الخنزير، لايستحق الحياة ولازملاءه، أبناء القحبة، أيضاً.

كانت آسيا تستمع بانتباه لحديث نافلة مع أنها غير متفقة معها في الرأي المتضمن لردة فعل عنيفة على من يعترض سبيل بسام، استمعت وكأن مايروى ليس من أحداث العصر، إنما من الجاهلية. ومع ذلك حافظت على صحتها إلى أن دخلت والدتها بكأسين من الشاي، فمدت لها واحدة واحتفظت لنفسها بالأخرى كانت الزيارة لاتهدف لشيء أكثر من الاطمئنان على حالة آسيا وعائلتها، وما إن اقتربت الشمس من المغيب حتى وجدت نافلة نفسها في الطريق عائدة إلى بيتها، لم تكن على علم بزيارة «مدام» بن

حازم إلى بسّام في ذلك المساء، رغم أنها كانت تحدس أنها ستزوره يوماً ما. ودخلت نافلة بيتها، وأعدت العشاء وبقيت تترقب قدوم بسّام، كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً عندما طرق الباب نهضت نافلة واتجهت رأساً إلى الباب دون تردد مع أن الطرق ليس عادياً، هذه المرة. كان بسام واقفاً صامتاً، وبيده محفظة صغيرة. طلبت منه الدخول فأبى، بدعوى أن لديه ماسيقوم به، أحست، بالاخفاق، والبرود دفعة واحدة كانت تنتظر أن تكون ليلة ساخنة، ولكنها فوجئت بعكس ذلك، ورجت منه الدخول على الأقل وأكل شيء مما طبخت، كان التعب جلياً على ملامحه وصوته، حاولت معرفة السبب وأخفقت، كان أغلب الوقت الذي قضاه معها صامتاً، ولايجيب إلا بجمل مقتضبة.

تراءى لها في تلك اللحظات أنه يفرط من قبضتها بشكل لاتستطيع منعه. انكفأت على نفسها إثر خروجه. حاولت مشاهدة التلفاز فلم تستطع، أخرجت كتاباً قرأت منه أسطراً قليلة ثم ألقت به جانباً... ولم تجد من حل غير شرب منوّم يكفيها إلى مساء الغد.

لم يكن بسام نفسه يرغب في ترك نافلة هذه الليلة، ولكن ما جدّ من أحداث دفع به إلى تركها، من أجل التفكير الجدي، واتخاذ الموقف الحازم تجاهها وتجاه بقية أعضاء الحركة إذ لاينبغي أن يمضي حياته تحت أيدي هؤلاء القذرة، وعموماً سيفكر في الأمر وبتأنّ. مضى يومان ولم تمرّ عليه نافلة، وفي مساء اليوم الثالث أقبلت كلّ من خديجة وآسيا تسألان عنها، فوجئ بسام بعدم وجودها في منزلها ولافي أي مكان آخر يمكن أن تكون فيه... سرت به الشكوك إلى الأقاصي.. حاول تريض نفسه وما استطاع... حاول أن يبعث في روحه نفساً جديد، إنه ربّما لاتكون شكوكه صحيحة، حاول ترديد أغاني «الهادي حبوبة» تذكر رقصته اللولبية، وحشدت الأرض بقدمه كأنّما يريد منها النهوض، والثورة، بحة صوته، وسرعة الايقاع... لاشيء من ذلك استطاع انتشاله من واقعه طويلاً...

أنزل الستار الحديدي وأحكم المغاليق ومشى في الطريق شارد الذهن والبصر حدث نفسه بعد طول المسير: «وقعت بين مخالب الضباع... كيف لي أن أجدك الآن... كيف؟ كان لك أن تقاومي... تصرخي، تركلي... تعضي... تهربي... لأنهم فئران قذرون... ولكن يبدو أنك أخذت عني سلوكي وآرائي... إني لن أسامح نفسي لعلي السبب وراء مايفعلونه بك... يانافلتي أجيبيني هل تتعذبين الآن... هل فعلوا معك سوءاً... وجد نفسه أمام بيتها، رفع يده وطرق عدة مرات، لاأحد يجيب لاأحد يرد... قفل عائداً، وجد نفسه في الطريق الرئيسي بالعاصمة. أمام المغازات الفاخرة والناس،

والسيارات، وأثار ذلك كله حنقه، بدا له الجميع مراؤون حتى الأعماق، كذابون، منافقون، في أعمالهم، وألبستهم وتحايلهم، وممتلكاتهم، جميعهم اختطف نافلته ولاأحد يجرأ لإخباره أين تكون، جلس على أحد الكراسي الثابتة، حملق في الوجوه علّه يراها بينهم ومع تقدم الليل نهض، ركب الحافلة واتجه مرّة أخرى إلى منزلها... طرق الباب بحدة وجهد أكبر، ولكن لاأحد يجيب، ليسكن ثورته. ويقوي خاطره.

ألقى بنفسه على السرير واستدعى النوم فلم يقبل سريعاً، كيف سيكون حال هذه المرأة، وهل تظهر من جديد أمام عينيه، كيف له أن يصل إليها كيف له أن ينقذها مما هي فيه، وكيف لهؤلاء الخونة أن يندحروا تماماً من على وجه البسيطة، وغطّ في النوم بسبب التعب البدني، من عمل والسّير لساعات في شوارع العاصمة.

* * *

عاد بسام في اليوم الموالي إلى بيتها يبحث عنها، طرق الباب عدة مرات، وجلس على العتبة يترقب ظهورها، وضع رأسه بين راحتيه، وانتفش شعره، من رآه على تلك الحال من المارة استغرب وتوجس منه سوءاً، لم يسأله منهم أحد، ولم يقترب منه. ولم ينتبه هو ذاته إلى أحد منهم، وابتعد، ثم عاد من جديد ليطرق، ويجلس مترقباً... تحوّل بين احتمالين مرّات: إمّا أن تكون قد أختطفت. فأين يمكن أن تحجز؟ مخازن الناعوري دائمة العمل كما تقول، ومايتجرأ سليمان على كشف نفسه بهذه السهولة، مما يجعل وجودها فيها مستحيلاً. وإذا كانت بين أحضان شخص آخر، فليس من الممكن أن تبقى لديه كل هذه المدّة، ربما يقع توريتها بمنزل أحد الأعضاء الأنجاس غير المتزوجين، يحتمل!... ولايحتمل... وعاد من جديد إلى الورشة حوالي الظهر ممتطياً سيارة تاكسي، إذ أظناه الجوع والتفكير معاً...

كانت نافلة في حمام الأنف بدعوة من أمينة شعبان وربيبة بوسنبعة.. فما إن نهضت من ذلك النوم العميق حتى سافرت دون أن تخبر أحداً... كما لم تتصل بأحد عبر الهاتف، كانت تبحث عن الراحة ونسيان مايشغلها من عموم نزلت إلى الشاطئ ليلاً مع صديقتها وسارت على حافة الماء المندفع... الظلمة كانت تسحر الأعين، نقاط قليلة تلمع على قمة بوقرنين، وفي أعماق البحر «مشهد شاعري رائق»، قالت ربيبة تحطيماً للصمت فقالت نافلة: «فعلاً: لو كانت أحاسيس البشر كالطبيعة فقالت أمينة:

لاتقصدين في سوادها طبعاً، هممهت نافلة، وغزا الصمت من جديد لايشفيه غير الأمواج المترامية، وخرير محركات السفن الحارة بعيداً، قالت أمينة بعد صمت وبشيء من التحسر: لو كان لدينا في القصرين بحرا! «فقالت ربيبة وكأنها تقاطعها» بحر...! بين الجبال، عوضاً عن الغابة!!؟ علماء الجيلوجيا يقولون أن البحر كان يمتدّ إلى حدود الكاف وسيدي بوزيد... ولكن... قالت أمينة مغيرة مجرى الحديث: «من هنا. من هنا، من هذه الضفة من المتوسط، إلى تلك بضع أميال فقط عالم الآخرين... حيث الحياة... وقالت نافلة: فعلاً... عالم الآخرين. فقالت ربيبة: بدأت تحلمين... بدأت تتمرغين على قطع الغمام... فمن يوقظك يا حياتي؟!!

- وأشتهي الآن أن أسكر... وأغادر عالمي هذا... التعليم والسياسة... وأفكار الزواج والعمل وكل الدنيا... أريد أن أضحك، أضحك حتى تنشق الأرض تحتي...

- أما أنا فأشتهي أن أنام مع شاب يصغرني بثلاث سنوات..

- تنامين، تمارسين الجنس... اللعنة على الشباب. الرجال... ننظر إليهم بعين ينظرون إلينا بـ...

- شاب ينسيني ماذهب من عمري وماسيأتي..

- وأما أنا فلا أشتهي غير حزمة من الكتب... (قالت ربيبة)

- التفتت إليها كل من نافلة وأمينة وحدقتا فأضافت ربيبة..

- حزمة أدخلها ولاأخرج منها..

فقالت رفيقتاها معاً.

- ألم تشبعي من النكد حتى وأنت في أعماقه!؟

- أما في المجانين وناقصي العقل.

فقالت ربيبة موضحة.

- أريد أن أفهم عالمي ومافيه، والتاريخ، والتقدم والتطوّر.

- ويفنى عمرك ولاتجدين بقبضتك غير الهواء..

قالت أمينة وهي تلقي بحفنة رمل في الماء.

- وزيارة أقطار العالم ومعرفة الأجناس وأنماط الحياة... لاتعجبك لاتكفيك لفهم

عالمك قالت نافلة وسارت فتبعتها أمينة وربيبة... ودون أي تعليق على ذلك قالت أمينة وقد عادت إلى أمنيتها.

ـ الشاب موجود، حرارة، وحيوية، ست وعشرون سنة كأنها جمر... وصدره المنغلق على نفسه كأنه صفيحة زيت، وعيناه...

توقفت نافلة فجأة وركلت الماء بقدمها فسألتها السبب فقال:

ـ نسيت، لم أخبر بسام أني هنا... ولاأحد يعلم... معضلة...

ـ هل... أقصد هل...

ـ لاتقصدين، ولا هل، كان ينبغي إخباره... وإن لم يكن خطيبي فهو مالي في العاصمة بل كل مالي..

وقالت ربيبة مستفسرة.

ـ وماذا ستفعلين الآن.

ـ لاأعلم. لاأدري...

قد بات بسام ليلته في المحلّ، لايدري إن كان يفكر أم لا، ولايدري إن استقرّ على رأي واحد أم لا... ولكن الأكيد هو رحلته إلى الماضي والسنوات الأولى من حياته في المهدية، المهدية: ذلك العلم من ألف ليلة وليلة، القصر والسقيفة السوداء المرتفعة... البحر. «البحر الأزرق في عينيك» والسفن، والشباك، والسمك... الحاج عمران عاشور والدو والقرآن العظيم، «يا ولدي احفظ القرآن يحفظ، احفظ يا ولدي كله نعمة...» و«الشورت» بالتكة، «إغطس الماء جميل دافئ يقوي العظام ينشط الحواس... اغطس لاتفكر.. والقمر عندما يسبح على صفحة تلد المياه... المهدية ذلك الحلم... من فوهات ألف ليلة تمرّ النساء وتعانق القمر، الأزقة، الدور القصيرة «المسجد الكبير» يافتى عندما تصل إلى... والحاج حمادي جالس على كرسي أمام المحلّ وبيده المروحة، وإلى جانبه السلعة مصففة على الدكة... احفظ القرآن الكريم مع كل حرف يكتب الله لك أجراً.. والصيف يذهب بعيداً ليعود. الدراسة سنة، والعطلة سنة، الصيف سنة والشتاء سنة. والشّباك تلقى، وتسحب والسمك، خير... وخير... «سأدرس الفنون بالجامعة. «اسمعي ابنك يريد أن يدرس الفنون... يضرب الرق خلف الراقصات: «الفنون ليست....». «الفنون... تعلمي معنى الفنون» «لاأفهم أنا. كم نصحتك من مرة، قلت لك احفظ

القرآن... ولكنك وضعته خلف ظهرك... وسرت تبحث عن الفنون، علي الرياحي أو شافية رشدي سيشفعان لك يوم القيامة.. ليس هذا ماأريد قوله.. الأقدام حافية مشققة تدعس الأرض دعساً. «من هنا من هنا. راقب أنت من هناك إذا مارأيتهم نادنا لاتنم، كرّ وفرّ» واللحم يقدح البلاط قدحاً... الوالدة تركض بيننا نحن الخمسة، خبز، مرق... ملابس... كلْ ولاتنظر إلى ورائك كل..» الحاج عمران عاشور لايريدك أن تدرس الفنون... فكر في أي شيء آخر غير الفنون هناك مايكفي من الاختيارات: قال الحاج عمران تركت الهندسة، والدين، والطب وتبحث عن الفنون». إذا أصريت على الفنون لن تر مني مليماً واحداً، ولن أسأل عنك ولن... ولن... الوالدة تركض، تركض بين المطبخ والمائدة تقوم بترصيف الملاعق، والخبز و... ترفع الأواني تمسح المائدة و....

ونافلة، لم تظهر بعد... ينهض يفتح الباب يخرج يترقب تاكسي يمضي الوقت تحت عمود الكهرباء القصير... يجب أن أطمئنّ عليها هي مابقي لي في هذه الدنيا، العائلة، والمهدية... والحركة.. لم تعد... يمضي الوقت دون أن تمرّ تاكسي واحدة، يعود إلى المحل يرفع الستار قليلاً ويدخل، ينزله ويستقر على كرسيه خلف الطاولة. وفانوس ضعيف، قريباً منه لايكاد يكشف بين الأبيض والأحمر، ربما تكون زارت آلهاً في بنزرت... ولكنها نسيتهم منذ زمن بعيد... بعيد وتنسوها كذلك... «إن فعلت.. ماقلت لن ترى مني شيئاً أبداً الفنون... «افعل ماشئت وتذكر جيداً لاتقل والدي ظلمني. والدي ظلمني لم أدرس الفنون ودرست الآداب العربية... جافة محنطة... قال فلان: شرّح نصه... وجمله، وكلماته، وأحرفه، ثم ماذا؟ أعد العمل ذاته مع قصيد فلان... فلان ليس شاعر... فلان يدعو إلى التجديد... وماهمّي أنا إن كان كذلك أم لا. ماذا سأضيف؟ مات خيالي، ماتت أحلامي... ساحات الكليات تعج بالبنات والشعارات والخطب والمنابر السياسية ونافلة إلى جانبي، لماذا هم هكذا بين الطلبة أنفسهم، وبين الأمن، الزجاج يتساقط. ونافلة إلى جانبي، مع أي جهة أنت؟! «أنا مع الحق؟» ليس هناك حق ولاباطل، الكل يصرخ ينادي... عبيد الله المهدي في شوارع المدينة، بين الأزقة والحارات. بلاط المهدية في قمة رأسي... «إصعد وقل كلمتك...» «أي كلمة ستقول» عبيد الله يعبر السقيفة العالية وينزل إلى البحر المترامي... ثلاثة أشهر لم يرسل إليك الحاج عمران مليماً واحداً... صعدت نزلت صرخت صرخت... الحرية، الكرامة، عن أية حرّية تتحدث... القرآن الكريم بيد، والبيان الشيوعي بيد، «ليس التاريخ إلا تاريخ صراع

بين الطبقات «والمجتمعات والأولياء، والأبناء... الحاج عمران لايعرف ماركس ولالينين.. ولاشيء... نافلة تمسك بيدي ماذا يقولون ماذا يريدون؟؟.. اليوم ستتغذى بمطعم المدينة بباب البحر، بعث لك أهلك مالا؟! أنت تعلم أني لم أزر أهلي ولاأنوي زيارتهم أبداً... «إم. أعلم، لن أسألك عن مصدر هذا المال...نافلة أيضاً. تبيع نفسها، وأنا أتحدث عن الكرامة، والحرية، لنأكل، لنشرب للنام... ليبقى لنا يوم آخر أو مابقي... رجيش القرية عند قدم المهدية. تسبح في طراوة الجو وسكون الليل إذا ماقررت يوماً أن أبني منزلاً سأبنيه هنا في هذا السهل بر جيش، ولن ألقي نظرة على بومرداس ولا... البحر ينكسر على صخور المهدية... من هنا نزل عبيد الله، ومن هنا صعد..خيوله تطرق البلاط تحفره... ونافلة تلقى لي قطع السمك، كلْ كلْ ولاتفكر بهذه الحياة كلّ الناس وسخون... أنت تعلمين أني لاأريد إلا الصدق... أفهم ماتريد، وأنا لاأريد منك إلا أن تكون سليماً... أنا أحبك... صدقني أحبّك ولكن حرارة جسدي أقوى من أن أحتملها... لن أفرض عليك أن تحبني ولاأن ترتبط بي ولا أن... إعلم فقط أني لك الصدر الأمين لم يعد الفرق شاسعاً بين الموت والحياة في نظري، أنا أعلم أنك لن تحتمل وجودي بجانبك، سنّة الحياة.. قل سنّة الحياة ولكن مادمنا في هذه المدينة التعيسة فنحن سواسية لامال يرسل إلينا ولاعائلات نفكر فيها أو تفكر فينا إن فكرت عندك أنا التي بجانبك فذاك أقصى ماتفكر فيه وكذلك. إن فعلت أنت ماأفعله أنا... الكرامة، والحرية، والعمل، حبر على ورق، على جدران على زجاج... على لحم البشر..

كم كنت قاسياً معها، في عديد المرات لطمتها وشتمتها... وتخليت عنها لأيام ثم عدت أبحث عنها... أحسست بتعاستها، كما أحست بتعاستي، وعادت كما كانت.. إلى أن انقطعت عن الجامعة... لم تعد نافلة بعد والليل طويل...

* * *

مع نهاية الثلث الأوّل من الليلة الموالية انعقد بمخازن سليمان الناعوري الاجتماع الثالث لأعضاء الحركة منذ استقرارها هناك. كان سليمان قد صرف عمّاله باكراً... وقام مع الهادي بنهوسيّ ومنصور مزيان بالاعداد المادي لهذا الاجتماع فصفّفوا الصناديق، وجلبوا ما أمكن لهم من الكراسيّ ونصبوا الطاولة ووضعوا عليها الملفات الجاهزة وخفضوا قوّة الأضواء المستعملة...

ويبدأ الاجتماع، السيد حسني عامر ـ والحقيقة أنه رفيق ـ بصلعته اللّامعة وأنفه المدبّب وأذنيه الكبيرين يجلس في الوسط. وسط الصفّ الوحيد المقابل للحضُور، ليس أمامه إلا أوراق أخرجها من جيبه ومسّدها على الطاولة مرّات عديدة لتستوي، لا مصلح ولا قوارير من الماء ولا شيء آخر فقط ملفات على الجانبين. ووجوه متّجهمة إليه تترقب ما سيقول. وتفوّه «الرفيق»، صوته لايبلغ الآفاق، يجب أن يرفعه قليلاً محاذراً من إمكانية سماعه في الخارج... نعم هكذا. يكفي. جيّد... الحركة تعاني علّة أزمات، أبسطها يستحق من المجهود والتضحية مايستحق، تقارير الرّفاق ستبيّن ذلك بالتفصيل... ولكن يمكن أن «تورد» المحاور. كثرة الغيابات من طرف الأعضاء. والميزانية العامة إذ يوافق هذا الشهر الدورة السنوية لمناقشتها... وماينبغي، هو تضافر الجهود وتكاتفها للخروج من هذه المشكلات، الحركة أخذت من وقت ومجهود الساهرين عليها والمناضلين تحت رايتها الكثير وإذا ليتواصل الـ... وتشرئب رقاب الجالسين على الصناديق وتتراقص الأيادي أمام الوجوه مع الحرارة، والناموس... ومن حين لآخر ينهض أحدهم واقفاً لرؤية مؤخّرة سرواله إن كان تمزق أم لا، أو لتحسين وضع صندوقه... وتوقّف الرفيق عن الخطاب لأن الكلمات التي وصل إليها لم تعد واضحة لضعف التنوير، لحظة، لحظات... كلمة مفهومة وأخرى لا. فيتجاوزها... كلمة أخرى، وأخرى، ولم يعد الخطاب واضحاً، وليس هناك زعيم ملهم ليلقي الكلمات ويشدّ الانتباه دون اعتماد على الورق... وينهض عبد الناصر مفتاحي ويده مسندة إلى كتف جاره: لو يسمح الرفيق حسني وبقية الرفاق الكرام: ماعدت أفهم ما تقول وأحسب أن المبتغى هو: أن الحركة هي حركة الجميع، وأن ليس لأحد سلطان عليها غير أعضائها. أعضاؤها يقترحون ويوافقون، ويجمعون والاجماع فيه صلاح وخير للجميع، أذكر أني قرأت من أقوال «أبرهام لنكولن» مايلي: «لا يُجمع شعبي على خطأ». (جحظت بعض العيون وظلّ الباقي على حاله، واقتربت بعض الرؤوس من بعضها الآخر لتعلق على ماسمعت) على الجميع إذا أن يتجاوزوا الخيالات والانفراد ويتركوا الأوهام جانباً ليكونوا عقلانيين، وصادقين مع أنفسهم ومع الجميع. عندما تأسست الحركة وضعت لها من بين الأهداف: تجميع قوة الشعب وليس تفريقها، ومساندته للوصول إلى حقوقه، وليس حجبها عنه، وإنارة الطريق أمامه وليس تعتيمه..» وجلس (أخيراً) بعد أن أبدى الشكر للجميع لأنهم استمعوا إليه ولأنهم متفقون معه (دون شك)... وتنازل السيد حسني عامر عن باقي خطبته لمنح الكلمة فوراً إلى الرفيق أمين المال ياسين خبّاز... فتح ياسين الملف وقد ملئت

أوراقه جداول، وأرقاماً وأخرج ورقة من بينها كان قد أعدها قبل ذلك، وضمّنها نسباً مائوية واقتراحات... وتلا: تعاني ميزانية الحركة من عجز حاد، فالمصاريف بلغت ثلاثة أضعاف ماهو مبرمج، والديون التي لايعلم إلى حدّ الآن طريقة تسديدها... وتململ سليمان الناعوري في مكانه، قد رغب قبل بداية هذا التقرير في التصريح بأنه لم يعد يستطيع استضافة اجتماعات الحركة ويقترح البحث عن مكان آخر وإن تطلّب الأمر كراء منزل أو... ويقع التسديد من الميزانية المعتمدة... كتم رغبته دون أن يعلم كيف يمكن له أن يخلص من عبئها... «ماينبغي إذاً هو مضاعفة قيمة الاشتراك أوّلا ودون تأخير أو مماطلة، ثم يمنح كل عضو من دخله الشهري مايعادل نسبة واحد بالمائة..» نهضت غالبية الحضور ومن بينهم عبد الناصر مفتاحي وحسني الربّاع، وسليمان الناعوري... وغيرهم... كانوا يعلنون الرفض لهذا المقترح بوقوفهم، إذ ليس بإمكانهم الصراخ، ونداءات الاحتجاج خشية اكتشاف أمرهم في الخارج، ولكن استمرار الوقوف معناه الرفض القاطع وماعلى المقترح إلّا أن يبحث عن غيره... «الغالبية ترفض هذا واضح ولكن خلوّ الميزانية قد جعل من الطاولة خالية حتى من المياه... كما أنه.. ليس من السهل أبداً إيجاد مموّل من الخارج فأنتم تعلمون أن حركتنا لاتزال إلى اليوم خفية، غير معترف بها، ومجهولة... «لايهم. ينبغي البحث عن اقتراح آخر لامساس بحرمة الأموال فيه».

وأعطيت الكلمة إلى (الرفيق) محمد بن رابح أمين سرّ الحركة، كان هو الآخر أقرع ولكن ذو أنف أفطس وعلى عينيه نظارتان سميكتان... أخرج من داخل ملفه ورقة وحيدة رصعت عليها جمل وأسماء عديدة ولحظة قراءته لما كتب كان يمسك طوق سترته. لاحظ السيد محمد بن رابح أنّ عدداً من الأعضاء تغيبوا عن خمس اجتماعات متتالية، ولم يسألوا لاعن وقائعها ولاعن القرارات التي صدرت عنها، وربما لايعلم بعضهم إذا ماكانت الاجتماعات تقع إلى الآن بمحلّ بسام عاشور أم بمخازن سليمان الناعوري... وهذا الوضع يجعل الحركة ومناضليها يتوجسون خيفة، ويطرحون عدداً من الاستفسارات. فما تخشاه الحركة هو انسحابهم منها دون أن يقع إعلامها وهذا لايسبب حرجاً فقط وإنما تخوفاً مما يمكن أن يقدموا عليه.. فقد ينضمون إلى حركات أو أحزاب أخرى، معترف بها من طرف الدولة أو غير معترف بها، وهذا يعني تسهيل وقوعها في دائرة الخطر... ومن جهة ثانية هو وقوعهم تحت ضغط الانتهازية الشريرة فهم لايساهمون بمجهود ولابمال ولا... وهم غير منخرطين ولامنقطعين بحيث إذا

ماوصلت الحركة لتجني ثماراً تقدموا معها وإذا ماحصل. وهذا مالايتمناه طبعاً. وتعرضت لمكروه أعلنوا براءتهم منها ومن أعمالها... ليس من الحكمة إذا أن ينسحب الأعضاء ويتركوا حركتهم التي أنشأتهم، أمام العاصفة لوحدها، وليس من الحكمة أيضاً أن تكون البلاد على شفا حفرة ويبقى هؤلاء وغيرهم في مواقع المتفرجين دون أدنى مبالاة... ينبغي رصّ الصفوف والنزول إلى الميدان قبل بداية العشرية الأخيرة من القرن... ورفع (الرفيق) محمد بصره عن الورقة أخيراً لينظر في الوجوه أمامه وكأنها قطع من الخشب الأسود... ليس هناك من نقاش لما ذكر وليس هناك اعتراض الجميع متفقون الجميع مبتهجون... ليبتهج هو أيضاً لتوفيقه في اقناعهم... ويبتسم محمد بن رابح ابتسامة عريضة تنم عن رضاه عن نفسه وشعوره بالقدرة على السيطرة على غيره حتى وإن كان هذا الغير جامحاً كالبغل...

انتهت تقارير جميع اللجان المكلفة بإعدادها... وبدأ الانصراف في شكل مجموعات لايزيد عدد أعضاء الواحدة عن أربع... وتوالت افرازات المخازن بعضها يتجه يميناً نحو سيارته، والبعض يواصل سيره على الأقدام والآخر يتوقف في بداية الشارع عند محطة الحافلات، والحافلات لاتمر في الساعة الثالثة صباحاً... وكان آخر المغادرين قبل اللجنة المكلفة بدراسة ملف بسام عاشور المنشق هو الأمين العام حسني عامر. وهو نفسه لايحضر نقاشاتها لما تتطلبه من سرية وخطورة ومحدودية الأعضاء. عندما وصل إلى الباب اقترب منه سليمان الناعوري وأسرّ له عن رغبته في أن تبحث الحركة عن مقر جديد لها. فالعملة تحسسوا وقوع أمر ما أثناء غيابهم وربما يشكون ويسعون لالتقاط الأسرار... وهو يخاف. ليس فقط على نفسه وماله وإنما أيضاً على الحركة ذاتها... دهش الرجل لسماعه هذا الكلام، فبعد أن اطمأن لتسوية هذه المعضلة، يجدها تعود لتطفو من جديد وبتعقيد أكبر... كظم ردّه، وغيظه، وسار خارجاً دون أن يلقي حتى التحية على المتبقين.

ساد التوتر أغلب لحظات النقاش، وانقسمت اللجنة على نفسها إلى شقين فأحدها ويتركب من موسى بن هادية ومرشد عبّاس ورتيبة حمادي وقف معارضاً للاقتراح القائل بتهديد بسّام بالقتل أو تنفيذه مباشرة، واستند هذا الاعتراض إلى أنه قد يدفع به إلى إعلان الأمن في الحالة الأولى أو الإلتجاء إلى تأليب الرأي العام على أعضاء الحركة باستغلال صلته الوثيقة ببعض أعضائها. والاغتيال رأساً معناه التورط المباشر أمام الأمن فتجد الحركة نفسها بجميع أعضائها في خندق لاتجد الوسيلة للخروج منه ويُحرض

أعضاؤها على الرأي العام في صورة «مافيا» إجرام... ولن يسكت أصدقاؤه على قتله... ماذا يمكن أن تقول نافلة وخديجة وآسيا وغيرهن من التجار الذين يتعامل معهم... وهل لاخماد عياطهم وصراخهم نلتجأ إلى قتلهم جميعاً... كم سيذهب من الضحايا وبعضهم أبرياء... أليس هذا عمل «مافيوي» كيف ستتم مواجهته... يجب البحث عن وسائل أخرى لاتكون لها تبعات بل يمكنها أن تستثمر هذا المنشق لا أن ترمي به إلى الجحيم... وأصرّ الشق الثاني وهو يتكوّن من منصور محمّد ومختار عيسى، وصلاح الدين عرّاف وحكيم بن موسى وعادل جباس وسليمان الناعوري. على أن يقع اغتياله. «الاغتيال بطريقة ذكية ودون أن تترك وراءها أي دليل..» وأمام هذا الاصرار اضطر الشق الأول إلى الانسحاب بعد أن فشل في تأجيل البتّ في الاقتراحات المطروحة.

ووقع اختيار مختار عيسى لتنفيذ مهمة الاغتيال لما بينهما من ضغائن، أو بالأحرى لما يكنّه مختار تجاه بسام... فهو لم ينس الشتائم التي صبّت عليه في آخر اجتماع وقع في محله. ولا الطريقة التي عامله بها يوم أن أقبل إليه مع صلاح الدين وحكيم... ولا الاحتقار المتعاظم لكل عضو في الحركة.

وتقبل مختار هذه المهمة بشيء من الإرتجاف، والرغبة في إشفاء الغليل وتمنى لنفسه النجاح فيها.

* * *

هل حضرت آسيا صرّاف وخديجة بوراوي اجتماع أعضاء الحركة؟

كانتا بالتأكيد متغيبتين... وقد اقتنعتا بترك العمل السياسي... بكل شجاعة وإقدام وحماس، ستدافعان عن قناعتهما هذه...ستناضلان من أجل حريتهما أمام الهم السياسي والعودة إلى الحياة العادية... هذا مادار بينهما وهمّا تتجهان إلى مقرّ مجلة «الآمال» المستقلة لتجري آسيا اختباراً. كلاهما لم تتزين كثيراً فقط بعض «البودرة» على الوجنتين وأحمر شفاه قاني...ولكن اللباس لم يكن محتشماً جداً... فتنوراهما لايتجاوزان الركب، والصدر عار حتى تكاد النهود تقفز عبر الجيب... عندما وضعت آسيا قدمها الأولى داخل البناية قالت وهي تنهي حريتها عن الحركة وسنوات الانتماء لها:

- كنت كأنما أخط الماء بأصابعي.

وقالت خديجة إثرها...

- وأنا كذلك.

وصعدتا المدرج الدائري، فمقر المجلة يقع في الدور الثالث. وما إن وصلتا أمام الباب حتى قالت خديجة:

- قد أصدرت المجلة ثلاثة أعداد، هل اطلعت عليها جميعاً؟

- عدد واحد فقط. العدد الأخير. إن لم أجد الأعداد كلها في السوق.

ودخلت آسيا المقرّ، وتبعتها خديجة. كأنه لايوجد أحد... الهاتف يرنّ، مكاتب ثلاث مفتوحة الأبواب ولاأحد خلف طاولاتها شخص واحد يتحدث... يحدّث من؟ لاتدريان... تقدمتا محاولتين إثارة وقع حاد في الممّر... وصلتا إلى الباب المغلق فانفتح وخرج من ورائه كهل قصير سمين...

- أهلاً بكما. تفضلا.

- أهلاً بك... أنا آسيا صرّاف. وهذه صديقتي أقبلت معي.

- مرحباً.. تفضلا.

وأشار لهما وهو يدخل أحد المكاتب فتبعتاه. وجلست كلّ منهما مواجهة للأخرى أمام المكتب الخشبي الكبير، وقد رصفت عليه أوراق وجرائد ومجلات من ناحية، ومن ناحية أخرى أوراق متداخلة وقسائم قطعت من جرائد ومجلات أخرى وجلس الكهل على كرسيه واستند إلى الخلف، ألقى عليهما نظرة فاحصة ثم انكب على المكتب بعد أن أبعد الأوراق المتداخلة بمرفقه وقال:

- طبعاً ستجرين الاختبار وأتمنى لك النجاح. «الآمال» أصدرت ثلاثة أعداد وهي فتية ماتزال. وتريد أن تحتلّ لها مكانة في سوق المطبوعات، مكانة مرموقة طبعاً وهذا لايكون إلا بالاجتهاد والتضحية..

لاتظهر النتائج على عين المكان ولكن بعد أسبوع على أقلّ تقدير... الأسبوع من أجل اختيار الأفضل بين جميع الممتحنات والممتحنين... وماينبغي هو تتبع الأعداد التي تظهر في المستقبل فعلى صفحاتها ستعلن النتائج... وخرجت آسيا صحبة صديقتها وشعورها بركود الحركة في هذا المقر لايفتأ يزداد مع الثواني... كانت وجهتهما إثر ذلك نحو محطة الحافلات للعودة إلى منزل خديجة بوراوي وتناول الغذاء هناك. تشهد المحطة إكتظاظاً شديداً كعادتها، مترقبون يغطون رؤوسهم بأوراق الجرائد، والكتب، والملفات،

وغيرها مما يحملون معهم... إتقاء لأشعة الشمس، الحافلات تشق يبطئ عباب الناس المتجمهرين حولها. وماتكاد تفتح أبوابها حتى يتدفق إلي داخلها المئات منهم... وتسير مثقلة وكأنها نعش بلونها الأصفر وحمولتها المرتفعة، وتأرجحها يميناً وشمالاً.. وجدت كل من آسيا وخديجة داخل إحداها موقع قدم ونصف، حقيبتا الكتف مرفوعتان دون إرادتهما إلى مستوى النهدين... وزفير كل منهما تستنشقه الأخرى لاحاجة لهما ولالغيرهما في البحث عن مكان تمسكان به فالأجساد متراصة... والسيد الذي قربهما يشرف من عل على صدريهما... حلمات تميل إلى السواد وتكاد تخترق اللباس أنصاف كرات بيضاء مندفعة... وتكلم الرجل مراوداً، فحافظتا على صمتهما. «وأفضل سلاح لهما هو الصمت»... وتجاوزت الحافلة محطة الوصول إلى التي تليها، فنزلتا بعناء كصعودهما إليها بعناء.

السيدة والدة خديجة تنتحب، وكذلك جدتها. اقتربتا منهما فزعتين لتسألا عن السبب، كان شقيق خديجة قد فرّ للاختباء خارج العاصمة... واندفعت أسئلة خديجة خلف بعضها. متى؟ ولماذا؟ ومن أخبرها؟ فأجابت الأم وهي تسحب نفساً كبيراً من الهواء...

- هو نفسه. محمد أخبرني، كان ذلك إثر خروجك بقليل، قال أن البوليس السياسي يبحث عنه.

- الأمن يبحث عنه إذا، ومحمد معارض وأنا لاأعلم... منذ متى؟ ولأي حركة ينتمي أو حزب؟!

ونهضت آسيا واقفة لاتدري ماتفعل، أنترك البيت في هذه الساعة أم تبقى؟! أتواسي الأم وبقية العائلة أم تحافظ على الصمت؟! شقيقان منتميان إلى المعارضة أو قد كانا الاثنان منتميين.. وأسرعت خديجة للوقوف، وحدقت في وجه ضيفتها كأنما تعتذر. فسارت آسيا خطوات نحو الباب... ولكن خديجة أعادتها بإلحاح. ودخلتا إلى غرفتها... صورة الأب المتوفي منذ عقدين معلقة بصدر الغرفة... ويبتسم الرجل داخل إطار من الخشب...

o o o

الفصل الرابع

ألقى أميرتو نظرات حالمة على أثاثه وهو يترقب الموعد بالثواني، نحا إلى الطاولة وسجل على الدفتر بعض الأسطر في وصف الحبيب باللغة الإيطالية. وكتب تحتها بالعربية: «العشق ذاك السراج الذي لاينطفئ» مشى ذهاباً وإياباً وسط الغرفة ثم عاد فسجّل: «بيت حرمت فيه من العشق، كيف يكون؟.. ألا يكون قبراً!.. أمّا وهو كذلك فليس لي إلا أن أحلم بغيره، لأحرق بنار العشق فيه. وضع القلم وسار ليقف عند عتبة الغرفة، رفع بصره إلى السماء الصافية، عبّ نفساً هائلاً، سأل نفسه وابتسم: «أتراني تحوّلت إلى مراهق مجنون: الزمن معدود بالثانية، كلّ الزمن إلى حدود الغد، حدود اللقاء وبداية عهد جديد تذكر سيرينا، نكّس رأسه... ناجى روحها، «إني أصلي من أجل أن تنعم روحك بالنعيم والبركة في سماء ربنا الرحيم، أصلي كلما تذكرتك، أصلي من أجل سعادتك في السماء حيث الخلود الأبدي، والنعيم الأبدي» ثم وهو يرفع بصره «ماتعلق قلبي الضعيف بجليلة إلا لبسمة منها تشبهك، وتذكرني بك دوماً. اغفري لي. آمين»...

ظل لأكثر من نصف ساعة يترقبها أمام المصاغة، كاد مزاجه أن ينقلب ويغادر المكان لولا أنه شاهدها في أوّل الشارع، تسير بخطى ثقيلة ومع كل خطوة تميل يميناً أو شمالاً. رغب في الذهاب إليها، ثم عدل قال في نفسه «إنها قد حددت هذا المكان وليس ذاك. فهنا ينبغي أن أترقبها. هنا». لمّا وصلت، حيّته باسمة، سألها عن سبب التأخر. قالت:

ـ جئت على قدمي..

ـ من...

ـ لايهم من أين، والمهم أني قد أتيت. قد كتبت لك رأيي. إنه في هذا المظروف... طبعاً كتبت بالعربية، وعليك أن تجد من يقرأ لك.

ـ أستطيع القراءة بنفسي.

ـ هذا جيد إذاً.

وسلمته المظروف وحيته لتنصرف.

ـ فقط! ولكن أريد أن...

قال وهو يحاول مسكها من ذراعها، ولكنها كانت أسرع في الابتعاد من أن يمسكها وهو في مكانه. تأمّل المظروف، سأل نفسه هل يفتحه الساعة؟... ولماذا لاتخبره مباشرة، وتقول له أحبك... وأريدك؟! ابتسم لعبارة «أريدك». رددها على نفسه وهو يسير مبتعداً، ويقلّب مابقي من جليلة بين يديه.

* * *

«السيد أمبرتو المحترم.

لك تحياتي وحبي الخالص.

في حقيقة الأمر ماهو مكتوب على هذه الصفحات ليس جميعه رأيي في الزواج منك أو شروطاً، ولاهو أيضاً تعابير حبّ واشتياق، فأقرأ ولاتسرع لأنك ستجد في مكان ما منها رأيي الذي تترقبه دون شك.

أنا جليلة بنت عثمان بن محسن، ولدت ونشأت بإحدى قرى ولاية بنزرت أسرد من حياتي مايلي:

كنت في كل مرة أعبر شاعر عبد الرسول حسني، أراه فاغراً فاه كالمتثائب، ومع ذلك أجدني سعيدة، كثيرة الابتسام... وقد لاحظ عدد من صديقاتي عليّ ذلك... كنت في بداية شبابي، أو عمق مراهقتي، ساعتها. إذ لم يتكوّر ثدياكما هما الآن... وكنت أشعر بنشوة عارمة لاأدري سببها الفعلي... ربما لما يحتمل من تغير بجسدي... أو لاكتشافي فيه ما أحسبه عوامل تفريق بين الإناث والذكور والمحرمات التي لاينبغي الوصول إليها... كنت أحلم بأشياء غير واضحة في خيالي... وقد تمنيت أشياء أخرى لاأعلم لها عواقب واضحة... قد كان لي عدد من الصديقات قد تداعى بي الزمن الآن فنسيت كثيراً من أسمائهن وحتى ملامحهن. لم أعد أذكر إلا بهيجة وسناء... لكثرة حديثهما وغيرتهما مني. كنّا نلتقي في أغلب الأحيان بمدخل شارع عبد الرسول حسني.. كنّ يسألنني عن حالي وعلى ثغورهن ابتسامات بعضها جميلة وبعضها الآخر مصطنع ولكنها سريعاً ما تزول... يسألنني عن مقصدي كما أفعل أنا ذلك... وننطلق

معاً... وفي الأثناء نتحدث عن آخر مقتنياتنا، ومقتنيات عائلاتنا من ألبسة وحليّ... ويمضي بنا الزمن لنجد أنفسنا في مواقع الافتراق أمام أحد المنازل، أو الأنهج... نحن في الطريق العام ومعنى هذا أن أبصارنا تقع على كثير من الفتيان، الذين يقاربوننا سنّاً، وكانت أبصارهم أيضاً تقع علينا وعلى أمثالنا مع كلمات الغزل والمراودة التي فبركوها أو سمعوها. مع عبارات جنسية فاضحة.

إني حملت عبق ذلك الشارع ولم أنسه طوال هذه السنين، فانتشيت ببخور كلمات حتى الضياع. وجسدي الذي كان حلماً وأضحى سلعة... كان صناعة ذلك الشارع، شارع عبد الرسول حسني. فكنت أراه في نفور متواصل.. نفور ماحق، إنه الكنز الذي يلفه الإنسان، يلفه بالقطن والصوف والحرير... وبما استطاع...

تيقنت من جمالي الصارخ، المستوي.. شعر حريري الملمس عينان فاتنتان، بأشفار سوداء طويلة، قوام رشيق، بشرة بيضاء.. فتنت بنفسي قبل أن يلاحقني قيس علاوي ومنذ شاهد عربي، وغيرهما، مشيت بمرح وخيلاء، خرجت إلى الشارع بأسباب، وبغير أسباب... استثمرت ذلك الجمال والقوام في إمالة أنظار أولئك الشباب... وسمعت أول ملاحظة من راضية حسين عن تبدّل سلوكي «جليلة إني أراك تبالغين في اصطناع مشيتك». قالت ذلك وصمتت ربما خوفاً من ردّ فعل عنيف يصدر عني. وحافظت أيضاً على صمتي، كأني لم أسمع ماقالت، ولكن ملاحظتهما تلك بقيت تنخر ذهني لساعات طويلة.

في يوم لاحق ودون سبب واضح... كان والدي متغيباً يومها وقصدت أمي أهلها مع شقيقتي بمنزل عبد الرحمان وبقيت أنا لوحدي، قلت دون سبب واضح أحسست بالكآبة والضيق تنتاباني... ماقمت بشيء من أعمال المنزل... تطلعت لأمر ما يمكن أن يحدث... فإن لم يكن أحدثه بنفسي... تطاولت الساعات... ازداد الأزيز في دماغي.

أحسست بكل جسدي ينطق أو يود ذلك... كانت أشعة الشمس تبسط لحافها على حيز كبير وسط النار... تطلعت إلى هذا الجسد الكنز، ألقيت بجميع ما عليّ من ملابس... قلت في نفسي «إنه جوهري» أوّل مرة أرى فيها جسدي عارياً تماماً تحت الشمس... أبيض ملتمعاً ليس عليه شيء... بنتوآته وتجاويفه وبعجاته... إني أبصره بكامله... مندهشة... متسائلة، إلى أي شيء يمكن أن يصلح... رأيت شعر الابطين والرحم... والاليتين المكورّتين... الفخذين المرمريين... النهدين النافرين بحلمتيهما

الرقيقتين... أحسست بالحرارة تتأجج فيه بكامله... تخيلت نفسي أسير، أو واقفة بناصية ما بشارع عبد الرسول حسني، أو ساحة المعلم... والناس جميعاً وقوف يشاهدون روعتي (إني وجدت صورة مشابهة لما تخيلته في تلك اللحظات، بعد بضع سنوات، قدّمها لي أحد الحرفاء، صورة «امرأة أمام القضاء» رسمها جان ليون جيروم، ولازلت أحتفظ بها) كم كنت مشابهة لتلك المرأة، أو كم كانت هي مشابهة لي... في وقفتها وبياض جسدها، وملاسة بشرتها... هكذا واقفة أنا تحت الشمس... وبين اللحظة واللحظة أحاول استنفاره بأن أسأل هل بإمكان هذه الناحية أو تلك أن تفعل كذا أو أن تكون بالشكل كذا.. وأجرّب ذلك... كم كان جميلاً وكم كان صادقاً معي، حتى الاغواء.

صببت الماء على جسدي...استعملت الصابون المعطر لطلائه... توقفت أمام المرآة أباري جمالي بجمالها... ثم قررت أن أفعل شيئاً آخر... لم أستطع أن أحدد ذلك الفعل في البداية... لبست بعض ثيابي تاركة حمّالة النهدين والتبان، لبست التنور الطويلة وقميصاً، وخلعة... وخرجت إلى الطريق... سرت وحدي منفردة والبسمة لاترحل عن ثغري... سرت بنهج الرحمة... ونهج البعث... توقفت بمدخل زنقة سليمان الداودي... وجدت نفسي بساحة المعلم ثم بشارع عبد الرسول حسني... رأيت، وأحسست نهدي ترتجان تحت الخلعة والقميص، والهواء الدافئ يمر تحت تنوري ليصل إلى حدود خصري... أحسست ببعض الحرية في حركة أعضائي... لم أتذكر صديقاتي... ولاأدري ما أطلب بالتحديد... سرت، سرت، سرت... اعترضني قيس علاوي، لم أشعر بالدم ينزف إلى وجنتي... إذ كان جميع جسدي حاراً، ساخناً، فلم أحاول تجنب قيس بل إني تعمدت الاقتراب منه... شاهد حركة نهدي كما شاهدت أنا.. اقترب مني هو أيضاً حتى كاد يصطدم بي نطق بتسمية لعضو جنسي أنثوي وأدنى وجهه من وجهي... لم أنطق حرفا واحد، حدت عنه قليلاً وواصلت سيري، عندما ابتعدت سمعته يقول.

- قحبة... أنت قحبة... مومس ستكونين، وسترين...

هل يتغيّر جنسي وجمالي هذا إن كنت مومساً - قحبة كما قال؟! اعتقدت أني سأبقى أنا ذاتي، لن يتغير مني شيئا، حدثت نفسي وأنا أواصل المشي... اعترضتني بهيجة... اقتربت مني وتبادلنا القبل... قالت لي بعد ذلك:

- ماذا فعلت بنفسك.

ـ شعرت بالقلق... هل تودين المشي معي...

فقالت معتذرة.

ـ لاأستطيع الآن، والدتي ترقبني، اعذريني.

لم أقل لها شيئاً بعد ذلك... تركتها وواصلت سيري... فجأة وددت اكتشاف شيء آخر... اكتشاف جسد ذكوري، لم أحدد لنفسي جسد من يكون، وتساءلت كيف يمكن أن يكون، هل له من العناصر مالديّ... هل كلّ الذكور متشابهون وهل كل النسوة أيضاً كذلك؟.

بنهج التوت المتفرع عن نهج العلج، وهو الآخر متفرّع عن نهج عبد الرسول حسني.. التقيت بعثمان فرّوخ، ومنذر شاهد عربي، كانا جالسين على عتبة أحد المحلات المقفلة، يتسمان يضحكان... أحسست بضالتي... سرت أمامهما بخطى هادئة مع إمالة فاضحة لردفيّ، ابتسمت وأنا ألتفت إليهما، نهض الاثنان معاً وقفا أمامي، سألني أحدهما.

ـ نراك وحدك أين صديقاتك؟

وما كاد ينتهي حتى قال الثاني وهو يضع اصبعه على أحد نهديّ:

ـ ماهذا؟

وقهقه الاثنان معاً هزءاً. فضحكت أنا أيضاً دون أن أحاول تركهما... وبعد نوبة الضحك قلت.

ـ هذا نهد. ألا تعرف النهود.

كانت الحرارة التي أحسست بها وأنا في المنزل قد عادت إليّ مضاعفة مع أمنية وهي أن يفعل شيئاً آخر، أن يحضنني أحدهما مثلاً، أو يسألني عمّا يوجد تحت التنور. أو... سأحضنه سأجيبه، وسأسأله عمّا لديه أيضاً... وتحققت أمنيتي بسرعة... حيث سأل منذر شاهد عربي.

ـ وهذا؟

ـ هذا نهد آخر أيضاً.

ـ وهنا ماذا يوجد؟

قال عثمان فروخ وهو يشير إلى بطني باصبعه.

ـ تلمّس وستعرف.

قلت له فتلمّس بأطراف أصابعه، وهو يقول

ـ صرّة، نعم هنا صرّة.

ومرّر يده إلى أسفل ثم إلى النهدين. وأنزلها من جديد إلى أسفل...

أحسست باحتراق غريب ينشب في جسدي.. ورهبة ولذة قاتلة ممتعة... وبعد وقت قصير قال منذر شاهد عربي...

ـ هل تذهبين معنا؟

ابتسمت... أو ضحكت، شعرت بالسعادة، ولعلهما أحسّا بذلك هما أيضاً.

ـ إلى أين؟

ـ حيث يمكن أن تتأكد من أنّ ما أجبتنا عنه صحيح.

أعجبتني الفكرة، أنا أيضاً يمكنني أن أعرف ما لديهما عن طريق المشاهدة... سرت بينهما... في منتصف الطريق... وضعت راحتي على مواضع الذكورة عند كلّ منهما ثم سألت:

ـ وماهذا وهذا؟

عمودان منتصبان نافران قليلاً، وضغطت عليهما بلين فقالا..

ـ آخ... لاتضغطي هكذا. إنك تؤلمينني.

ـ لاتضغطي، لاتضغطي...

ـ إني أريد أن أعرف...

ـ ستعرفين عندما نصل. إننا كدنا نصل.

وصلنا إلى المكان الذي اختاراه. كان غير بعيد جداً... خالياً... منزو لاتصله أشعة الشمس... تأفف الاثنان متصنعين التعب... قال منذر.

ـ المكان جميل وبعيد عن أعين الناس، أليس كذلك.

أومأت برأسي، وأسرع مضيفاً:

- ستعرفين الآن ماشئت وأكثر، ونتأكد نحن أيضاً مما قلت.

والتفت إلي عثمان فروخ وقال مواصلاً.

- ننزع الآن لتعريفك، بما أردت.

ضحكا معاً، وشرع كلّ منهما في فكّ حزام سرواله، وفتح بعض أزرار القميص وما إن انتهيا حتى رفعت قميصي وسحبت التنورإلى أسفل فظهرت عارية. أنزل عثمان سرواله إلى أسفل ورأيت عضوه منتصباً، وخصيتاه معلقتان.. حولهما شعر كثيف أسود.. وكذلك فعل منذر، وتقدم نحوي عثمان أولاً ولفّ ذراعاه حولي وألصق صدره بصدري.. وهو يمتصّ شفتي وذقني ويضغط أنفي بأنفه...

انتهت ساعة الشبق والمعرفة تلك واتفقنا أن نلتقي في الغد، وعدت إلى الدار ولم يكن أحد من عائلتي قد عاد بعد. اغتسلت ولبست جميع ملابسي.. أسرعت إلى القيام بجميع أعمال المنزل إثر ذلك.. ولمّا عادت والدتي وشقيقتي لم أخبر أياً منهما بشيء.

في الغد مساء قصدت المكان ذاته فوجدت رفيق علاوي ومنذر شاهد عربي... استنكرت حضور رفيق وسألت عن عثمان وسبب تأخره... وماكدت أنهي أسئلتي حتى كانت أغلب ملابسهما على الأرض... بعد احتكاك الأجساد قال رفيق بخبث وتهكم، وسخرية مقيتة.

- ألم أقل لك أنك قحبة.. ألم أقل لك أنك ستكونين مومساً وها أنك صرت بأسرع مما تخيلت.

أحسست بالخوف والرهبة تخيلت أشياء مهولة أمامي، كان النهار يوشك أن ينتهي ساعتها. وبتردي حياتي، لم أستطع أن أوقف كل ذلك الانحدار الذي تسير نحوه حياتي، شكوت ذلك لنفسي، إن لم يكن هناك أحد من المقرّبين مني يود انتشالي، أحسست بصراخ حاد يتردد في أعماقي، وشاهدت اضطرابي... كأني ملقاة على الاسفلت وغير بعيد عني دبابة عظيمة تزحف نحوي بصلصلة حديدها لتمحقني... يرى المرء كل شيء في مثل تلك اللحظات يتكشف على العالم الآخر وعلى ماضيه، وأفعاله وأقواله... يمتصني الرعب ينهكني... وتطلعت إلى فرجة نور ولو بمساحة خرم إبرة، وددت ساعتها لو كانت لي القدرة، لوقف إدبار النهار... لارجاع الشمس قليلاً إلى أعلى، ولربما توهمتها، وخلت النهار في جسدي، فمسكت بأصابعي وضغطت بما

لديّ من قوة حتى انغرست أظافري في يشم اللحم، وجذبت فمزق... خدوش عميقة شوّهت نعومته، حمرة تسيل منها على بياضه اللبني.. وقد انسلّ النهار وانسلت الأيام التالية، تباعاً.. وشاع خبري بين الناس عن طريق قيس علاوي، وعثمان فروخ... وهكذا بقيت مشوّهة.. يمتطيني من يدفع أكثر ومن له قوة أكبر... ومن.. ومن... كالأتان أنا الآن، ينزل عنها شخص ليصعد آخر...

آه يا عمري الذي ضاع، والذي الم يأت بعد... أعيش الملل والمقت وأرى مع كل دقيقة جديدة، تركت المسخ والتشويه منتصبة، لامعة تحت الشمس، وأرى نفسي أغطس، وأطفو ولامن منقذ (إني أبكي الآن، أبكي وأنا أكتب ما أكتب عن حياتي الماضية، وهذه دموعي تتساقط على الطاولة الزجاجية التي أمامي، متيبسة كالحصى، حاملة ريحاً زنخاً، كالطين الآسن).

كما لاأدري أكل ذلك كان صدفة أو جرّا لعنة انحدرت من الأجداد».

* * *

أقصى درجات الشجاعة أن ينتحر الفرد. لاأدري من قال هذا الكلام، لقد سمعته من أحد ما، ولكن أجد في الانتحار الآن اشفاء لغليلي، فعلاً سأنتحر، سوف لن يكون هناك من أحد غيري يصيبه الضرر. ضرر مفارقة الحياة على غير مهل. قد وعدت نفسي وأقسمت، أنا مؤمنة بالله وبكل ماجاء به الرسول عليه السلام.

السيد أمبرتو: الحقيقة أني وعدت نفسي للقيام بذلك في يوم ما. عند معرفتي لأوّل شخص يطرح علي فكرة الزواج بجدية، ولم أكن أتخيل يوماً أن هذا الشخص سيتقدم، وقد تقدمت أنت وصدّقتك... أنا ممتنة لك، أشكرك على تلك المشاعر والأحاسيس... ربّما تقول عني أني غبية، ولكن سأكون أكثر غباء إذا لم أف بوعدي ولو مرّة في حياتي، لك شكري الخالص، وأعلم أنه في الوقت الذي تكون فيه قد أتممت القراءة، تكون روحي أيضاً قد خلصت.

* * *

ألقى الورقات على الطاولة فتطاير بعضها ليسقط على الأرض، وقد اكتنفته الدهشة والذعر، ورائحة الموت تتسلل إلى أنفه بضراوة، لماذا الموت، لماذا جليلة التي تعلق بها ولماذا سيرينا التي أحبته، الموت، موت... نهاية لعبة قاسية، وحبّ يقيني، واكتشاف

مدمّر... انتحار، موت يعلن عنه هكذا...

قد تكون سخرت منه بهذه النكتة السوداء؟! «أقصى درجات الشجاعة أن ينتحر الفرد» نهض واقفاً، وأصل سبابته بين أسنانه... تسخر منه، تجسّ نبضه ومقدار تعلّقه بها!! أعاد جمع الورقات المتناثرة وقرأ كل حرف كتب عليها من جديد... نبرة صادقة في كل حرف... «لماذا الموت؟ أتحبّ لأجل الموت؟! يا إلهي؟!» هكذا تصنع أقدارنا... يا إلهي. لو علمت ذلك ما أعلنت هذا الحب التعيس، هذا التعلق الآثم. وأعاد النظر في الأوراق من جديد... وتساءل إن كان بالامكان التأكد من أقوالها؟ كيف؟ وأين يجدها، وهو لايعلم مكان إقامتها؟ لطم الطاولة براحة يده وهو ينهض «ينبغي منعها..» وكيف له أن يمنعها إذا كانت قد أعلنت أن روحها تخلص قبل اتمام القراءة وصرخ بصوت مرتفع يائس: «الانتحار لا. لا».

جالس أمام مقهى الرحبة، وعلى الطاولة قهوة سوداء مظلمة، يراوده الشك في موقف ونية جليلة... تكتب قصتها، وتختمها بالانتحار. ثار فدفع الكأس ليسقط بعيداً، «لايمكن، أبداً، لايمكن ليست هذه إلا مزحة قاسية ثقيلة صعبة التقبّل» قال في نفسه. وأحنى رأسه على معصميه. أقبل النادل ثائراً هو الآخر. سأل عن سبب تكسر الكأس، ردد بعض السباب، وأمر بدفع ثمنها. نظر إليه أمبرتو لحظة دون أن ينبس بحرف، فأعاد النادل أمره متسائلاً إن كان ذلك لايعجبه... فأرجع أمبرتو رأسه موافقاً... ثمن الكأس سيدفع إذاً كتعويض ولكن تعويض التعويض غير ممكن... سيرينا وجليلة تموتان تباعاً ويبقى المريد! تساءل بفتور أتراه يحبّ مرة أخرى، شبيهة ثالثة لاحداهما؟! أتراها هي الأخرى تنسحب من الحياة... مر عبّاس بو عينين وخميس جاموس معاً دون أن يقع بصرهما على أمبرتو، هو أيضاً لم يرهما إلا عندما اقتربا من نهاية الشارع مدبرين... فكر في إعلان الخبر، ولكن ذلك سيعرضه على الاستجواب من طرف أصدقائه وقد يعيد بذلك العلاقة المتوترة من جديد. ينبغي أن يتأكد بنفسه، ولكن كيف. ربما طارق بو عينين وابن العربي يعلمان مكان إقامتهما ولكنهما يعارضان بشدة أي علاقة له بها، قلص شفتيه ونهض والنادل يرقبه بعين تكاد تضرم فيه النار. فأقبل إليه وسلمه ثمن الكأس، والقهوة معاً... أقوال جليلة تنخر دماغه مع مرور الوقت والنادل يسأله متطفلاً عن سبب تحطيم الكأس فلا يجيبه... يسير في الطريق ويداه في جيب سرواله... لايحدّق في الأشياء الجامدة: علبة طماطم فارغة تندفع في المنحدر، روث حمار، صخرة

نائمة، قطعة كاغذ... أيمكن لإحداها أن تنبئه بصحة الخبر؟! انتقل إلى مقهى الحسيني في أقصى المرتفع... الجالس أمامها يشرف على البحر يميناً وعلى الجبل والغابة يساراً. «لاتنتهي حدود الأرض عند مرمى البصر الأقدام تؤكد ذلك سر شرقاً أو غرباً وسترى سيكون هناك امتداد آخر وأفق آخر في كل مرة» «قال في نفسه وهو يتأمّل تلك الآفاق...».

جلس الريس قربه، لحيته كثة بيضاء مصفرة من أثر اللّعاب والتبغ، فنظر إليه أمبرتو دون مبالاة وواصل تأمله، وتفكيره في أمر جليلة، قهوة سوداء وسيكارة قصيرة بدون مصفاة بين أصابعه... طلب الريس منه كبريتاً فأجاب أمبرتو أن ليس لديه، والتفت حوله وأشار بأن الجالس خلفهما له سيكارة تشتعل، وتناولها الريس وأشعل منها سيكارته ثم سأل أمبرتو عن سبب تجهمه، وتظاهر أمبرتو بعدم السماع. صمت الشيخ برهة ثم أطلق ضحكة مدوّية كالاعصار سمعها جميع من كان في المقهى، وقال إثرها وهو يغلق قبضته «هكذا تمسك الحياة، وهكذا لاتجدها يا ابني: وبسط يده وهي فارغة، حدّق أمبرتو في وجه الريّس ويده المبسوطة أمامه، لاتعليق لديه، وليس هذا وقت تعاليق، الريس صديقه هذا أكيد، ولكن... في هذه الساعة لايحتمل الانخراط معه في الحديث... وتذكر أمبرتو ذلك الرجل الأسمر الذي رافق جليلة يوم تقابلا بينزرت، رجل أسمر معتدل القامة ذو شارب أسود وشعر مصفف بعناية إلى الخلف... دعته «بنعيسى» ساعتها. ابتسم وهو يتذكره، ثم سرعان ماتقلّصت عضلات وجهه... «قد تكون أخبرته عن رغبتي... وقد يكون هو أيضاً عرض عليها فكرة الزواج، وربما اقترح عليها حيلة الرسالة هذه لأبتعد عنها دون ضجة. إذا فعل ذلك فهو ذكي، ولكن ذكاءه بدائي».. حادث نفسه دون أن يسمعه أحد، فقط كانت يده وأصابعه تتحرك أمام وجهه في بعض الاتجاهات. وبعد لحظة نظر فيها إلى وجه الشيخ الجالس قريباً منه، قال في نفسه «ومع ذلك يمكن أن أتأكد عن طريقه» ولكن كيف؟ فهو لايعرف مكان تواجده ولم يشاهده إلا مرّة واحدة، ولم يشاهده إلا مرة واحدة، ولم يتحادث معه، أحسّت مرة أخرى بالاخفاق، فلطم الطاولة بقبضته حتى كادت كأس الريس أن تنقلب. فاعتذر له عمّا بدر منه، إذ لايقصد ذلك أبداً.. وبعد وقت قصير وجد نفسه يروي ماجاء في الرسالة على مسامع الريس، ويرجوه الكتمان.

○ ○ ○

الفصل الخامس

«انتحرت جليلة»

انتشر الخبر بين أهالي المدينة الفتية بصيغ شتّى، وتداول الناس اسم الهالكة بعدة أشكال فهذه المدينة ككثيرات غيرها فيها من الشرائح ما يتجاوز عدد أصابع اليد. الشيوخ، والشباب الذكور، والشابات، والفتيان والفتيات، إضافة إلى المتزوجين والمتزوجات من الكهول. ومثل هذا الخبر لايمرّ من شريحة إلى أخرى إلا تهريباً وفي كل واحدة منها يأخذ أشكالاً شتّى كبقعة الزيت على سطح الماء. ويتغير الاسم بين الفضح والتورية من «جليلة» مثلاً إلى «جليلة القحبة»، و«المنحرفة»، و«قحبة» دون أداة تعريف عند الفتيان.. ومضمون الخبر بين جميع الشرائح هو انتحار الهالكة شنقاً. ويشمل الاختلاف جميع التفاصيل المثبتة بداية من المكان والساعة، وصولاً إلى السبب والمسبب...

انتحرت جليلة كأسوء مايكون.

انتحرت قريباً من منزل أهلها.. في نفس الشارع الذي مرّت منه آلاف المرّات لما كانت صبيّة. وجدت تتدلّى بقطعة حبل خضراء، وجهها أزرق لاحتقان الدم فيه، ولسانها ممتد... وتم نقلّها للتشريح... كم كان ذلك المشهد بشعاً!! وسط الطريق العام تتدلى امرأة!! حادثة شنيعة... فضيحة تصل الآفاق... أتراها نكاية في عائلتها التي تبرأت منها ومن أفعالها.. أتراها رغبة قضاء النحب قريباً من منزل أهلها الذي ولدت ونشأت فيه؟ أماني الموت متعددة، وبسيطة أيضاً وتعدّدت التساؤلات بين سكان قريتها. لتصل إلى رؤية الدين وأقواله: أراحت نفسها، وأراحت الآخرين، لايصلّى على المنتحر، المنتحِر قتل نفساً. وقاتل النفس عمداً لاتجوز الصلاة عليه، والدها تبرأ من أفعالها منذ لحظة خروجها عن طوعه، والدها لن يحضر جنازتها، فتر قلب والدتها مرتين، فضيحة الفساد وفضيحة موتها هذا... لاأحد يعلم سبب هذه الكارثة إن كانت كذلك حقاً،

فالأمن أغلق البحث على أن الوفاة كانت نتيجة انتحار إرادي، وسلّمت الجثة إلى أهلها لمواراتها تحت التراب دون أن يحضر أحد لتشييعها...».

سجّل أمبرتو الخبر على دفتره، وضمّ إليه الظرف بما فيه من أوراق، وانتهى إلى عدم الثقة في الدنيا... وتفكّر في أقوال أصدقائه قبل وفاة جليلة وبعدها. لم يرغب أحد منهم في فكرة زواجه منها...

كتم خبر الرسالة عن الجميع إلا الريّس الذي أخبره ساعة قلق مضن. وأضحى مع ذلك قليل البروز. يشتغل متى طلب منه. وباقي أوقات الفراغ يقضيها في بيته. يتصفح الكتب. يقرأ، ينسخ... ويسجل في دفتر آخر اقتناه خصيصاً، ولملاحظاته وأفكاره. يكتب، يشطب... يصلح، ويضيف... ذات مساء أقبل إليه عم علي الناصر صاحب البيت ومعه حفيده، طرق الباب ونادى في نفس الوقت.

- يا بورتو، بورتو.

خرج إليه أمبرتو ليجده مع حفيده فصافحهما وسأله علي الناصر:

- فينك يا ولدي ماعش نشوفوك.

- هاني عم علي. أيّ تدخل حذاي. نعملو كاس شاي كما تحب؟

دخل علي الناصر وخلفه حفيده إلى الغرفة التي يجلس بها أمبرتو ليجد الأوراق والصحف، والكتب في أماكن شتى من الغرفة فسأل:

- شعامل في روحك يا ولدي، ناوي تدخل للجامعة وإلا!؟

- لا عم علي. إذا لم يجد الواحد مايفعل فليس أفضل من أن يقرأ شيئاً.

والتفت عم علي الناصر إلى حفيده الذي يجمع الأوراق من بين قدميه وقال موبخاً:

- شفت كفاش الناس تقرى... موش يرموا المحفظة ويقعدوا يلعبو كيفك. واتجه إلى حافة السرير ليجلس حيث طلب منه أمبرتو، وبقي يحدق في عشرات الكتب والمجلدات المرصوفة فوق بعضها على الطاولة، ونقل بصره من جريدة إلى أخرى من تلك الملقاة على أرضية الغرفة، بعضها مكتوب بالأحرف العربية وقليل منها بالأحرف اللاتينية إلى أن وقع نظره على صورة الرئيس الفلسطيني بإحداها فرفع رأسه وخاطب أمبرتو الذي يعدّ الشاي في المطبخ:

- عاد لهود نكزو على كل شيء يا ولدي، والعرب موش نوين يتلفتولهم.

- كل واحد عندو مشاكلو رهط.

- صدقت... مشكلهم متفاش، هز ساق تغرق لخرى، أما قالك صدام امتاع العراق ناوي يخلوضها عَ اليهود، أكنهار وززاو سلاح يا لطيف. كان تقوم حرب ادنيا الكل تشعل بيه.

- ممكن عم علي السياسة الدولية هذه رزينة وإذا خفَت تولي كالريشة أنفخ عليها إطير. لا سياسة، لا «بُلتيك».

- تو كلْمرة يتحدثو عَ الخلج وما الخلج مافهمتش شنوّه وفين مجود. يا برتو. زعمة تعرفوا شْيَعْمْلُو بيه؟!

أطلق أمبرتو ضحكة مدويّة، وظهر أمام باب المطبخ منحن ماسكا بطنه براحتيه، فابتسم علي الناصر وسأل عما يضحكه هكذا. فأجاب أمبرتو إثر انتهاء نوبة الضحك هذه.

- إتقولوا خليج موش خلج، خليج، والخليج هذا بحر بين السعودية وإيران عندو باب ذويق، منين يدخلولو الفلايك والبابرات... الخليج هذا فيه برشة قاز البلدان ألي دايرة بيه معندها كان القاز. كيف السعدية، والكويت، وقطر والبحرين وعمان وإيران والعراق، أكلّى ناسهم يلبسوا كفية بيضة.

- أيْ مكثرهم؟!

- هذوكم غنيين بالقاز.

- ربي يزيدهم ويعطينا.

وأقبل أمبرتو إلى الغرفة ليقول له بأن «الحال في الشرق الأوسط ماتعجبش بالكل». وليسأله أيضاً عن حال زوجته وأبنائه إذ نسي ذلك حال قدومه.

فحمد علي الناصر ربه وأثنى عليه... وبعد لحظات سأل:

- أخي موش شتطل على أهلك وإلا يطلّو عليك.

وعاد أمبرتو مرة أخرى من المطبخ وهو يقول.

- ماكمش أهلي أنتم... تحبني نرجع منين جيت؟!

ـ والله مانقصد. أما هو مازادة والديك وقلوبهم عليك، كيف ماقلوبنا على ولادنا ألي في فرانسا وطاليا وألمانيا وغيرها.

ـ تو نشوف عم علي كل شيء بالتسهيل.

أقبل بكأسين من الشاي سلّم إحداهما لضيفه ووضع الآخر على طاولته وقبّل الطفل وقرص حنكه ثم سأله:

ـ عجبتك الفوضى هذي؟!

ضحك الفتى وتمسك بذراع جده الماسكة بالكأس حتى كاد يدلق الشاي على ملابسه فشمّه وأمره بأن يكون كالرجال هادئاً ويجيب عمّا يسأل أن يتصنّع الحياء مثل البنات، فصمت الفتى وبقي يلعب بأظافره.

* * *

ـ هكذا إذاً!

قال أمبرتو، وأسقط القلم من بين أصابعه والتفت إلى عم علي الناصر محدّجاً. فأضاف عم علي وهو يسير إلى الطاولة ليضع عليها كأسه الفارغ:

ـ أي نعم. تي السحر مذكور في القرآن. كانوا لهود شيسحروا سيدنا محمّد عليه الصلاة والسلام.

ذكر علي الناصر هذه المعلومة الأخيرة ليقطع السبيل أمام مستمعه كي لايستهجن الاعتقاد في السحر، ثم أضاف دعاء رتب كلماته بنفسه وما إن انتهى حتى قال أمبرتو:

ـ إذا كان جدّ جليلة رجلاً صالحاً، صالحاً فعلاً. وكان كثيراً ما يقدم للبلاد، وأنت طفل صغير تتذكرو مليح عندما كان يجلس على دكة المسجد الكبير؛ قتلي إسمو، الحاج عيسى بن محسن. حجّ صغير إتمالا!

ـ والله مانعرفش، مانكذبش عليك لواه، أما راهو حج وقت م كان الحج ع الجمال، عام خمسة، وإلا عام عشرة شكون يعرف.

ـ إيه والسحر كفاش؟

ـ قتلك جاب ثلاث ۆلاد. واحد مات ماخلطش عليه، ولاخر مجابش وإلا مرتو

ماتلدش، والثالث جاب زوز بينهم هذا بو جليلة. والآخر قالوا مشي للمغرب قعد فم، ماعودش جا.

ـ إيه. هذا بوهم شعمل؟!

ـ كان يخدم بيّاع. يدور من دوار لدوار على «بغل» حشاك يبيع، السواك والوشق والبخور، والفلالي، وغيرها، ويشري البيض، والدجاج من عندهم. عجبتو وحدة من بناتهم، ألي عرفوها يقولو كانت شابّة تقول لشمس أزرق وإلّا خنّ نزرق قد، وشعر، وزين، يقولو كانت عندها شامة من عند ربي على خدها تزيدها زين على زين. باختصار زينة الدنيا، خطبها وعرّس، بعد أكثر من عام زارت أهلها، وخرجت تعمل في دورة في المراح تتذكر في الماضي متاحّها... قربت لواد كان ديما ناشح، وكان فمّة «كلب» حشاك، يتّبع فيها، ماتعرفش كفاش ربش في التراب وإلا شنوّة. ماسمعت كان تفرقيعة قوية: كانت كلاطة، مشّشاتلها يدها ونهدها، وفزدت إلها وجهها. جراو أهلها يلقاوها في دمها تعوم روحو بيها وداووها. قعدت مشوهة هكاك، قرابة العمين، وتزوج عليها الرجل امرا أخرى جاب منها بو جليلة كيما قتلك، وبعد عام طلق المرا المشوهة، غارت، وثار حقدها، قالو حلفت باليمين كم تدمّر العايلة إلكل وعملت سحر بمساعدة العجائز... وكان أن هاجر الولد الأوّل إلى المغرب وبقي الثاني والد جليلة. وفي اعتقادي أن فعل. ذلك السحر انحدر إلى حدود هذه البنت.

ـ زعمة عم علي؟!

ـ وإلا كفاش تفسر هذه المصايب الكل.

ـ لعنة هذه، موش سحر برك.

ـ ربي يلطف بينا وبذريتنا يا ولدي.

عاد أمبرتو من جديد يتفحص ماكتبه على دفتره، والحق أنه يتذكر صورة جليلة عند لقائه بها في غار الملح... ويتذكر ابتسامتها، وحديثها وصوتها وكأنها واقفة الساعة قريباً منه... وحاول مقارنتها مع صورة «سيرينا» ومع أن نفوره من الاعتراف بتقارب الشبه بينهما لايزال على حاله أو يبدو كذلك فإن مجموعة من نقاط التطابق تبدو له واضحة، ولاتستحق الانكار أبداً... وهمّ بالحديث عمّا جرى بينه وبينها لعم علي ولكنه عدل عن ذلك خوفاً وحياء في نفس الوقت قال لنفسه: «قد طبعت على قلبي صورة، ذكرى لن

أنساها ما حييت... قد يطول بي الزمن أكثر وقد يقصر ولكن سوف لن أنساك أبداً ولا أنساها هي أيضاً.. وبسرعة وجد نفسه يميل إلى معرفة السحر، وأكثر مايمكن مما كتب فيه. أو اتصل به... فعقد العزم على شراء مدوّنات العاملين فيه ومراجعتها والسؤال عنها وسيبدأ من الغدّ... بل من اللحظة التي يغادر فيها ضيفه على الناصر وحفيده غرفته....

* * *

في المساء بعثت السيدة زبيدة صحفة من شربة الفريك إلى أمبرتو. عندما طرق حفيدها الباب سمع مقاطع من أغنية إيطالية تتردد، حسب أن التلفزة تشتغل ولمّا فتح الباب وجد أمبرتو يصفف شعره ويغني قال الحفيد:

ـ ظننت أن التلفزة تشتغل، ولكنك كنت أنت... إنك تغني أفضل من التلفاز.

ضحك أمبرتو، وأخذ الصحفة من يديه، ثم قال:

ـ هذه أغنية عن الحب.. هل تعرف الحب Amori. يتغنى فيها الحبيب بحبيبته التي رحلت... ولكنه بقي سعيداً أغنية أعجوبة تجعل الإنسان ينشرح، يكون سعيداً برغم القصة التي تحملها... قصّة فراق الأحبة.

وأفرغ أمبرتو الصحفة وأتمّ تصفيف شعره والاحساس باختلاف هذا اليوم عن غيره من الأيام الخوالي لاينفك يخالجه. فقد اكتشف شيئاً، يمكن أن يغير مسار حياته... بل إن القنديل وضع في رأس الدرب وماعليه الآن إلّا أن يحمله ويسير بعيون متفتحة كالصحاف... اكتشف مدى تأثير الحبّ على النفس البشرية ومدى تأثير السحر على النفس البشرية وعلى الحب والحياة... وبالتالي مدى رخاوتها... وماعليه إلا أن يقرأ الآن ويواظب على القراءة والمجاهدة ليتمكن من الوصول إلى مايريد... وأن يصلح ماتأثر من علاقاته بأصدقائه أيضاً كما يعمل على ترك الأثر الذي لم يترك له شبيه.

خرج وأقفل الباب خلفه كما ينبغي واتجه إلى حانوت الجعفري، الحانوت الذي يسهر فيه وأصدقاءه للتنكيت والسكر... وشرب الشاي منذ بضعة أيام.

ooo

الفصل السادس

مضت الأيام بسرعة دون أن ينفّذ مختار عيسى ما أوكل إليه، فاضطرت اللجنة المكلّفة بملف بسام عاشور إلى الانعاقد من جديد، ودراسة سبب التأخير وإعداد خطة محكمة يمكن أن يتبعها المنفّذ... كان أغلب أعضاء اللجنة غير متحمسين هذه المرة لعملية الاغتيال، ومع ذلك شارك بعضهم في تقديم أفكار مفيدة حتى لايقال عنهم أنهم تراجعوا فيفقدوا ثقة البقية، ومراكزهم في الحركة... وانفضت الجلسة وخطا مختار نحو الباب وقبل أن يصل إليه، اتكأ على أحد الجدران القريبة منه، دكّ ورقة في جيب سرواله، وابتسم، كانت الخواطر تداعب خياله، فهو من سيفوز بشرف إزاحته من الحياة والثأر لنفسه، ولأصدقائه، وللحركة بكاملها. هو من سيغسل يديه بدمه، وانطلق في حديث شبه مسموع: «عدّت أيامك المتبقية على أصابعي يا صديقي بسام... الفتنة أشدّ من القتل أليس كذلك؟! وأنت أثرت الفتنة وأنا. أنا قتلت. فعلك أشد من فعلي يا صديقي. بسام!!» ورغم ماتفوّه به من كلمات فإن حماسته تخبو كلّ حين، ومايذكره ليس أكثر من تبرير لما سيقدم عليه، أو تنشيط للحماسة المترهلة بداخله، ودّع المكان ومشى نحو «الشيخة» وهي سيارته العجوز، كانت راسية على بعد سبعين أو ثمانين متراً من «المقرّ». أشعل سيكارة واتكأ على ظهر المقعد ليستريح لحظة قبل الاقلاع. كانت الظلمة تخيم على الطريق إلا نقطاً متباعدة منه. أغمض عينيه واستنشق كمية من الهواء، اختزنها بصدره لحظة ثم زفرها، وعاد من جديد ليسحب نفساً من سيكارته البيضاء ويطلقه دخاناً رمادياً، فيتحول دوائر وتعريشات تحت «لمبة الكهرباء» ثم تنسحق شيئاً، فشيئاً في الفضاء الرحب...

شغل مختار محرك السيارة وضغط على المدواس بقدمه فاندفعت تمزق الظلمة وكأنها لم تكن راسية قبل حين، ضغط بأسنانه على شفته وعيناه تراقبان الطريق بتعب. بعد بضعة دقائق وجد نفسه يتحدث بصوت مرتفع وكأن أحداً قربه يستمع إليه:

ـ قد تحركت صفحتك لتنقلب، يا عزيزي بسّام، تحرّكت، وأنت من شاء لها أن تنقلب. الحقيقة أن السؤال التقليدي في هذه الحالة سيتغير أيضاً، فلن يكون ماسبب الموت؟ وإنما ما الهدف من الموت؟... الموت!... قد يموت بعضنا ليتنفس بعضنا الآخر وقد يموت بعضنا، ليختنق البعض الآخر أيضاً، هناك هدف! التنفس، والاختناق! تمضي اللحظات سريعة، وبطيئة، بطيئة إلى حدّ الخمول، والوهن، والعجز... الشرر يتقدح من السيگارة ويتلف مع الهواء البارد، أشباح فئران، وقطط وكلاب، تقطع الطريق جرياً، أو على مهل شديد، مقفرة العاصمة إلا من هذه الأشباح، ساكنة إلا من زعيقها وخربشاتها... ويتحد خيال مختار بذاكرته: تترجرج صورة بسام أمام عينيه، كأنها على صفحة ماء ساكن حُرّك... صافية هذه الصورة ملتمعة، أو مشرقة... يبتسم، يتجهم، يضحك، يغضب، ويلفّ وجهه براحتيه باكياً، يتكلم يصرخ فاتحاً فاه على الآخر، رافعاً رأسه إلى السماء، ثم ناظراً إلى الأرض، متهكماً، متحمساً... وبعثت الحياة في الصورة، تحركت، فسأل مختار: «لماذا لاتشاء العودة؟» لأن العودة، احتقار، للنفس، وأنا لاأحتقر نفسي أبداً، ولاأقدر على الصمت أبداً أمام من يحتقرني... «الموت يترقبك». «الموت، أهلاً بالموت، الآن غداً بعد قرن، هناك موت في آخر المطاف. لاشيء يخلّد. موت. هدية من السماء. فرصة لأحد آخر غيري ليعيش... ربما يكون مثلي، أو أكثر أو أقلّ بقليل، ولكنه سيملأ الفراغ الذي سأتركه، و«نافلة؟!» مابها نافلة؟ إنها طيبة، وعاشقة، حنونة وردة دامعة هل تعلم...؟! «أنت لاترفض أن تجدها يوماً في بؤرة الخلاعة، والخناء من جديد؟!!». اسمح لي أن أنعتك في هذه المرة، بالدناءة، والحقارة، والصغر ولا أعتقد أنها تكفيك هل تعلم!!؟».

أبطأ مختار من سرعة سيارته، أخرج سيكارة أخرى وأشعلها... وواصل السير. كانت الصورة قد تلاشت. وتلاشى معها صوت مختار... وتلاشت أيام الجامعة...

أدار المفتاح في ثقب المزلاج ودفع فانفتح الباب خطا إلى الداخل، كانت كل الأشياء ساكنة تحت قماشة شفافة من الضوء. نظر في الساعة الجدارية، وفي ساعة يده، العقارب كلها منطبقة على بعضها البعض، وطرأ خاطر بذهنه فترجمه بصوت مسموع: «إذا لم أقتله وتركته على حاله..!! لو قتله أحد آخر غيري... سيكون أفضل... ولكنه أمر مأساوي مع ذلك...». أرجعت الزوايا، والجدران العارية صدى قوله... واضطربت ذاكرته من جديد بصورة بسّام عاشور، ونافلة، وخديجة، وصلاح الدين... كانت

الحياة، فلم يكن يرتعد... والآن، الآن!! البيت خال من البشر سواه، صامت منكفئ على نفسه، لايضحك ولايبكي، لاإشارة ولاشيء... صامت لايدلي بحرف، اقترب من سريره خلع ساعة اليد، وضعها على الخوان قربه ثم تمدد... نام بعد انتظار...

عادت نافلة من حمام الأنف بعد حوالي أسبوعين، كان بسّام قد شعر فيهما بالغربة والوحدة، إذ لم يعد له صدر يبث إليه أسراره، ويشكو إليه أحزانه وإرهاقه في تلك الفترة، ومع ذلك حاول بمفرده حلّ بعض الإشكالات، أو انحلت بطبعها دون تدخل منه، كانت «مدام» بن حازم قد هتفت إليه بعد أسبوع من زيارتها إليه تخبره أن لاجديد حدث إلى تلك الساعة، مع بقاء السرّ مخيماً حول الرسالة التي وصلتها كما هتفت إليه نافلة وأعلمته بمكان وجودها وسببه. هل اطمأن الآن؟الحقيقة «نعم» ولكن همه أضحى الوحدة، فهو منقطع عن بقية الأعضاء، أو الأصدقاء القدامى. وآسيا، وخديجة ليستا إلا صديقتين لنافلة، وبمثابة الأختين له، ولكن ليست له القدرة، أو الجرأة على بثهما شكواه، كما لم تكونا تزورانه باستمرار في تلك الفترة، كما كانتا في السابق عندما كانت نافلة في العاصمة. والآن ومع معرفتنا لما آلت إليه شواغل بسّام علينا أن نقصّ بعضاً من الأحداث التي وقعت خلال الأسبوعين، فقد نهض بعد نوم استغرق ساعات طوال جراء التعب والإرهاق الذي خيم عليه، وعزم على التوجه إلى مركز الأمن قصد رفع شكوى ضدّ الحركة، وإعلان غياب نافلة وماكان يصل إلى مركز الشرطة حتى قفل راجعاً محاولاً إقناع نفسه بأنها ربما تكون سافرت إلى أهلها في «الماتلين» بعد سنوات طوال من الغياب واليأس.. وحاول التوجه إلى محطة «النقل البري» للحاق بها، كانت الفكرة تتضخم في دماغه بشكل رهيب، وتحوّلت في مراحل منها إلى فرص متعددة يمكن أن يغتنمها فهو لم يسافر أبداً إلى بنزرت، وهي فرصة للتعرف على هذه المدينة الساحلية الجميلة، ثم بإمكانه ساعتئذ أن يخطب نافلة من أهلها، وربما يعقد الزواج هناك وقد تكون هذه الفرصة الأهم، والثالثة هي: قد يعجبه الاستقرار هناك فيحوّل مشغله إلى تلك المنطقة ويبتعد بذلك عن أوجاع الدماغ... وماكان يقطع التذكرة ويصعد الحافلة حتى وجد نفسه ينزل منها ويلقي بالتذكرة في سلة المهملات...ماكانت نافلة لتسافر إلى هناك بتلك السهولة، فهي قد خرجت من بينهم في شكل فرار، من الأهل والأصدقاء... وجميع السكان... خرجت كي لاتعود أبداً، ثم متى قررت السفر أو فكرت فيه فليس أقل من أن تبقى أسبوعاً تستشيره فيه مرات ومرّات مترددة حيناً متحمسة حيناً آخر..

وإن لم تكن قد سافرت وأقبلت إلى الورشة أو إلى منزله تبحث عنه ولاتجده فما العمل، وإن لم تكن هناك، أي في «الماتلين» وسأل وبحث، وطرق على منزل والدها.. فماذا سيقول هل ابنتك هنا؟ أحس بالعرق ينز من جبينه بارداً، وكأنه حبات ثلج... التفت حوله ثم عاد فنزل دون أن ينبس بحرف واحد أمام من حوله، وعاد إلى الورشة رأساً رفع ستارها وطلب، بصوت مرتفع، من ذلك الشاب، أن يأتيه بقهوة مضغوطة ثم دخل وجلس خلف طاولته. مضى يومان آخران ولم يستقر فيهما رأيه على شيء، كان يشعر بأنه محاصر من جميع النواحي، الحركة من جهة، ونافلة من جهة ثانية، والأمن من جهة أخرى... فكان لايرفع قطعة الخشب إلا ليضعها من جديد دون أن يمسها بشيء... وفي المساء خرج إلى قلب العاصمة، كانت شبه مقفرة، لحرارة الطقس، توقف أمام المعالم القليلة فيها وكأنه سائح، دخل المكتبات وخرج بلا شيء، ليجد نفسه في آخر المطاف بمقهى «باريس» انتبذ لنفسه مكاناً قصياً، شرب بيرا، فلم تؤثر فيه، لقدرته على مقاومة السكر، دفع ثمن ماشرب، وتحوّل إلى بار «أدورنو» فشرب خمراً متوسط الجودة حتى سكر وفي طريق العودة إلى بيته، ضاع، حيث اتجه جنوباً عوض أن يتجه شمالاً، ووجد نفسه بعد ذهاب السكر ممدداً تحت صور مقبرة الجلاز بملابسه وجميع أوراقه الشخصية، سار إلى محطة النقل البري حيث غسل أطرافه وقفل راجعاً إلى بيته، وما يكاد يتذكر الوضع الذي وجد فيه نفسه حتى ينفجر ضاحكاً ويقول «يبدو أني سكرت حقاً». آلمه رأسه، ولكنه نسي نافلة، والحركة تماماً. بعد يوم آخر أقبل إليه الشاب نادل المقهى إلى الورشة وأعلمه أن صديقته نافلة تخبره بوجودها في حمّام الأنف مع صديقات لها، وأنها ستعود قريباً، لمّا سمع بسام منه ذلك دفع ما على الطاولة من أثاث ليقع جميعه على الأرض... وصاح:

ـ أنت في حمّام الأنف وأنا هنا أصطلي العذاب.

ـ نعم؟!

ـ في حمّام الأنف، في صرم العاصمة.

ـ لم أفهم!

انتبه بسّام لما هو فيه، فجلس، واعتذر للشاب، وشكره على هذا الخبر الذي جاء به، وما إن اقترب النادل من الباب حتى طلب منه بسّام أن يحضر له «كوكا» هذه المرّة، هل

كان طلب «الكوكا» تعبيراً منه عن السعادة التي يشعر بها؟ الحقيقة هي العكس فهو مغتاظ من هذا التصرف الأخرق الذي قامت به نافلة، أما «الكوكا» فهي لتورية ذلك الانفعال الذي أبداه دون شعور منه، وإرواء للعطش الذي يشعر به في نفس الوقت.

أقبلت نافلة إذاً، وزارت بسّام في الورشة، وأخبرها عمّا حدث له خلال هذين الأسبوعين، وعاتبها عتاباً قد وصل في بعض الأحيان إلى التوبيخ... ومع ذلك حاول أن يلزمها كما ألزم نفسه نسيان هذا الذي وقع، وبعد ساعة من ذلك تذكر أنه لم يسألها عمّا قامت به في حمّام الأنف، فترك المنحوتة من يده وقد أشرفت على النهاية، وبدأ يعتذر لها ممهّداً لنفسه الطريق لسؤالها عن سفرتها، هذه التي أوجعت قلبه وفكره معاً، فابتسمت نافلة، وأجابت:

ـ حمّام الأنف مقعد طبيعي، أو إن شئت عرش، مساحة ضيقة بين البحر من ناحية والجبل الساحق من ناحية أخرى فالجالس، والجالس هنا هي تلك المدينة تجد أقدامها في مياه المتوسط وظهرها متكأ على الجبل، جبل بوگرنين، ذلك الجبل الأخضر باستمرار.

ـ يا نافلة، يا نافلة، أنا. لم أسألك عن المدينة ولا الجبل... أنا سألتك عمّا قمت به في المدينة، عمّا فعلت هناك، أفهمت الآن؟!

ـ فهمت، وما ذكرت، هو ممّا قمت به، أي ممّا تداول من الحديث هناك. لقد حاولت خلق إطار للراحة، والمتعة، نزلت البحر ليلاً... استلقيت على الرمال تحت الشمس، صعدت الجبل، دخلت السينما، شاهدت أفلاماً أمريكية، بذرت أموالاً، متعت نفسي ثم عدت، اختنقت بأجواء العاصمة، بمشاكل أهلها. بترتيباتهم القميئة، والزائفة، طلبت الودّ، والحب، والصراحة، طلبت الحنان، طلبت من المعشوق أن يشدّ أزري، فتركني خلف خشبة الباب ومضى، جف شوقي، عسرت حياتي واشتدت... هنا، فخرجت أطلب تجديداً، روحاً طرية، لأكنّس ذلك الماضي أو بالأحرى هذا الماضي الذي أجدني أعود إليه، لأموت، لأحيى من جديد، في قبضة النسيان.

ـ يا نافلة هل تسردين أحاسيس، إني...

قاطعته:

ـ أرجوك اتركني، اتركني، فالمشاكل لاتنتهي، والحياة تنتهي، الحياة فصل وأنا أمضيها فصول، سوداء رمادية، مغبّرة، قلت أف في الفصل الأوّل وخلت أن المقبل

سيكون مزهراً، وردياً، وهأني أجده أكثر اسوداداً وقتامة، وأخشى أن أقول فيه أفاً فأصدم بما هو أشدّ منه بؤساً.

ـ يكفي نافلة فهمت، فهمت...

ـ أرأيت، إن كنت تستمع فقط قد أحسست بالملل فماذا إن مارست وصدمت بما أصدم به كلّ يوم، كل ساعة، كل ثانية... حقائق، والحقائق لاترفض إلا عبثاً، والحقائق مرّة، علقم، والحقائق كالأنف في الوجه... فمن يمحي أنفه!!..

ـ فعلاً... ولكن أنا مثلك أيضاً أعاني وأنت ترين...

ـ تعاني!! أنت رجل مع ذلك... أتفهم معنى رجل! أمّا أنا فأنثى، نصف أو ربع أو أقل، بقليل من ذلك... في مجتمع أنت تعلمه، مجتمع يد الرجل فيه مطرقة والمرأة بكاملها قطعة من الكاوتش، أو بيضة، أو قطعة من الزجاج.

ـ... لاتقولي هذا نافلة ألسنا نناضل من أجل حياة وواقع، ومجتمع أفضل.

ـ نناضل... أنت تربكني أو تجعلني أهزأ من وجودي مرة واحدة.

ـ تفاعلي... أني أدعوك إلى التفاعل...

ـ أتفاعل. صحيح التفاعل مثل حبة القرع في المطبخ وأنت جالس في غرفة الاستقبال أو النوم أو تطلّ من خلال شرفة منزلك على الطريق المكتظ بالحركة، هل ستفكر في حبة القرع، ومايدعوك للتفكير فيها؟ رائحتها! قيمتها الغذائية، شكلها!! لونها! إنك تجانب الواقع يا عزيزي تطلب الصعب إن لم يكن المستحيل... هناك في حمام الأنف قارنت واقعي وحياتي، بواقع وحياة أمينة وربيبة، فوجدت أن ما أنا فيه يغطس إلى القاع، وماهما فيه يقترب من السطح أو يطفو أحياناً.

ـ اغفري لي إن لم أفهمك هذه المرة، ولكن أقسم لك أن تسمعي مني خبراً يأخذك إلى عالم السعادة والرضا عما قريب. هذا وعد مني يا نافلتي. وانتهت زيارتنا تلك بأن خرج الاثنان معاً وقضيا أمسية بحديقة الألعاب، بقلب العاصمة...

استيقظ مختار على وقع طرق خفيف على الباب. ففتح ونظر للطارق بنصف عين والبقية لاتزال نائمة. قال: «تفضّل ونظر إلى الأرض».

ـ أنا جارك... الطيّب جارك. قال الطارق.

- نعم تفضّل.

- أرجو منك بكلّ لطف أن تقدّم سيارتك قليلاً لإخراج سيارتي.

أخرج مختار نصفه الأعلى من بين دفتي الباب وألقى نظرة إلى حيث يشير الرجل بيده.

- آه... (ابتسم) الشيخة!!

- نعم... المعذرة إن تسببت في إزعاجك...

- انتظر لحظة.

دخل مختار إلى غرفة نومه، جلب المفاتيح واتجه نحو السيارة الراسية قريباً من المدخل شغل المحرّك وتقدم بها بعض الخطوات، وبقي بداخلها، حتى أنه ما سمع شكر جاره.

فكر في تلك اللحظات في السكر، وفي مضاجعة فتاة، أو امرأة أيّاً كانت، فكّر في السباحة، وفكر في نوم طويل وعميق... فكر في الاختلاء بنفسه بعيداً عن الحضارة... وضغط على المدواس بقدمه وأدار عجلة المقود، فانطلقت في الطريق بسرعة كبيرة، جرت السيارة بين العشرات مثيلاتها، وسط شوارع العاصمة توقفت بمحطة بنزين، سقيت، ثم عادت مرّة أخرى إلى الجري، وكأنّ شيطاناً خلفها. كانت كنملة بين المئات المسرعات في كلّ اتجاه، عبرت بعض الأنهج أكثر من مرّة، زاحمت، زعقت، صمتت، تراخت.. زعقت وتوقفت. أين كانت قبل ساعة؟ وماذا فعلت؟ كانت «تطحن الفراغ». أسرّ مختار وهو ينزل منها ويدخل المنزل.

رفع سمّاعة الهاتف وضغط على بعض الأزرار، ثم تكلم:

- آلو.

- آلو. من؟

- مختار. صباح الخير.

- أهلاً، صباح الخير.

- سأسألك.

- تفضل أستمع إليك.

- هل قرأت L'ETRNGE لـ «كاموس».

ـ قرأت «عوارف المعارف» للسهروردي.

ـ أسألك حقاً هل قرأت الرواية؟

ـ نعم.

ـ ماذا فعل البطل؟

ـ أحك لك كامل القصّة في الهاتف!؟ لايمكن فهي قصيرة.

ـ في الأخير ماذا فعل؟

ـ مورسو؟!

ـ نعم مورسو. ماذا فعل؟

ـ قتل الجزائري...

وضع السمّاعة دون أن يضيف كلمة واحدة.

لقد قام بقراءة الرواية عندما كان طالباً أكثر من مرّة، ومع أنه أحسّ بطعم العبث فيها، ينكشف كالسّم، إلا أنه انشدّ إليها بشكل غريب، بل ودافع عنها أمام من كان يرفضها... كانت تتمثل أمام عينيه بجرأة الحديث، وسلاسة المعالجة... قرأ من الصفحة التي انفتح عليها الكتاب إلى آخر كلمة فيه، ثم وضعه على الخوان وخرج بدت له الشمس من خلال قطع السحب وكأنها قطعة من الصفيح العاكس، وبدت الأشجار المتناثرة على جنبات الطريق، كشظايا من الزجاج الأخضر ترقب من يقوم بجمعها وإلقائها في مكان بعيد.

لقد بدأت يتحسس القلق بشكل غريب، عاد مرّة أخرى إلى غرفة النوم جلس، ودخّن سيجارة دون أن يطرأ على ذهنه خاطر جديد، يحملق في كوكبات الدخان المتباعدة. وما إن يتلاشى قسم منها حتى ينشأ قسم آخر... تذكر «الغريب» مرّة أخرى إثر نهاية السيجارة الأولى، ولايدري لماذا، تحمّس لإعادة الاطلاع عليها من جديد... اشرأبّ رأسه قليلاً. نظر من خلال النافذة إلى شجيرات بدأت تتعرّض للصلع في الحديقة الواقعة في الخلف، كانت كالأطفال الصغار وهم يستندون إلى جدار أو شيء آخر لينقلوا أقدامهم خطوة إلى الأمام.... نهض من مكانه واتكأ على حافة الشباك... ظلال الجدران المرتفعة تمسح أغلب أرضية الحديقة... وعاد ليفكر في صديق الماضي، بسّام

عاشور، في خطة التخلّص منه، والقائه إلى الضفة الأخرى... هكذا شاء أعضاء اللجنة وربّما هو أيضاً.. وهكذا انتخب هو للقيام بالمهمة. أو طلبها لنفسه... مهمّ أن تكون شجاعاً، وتصنع الموت، الموت... وتدخل المجموعة بأسرها دائرة العنف... الإجرام... الدموية، ضرب براحته على خشب النافذة، وبصوت خفيض لاتسمعه الأذن صاح:

- إلى الشيطان، لايهم، أنا أيضاً إلى الشيطان، هذا لون الحياة، كلون التربة، أو المياه الراكدة، وباء للوجود... وباء للموت.

أغلق النافذة، ثم تعطر، وصفف شعره، وخرج... ركب السيارة واتجه إلى واحدة من الحانات الفخمة، جلس في إحدى الزوايا، وطلب من النادل أن يأتيه بخمر رديء، فجاء به إليه. وضع النادل الكأس والقنينة، وسأل زبونه إن كان يودّ شيئاً آخر قبل أن يبدأ في الشرب دون أن تنزاح عن وجهة علامة الاستغراب التي ارتسمت لحظة سماعه الطلب. فقال غامساً بصره في قعر الكأس.

- أجبني أيهما أفضل «حرقة الجاش» أم «حرقة النفس».

ابتسم النادل وقد ابتعد عنه خطوة ثم أجاب بشيء من الحذر.

- حقاً، لكل شيء نكهته الخاصة.

ضحك مختار من أعماقه لما تلفظ به النادل ثم قال:

- حقاً! ونكهتك أنت أخصّ من البقية.

هذه أوّل مرّة يضحك فيها مختار منذ بضعة أيّام، وقد تردد صداها في أعماقه حتى ارتجت كامل أعضائه، ومع ذلك ماكانت لتنسيه فكرة الموت والاغتيال التي أضحت تخيم عليه طوال الوقت، وتدلّى رأسه على صدره لحظة من الزمن، ثم سكب في الكأس حتى كاد يرشح وشرب على نخبه...

* * *

كان نسيم قد تغيب تماماً عن العاصمة بعد زيارته لبسّام في بيته، فهو من أصيلي «الكاف» ويعمل مدرّساً لمادة اللغة العربية بمعهد «غار دماء الثانوي» ولايكون سفره لتونس إلا لحاجة أكيدة، حتى أنه لم يحضر إلا عدداً محدوداً من اجتماعات الحركة... وفي هذه الأيام التي ازدادت فيها شكوى الحركة ومواجهاتها المختلفة، التقى صدفة مع

الأمين العام حسني عامر بأحد نزل طبرقة، ماشاء في البداية مقابلته، وهكذا حاول الابتعاد عن دائرة ريته لبعض الوقت، ولكن حسني اكتشف وجوده في هذا المساء واتجه إليه فلم يستطع نسيم التملّص منه...

كان حسني ينوي الاتجاه إلى مدينة عنابة الجزائرية لزيارة أهل له هناك بعد بضعة أيام يقضيها في هذه المنطقة الرائعة، ولم يكن يخطر على باله أبداً أنه سيلتقي بنسيم هناك رغم علمه بمكان عمله القريب.

خرج الاثنان معاً من النزل واتجها إلى المدينة، وفي الطريق، عبّر حسني عن أفول رغبته في مواصلة قيادة الحركة.

ـ أنت تعلم أني قضّيت سنوات في القيام بهذه المهمة، قال حسني، وأشعر الآن أني صرت عاجزاً عن المواصلة، فهي تتخبط في مشاكل لاحدود لها منها المقر، ومنها عدم التزام الأعضاء، والعجز المالي... وغيرها، وغيرها، في بعض الأحيان أتهم نفسي وأأنبها وأعتبرها المسؤولة الأولى أمام مايحدث وأحياناً أخرى أقول أن الرغبات السريعة والفجئية للأعضاء هي السبب، ومع كل ذلك يعود النصيب الأكبر من المسؤولية على عاتقي، فكرت في تقديم استقالتي من المنصب ولكني وجدت أن الظرف لايسمح، فقد تزداد بؤرة الاشتعال، نعم قد تزداد... إني أشعر بالعجز... ولا أدري ما أفعل.

ـ حاذر!!!....

كانت المدينة تقع على مرتفع، ومع بداية الصعود إليها يتحتم المرور على منحن حادّ، وما إن وصلت السيارة بهما إلى هذه النقطة من الطريق، حتى إلتفت حسني إلى بسّام ليرى ردّة فعله حول ماكان يقول، فضاع التركيز وكادت السيّارة أن تقع بهما في خندق.

ـ كدت أن تودي بحياتنا!.

ـ أف... يا لطيف... سترنا الله.

ـ حاول أن تركز أرجوك.

ـ حسناً. أنت ترى أن تعب هذه المسؤولية قد انعكس حتى على قيادتي للسيارة.

ـ فعلا!

ـ أني أحسّ أني مجهد إلى أقصى درجة، سأحاول تقديم استقالتي مباشرة بعد عودتي من الجزائر.

ـ أنت مسافر إلى الجزائر إذاً.

ـ فعلاً، لي بعض الأهل بعنّابة، أنوي زيارتهم.

ـ طيب يكفي الآن من الحديث، وركز حتى نصل إلى «طبرقة» بسلام.

وظلا صامتين إلى أن وصلا إلى إحدى المقاهي، كانت الشمس تطفو على صفحة البحر ناشرة حولها حمرة دموية، تأسر الناظر إليها. انتقى لنفسيهما مكاناً خالياً من الروّاد قبالة البحر، وطلبا كأسين من القهوة وجلسا، مرّت لحظات من الصمت ثم قطعها نسيم بسؤال عن عائلة حسني في عنّابة فأجاب.

ـ أنت تعلم أن والدي تونسياً، وإبان حرب التحرير عبر الحدود إلى الجزائر، واستقر هناك بضع سنوات، تزوّج فيها وأنجب أبناء، وبعد الاستقلال عاد إلى تونس وتزوّج من جديد، ولم ينجب سواي، فكان إخوتي جزائريون، وكنت تونسياً، وكانت علاقتي بهم ممتازة، وبين الحين والحين أزورهم أو يزورونني.

ـ أنت محظوظ إذاً!...

ـ قليلاً. ولكن لنعد إلى أمر الحركة، قد ذكرت لك أني أنوي تقديم استقالتي، ولعلي لأجد الآن أفضل منك لخلافتي في تحمّل هذه المسؤولية:

فوجئ نسيم بهذا الاقتراح الذي سمعه، فلم يجد مايقول في حينه، ومع إلحاح حسني لسماع رأيه وجد نفسه غير متحمس تماماً للقبول.

ـ الحقيقة، فاجأتني بهذا العرض ولم أكن أطمح، ولا حتى أفكر مجرد التفكير فيه.

ـ ولكنه قد عرض عليك الآن، وأنا من عرضه، زعيم الحركة.

ـ صحيح، وأنا أشكرك على ذلك. ولكن أنت تعلم أني أعمل بهذه المنطقة النائية عن العاصمة، فأنا أستاذ تعليم ثانوي وبعد أسابيع قليلة ستبدأ السنة الدراسية، وستكون أوقاتي ضيقة جداً... ولاأستطيع السفر إلى العاصمة كل حين.

ـ ولكن يمكن أن ينتقل مكان عملك إلى العاصمة...

ـ أرجوك.. أنا من فضل البقاء هنا عن غيرها من الجهات الأخرى. ولكن كما

ذكرت في بداية حديثك أن هذه المسؤولية صعبة وشاقة، وأنا لاأستطيع تحمل مثل هذه المسؤوليات.

ـ هذا تواضع منك.

ـ لاتواضع ولاشيء، بالعكس، أنا لاأقبل التواضع في أماكن لاتستحق ذلك، أنظر أنا أحبّ التعليم، ولاأتخيل نفسي يوماً. أنا نسيم دون تلاميذ، ودون طباشير فهذه المهنة هي عشقي الأوّل والأخير، وماعدا ذلك...

ـ ولكن لاأطرح عليك فكرة التخلي عن التدرس.

ـ فهمتك نعم، ولكني لن آأدي الواجب كما تتخيل، سيكون وجودي على رأس الحركة كعدمه.

ـ غريب، بعض الأعضاء يتناحرون من أجل الوصول إلى أحد المناصب في جهازها التنفيذي وأنت ترفض الأمانة العامة.

ـ هذا اقتناع واحترام للذات قبل كلّ شيء، سي حسني. وعاش من عرف قدره.

تَوارت الشمس خلف الأفق وشرعت الظلمة في الانسدال ببطئ. أكملا ارتشاف قهوتيهما صامتين، ثم قفلا راجعين إلى النزل دون أن ينبس أي منهما بكلمة إلى أن افترقا.

* * *

جاء بسّام عاشور إلى منزل مختار، طرق الباب طرقاً خفيفاً متتالياً، كان البيت مضاء والحركة ساكنة بداخله، ترقب بسام قليلاً أمام الباب ثم أعاد الطرق مرّة أخرى وبقوة أكبر، لقد نام مختار من أثر السكر، كقطعة من الخشب، ولم ينهض إلا أثناء إعادة الطرق للمرّة الثالثة، مضى إلى الباب ورأسه بين يديه، ماكان يتصوّر أن بسّام سيقبل إلى حدود بيته، وماكان يظن أن هذا الطرق يصدر منه عندما لمح وجهه بعينيه المحمّرتين كاد أن يسقط مغشياً عليه من أثر المفاجأة... بقي واقفاً، صامتاً، جامداً في مكانه إلى أن قال بسام بصوت خفيض:

ـ لاتريدني أن أكون ضيفاً لك، حسناً، سأمضي..

عندها فتح مختار الباب على كامل مصراعه، وتنحّى جانباً، وهذا إذن بالدخول

دخل بسّام، وفرك مختار عينيه بقبضته أكثر من مرّة، ثم سار خلفه إلى أن جلس على أحد الأرائك، عندها نطق مختار بعبارة ترحيب:

ـ أهلاً بك... (وبعد لحظة أضاف) ها أنك مازال تذكرني، وتذكر بيتي.

ـ فعلاً.. لازلت أذكر كلّ ذلك ولا أعتقد أنني سأنسى في يوم من الأيام...

جلس مختار أمام ضحيته واضعاً رأسه بين راحتيه، محاولاً مقاومة الصداع الذي ينتابه، ومع مرور الوقت أضحى غير قادر على ردّ موجات التثاؤب التي كتمها في البداية، قال بسّام:

ـ ومع ذلك لاأجد منك أي ترحيب لمواصلة البقاء، فأنت تشاء النوم، وأظن أنك سكرت... أعتقد أنك لازلت تحقد عليّ، أمّا أنا فلم أحقد على أي كان لذاته، أنت تعلم أنك صديقي منذ سنوات الجامعة، بل وأكثر الأصدقاء قرباً مني... اعذرني قد كانت نوبة جنون وطيش لم أكن أعي فيها بشيء... أنا أعتذر من جديد...

رفع مختار رأسه، وكأنما صعق بتيار كهربائي مرتفع الضغط، تفتت نظراته على وجه بسام وتزاحمت الخواطر بذهنه، قد يكون على علم بنية الاغتيال وهذا شكل من أشكال اتقاء الموت، قد يكون حقاً، ندم على تخليه عن الحركة وتسببه في تفكيك صفوفها ليسأل:

ـ يعني أنك ستعود إلى التنظيم مرة أخرى... إنّ رأسي يؤلمني... لاأفهم شيئاً...

سحب بسّام نفساً ضخماً وقال:

ـ ليست هذه المسألة. إني ماأقبلت لأقول لك أني أرغب في العودة أم لا، أرجوك افهمني.

ـ هو إذاً على علم بنية الاغتيال، ولابدّ أن أحداً أخبره، استنتج مختار، وسأل مباشرة:

ـ لماذا جئت إذاً؟ لازعاجي؟! رأسي يؤلمني...

ـ لاأبداً، ولكن أعتقد أن رأسك يؤلمك أكثر مما ينبغي... وبقائي معك سيضيف إليه مالايحتمل.

ونهض بسام واقفاً استعداداً للخروج، فنهض مختار وقد بدا عليه التعب، ثم قال بصوت متكسّر:

ـ لهذا جئت إذا للجلوس، لازعاجي، فالنهوض والذهاب.

التفت إليه بسام صامتاً، راقب حركته برهة ثم قال:

ـ آسف، لايبدو أنك على استعداد لسماعي، قد أعود إليك غداً، فأنت صديقي على العموم.

ـ غداً؟!!

ـ أرجو أن أجدك يقظاً يا صديقي.

وخرج، أغلق مختار الباب، شرب قرصاً منوماً، وألقى بنفسه على السرير ليغطّ في النوم.

* * *

لم يعد بسام إلى منزله، وإنما اتجه إلى بيت نافلة كانت الساعة تقترب من منتصف الليل طرق الباب طرقاً متوسط العنف وترقب. كانت الغرف مضاءة وتسرب نورها إلى الخارج، اقتربت نافلة من الباب وسألت: «من» فعاود سليم الطرق من جديد دون أن يجيب. كانت نيته تتجه إلى ترك نافلة تكتشفه بحدسها، فأعادت سؤالها من جديد مرفقاً بتهديد: «من»... أجب من أنت، وإلا لن يفتح الباب ولو اقتلعته.. ابتسم لكلماتها هذه وأحس إصرارها على عدم الفتح. فحاول أن يرسم اسمه إيقاعياً، فلم يستطع، واضطر في الأخير أن يعرّف بنفسه فقال باقتضاب:

ـ بسّام.

هدأ روع نافلة وعنادها، ففتحت الباب وبدا بسّام تحت ضوء المصباح البعيد وكأنه هنديّ، طلبت منه الدخول فامتثل، وسارت وصديقتها خلفه، وماكادتا تلجان وإياه الغرفة، حتى قالت:

ـ لو أبطأت لحظة أخرى عن الإجابة لاستدعيت الشرطة.

ضحك، فقالت مستطردة:

ـ نعم، كنت سأنادي الشرطة...مايضحكك؟!

فقال:

ـ أضحك عن الطريقة التي ستناديها بها، يبدو أنها لاسلكية؟!

- هـ... هـ لاسلكية، لا يا عزيزي، إنها إشارات كإشارات جهاز التلغراف. أنت لاتفهم هذا النسوة فقط يفهمنها، ومع ذلك فهي أسرع وأقدر من أي جهاز يخطر بذهنك...

التفت إليها متسائلاً فأضافت.

- حقاً لم تفهم! إذاً هو الصراخ يا عزيزي، الولولة... هل تشاء أن ترى.

- لا شكراً، فهمت واقتنعت، وهذا يكفي.

وجلس على أحد الكراسي الخشبية وسط غرفة الجلوس الضيقة، فسألت نافلة عن سبب مجيئه في هذا الوقت المتأخر، ودون أن تتيح له فرصة الإجابة، قالت:

- أعتقد أنك تريد إبلاغي بالخبر السعيد الذي وعدتني به، دعني أغامر فأقول... طلب يدي للزواج.

- اقتربت ولكن ليس هذا.

- إذاً؟!

- طلب أذنك للاستماع.

صمتت عند سماعها لردّ بسّام وقد تيقنت أن خبر الزواج لم يحن بعد، ونظرت في وجه آسيا فلم تكتشف فيه أي علامة جديرة بالملاحظة، كانت صامتة، منذ أن دخل بسّام وكأنها أحست أن وجودها لم يعد ضرورياً في المنزل.

قال بسام:

- لست أدري سبباً واضحاً لما أشعر به، ولكن!!..

- لكن، ماذا؟ قالت نافلة.

- أحسست بالضيق والاختناق في بيتي، كنت أستعدّ للنوم، وفجأة أحسست وكأني أتعفّن، خفت من وحدتي، أحببت أن أفرغ ماعلق بصدري لشخص أعرفه ولايهم من يكون، ولاكيف يمكن أن يكون... فأقصّ عليه ذلك الماضي بما فيه من سعادة، وحزن، وصداقة، وحب، وبراءة... ونضال. أتحدث... وأتحدث وأتحدث.. ولايهم إن كان يستمع إلي بانتباه أم لا، ولايهم إن كان يتقبل ما أقول بسخرية... المهمّ هو أن أخرج من قشرة أحسست أنها تلفّ نفسي، وعظامي... حياتي... وجدت نفسي أمام منزل مختار فطرقت

الباب، وفتح لي بعد جهد (اتعدت نافلة لذكر مختار، والتفتت إلى آسيا، فوجدتهما جاحظة العينين، كأنّما صدمت). وجدته نائماً، قد سكر حتى الثمالة. جلست عنده لبعض الوقت، فوجدت أنه لايحتمل وجودي ولو استطاع لطردني من بيته قال أن رأسه يؤلمه، أنا أيضاً رأسي يؤلمني... عندما بدأت الحديث قاطعني كثيراً... حسب أني أردت إخباره عن رغبتي في العودة إلى الحركة... ولكن نيتي لاتتجه في ذلك المسار... تركته وخرجت سرت في الطريق، مرّة أحث الخطى، ومرّة أبطأ، راودتني فكرة الحديث إلى الأشجار التي تعترضني في الطريق، وإلى الفوانيس المكتأبة... أزحتها، كانت فكرة مجنونة... كان الهواء بارداً يجمّد الأطراف... فكرت في العودة إلى بيت... وماكدت أصل إليه حتى عدلت... وكان إقبالي إلى هنا... أتمنى أن لاأكون قد أزعجتهكما، أنت، وآسيا...

بعد هذه المقدمة استأذنت نافلة لتأتي إليه بكأس من العصير، أو الحليب الصافي... فخير العصير... وهي تمدّ إليه الكأس قالت:

ـ لو أبطأت قليلاً لما وجدت من يقدم لك هذا المشروب..

ـ وهل أهون عليكما... بابان يغلقان في وجهي في ليلة واحدة...

ـ ولكن مابدا عليك الضيق وأنت تطرق الباب...

ـ صحيح كنت، ولاأزال أجاهد نفسي للتملص من هذا الاحساس.. ويبدو أنه دون جدوى.

ـ حسناً إنا نستمع إليك.

شرب بسّام نصف ما في الكأس دفعة واحدة ثم قال:

ـ أشعر أني سأموت قريباً.

وصمت لحظة ضربت نافلة فيها براحة يدها على صدرها، تأكيد لفزعها وقالت:

ـ لاه(1)؟؟!!؟ من أخبرك.

ـ هوّ إحساس ليس أكثر، لاتنزعجي.

ـ لاتقل هذا ثانية يا بسّام، من أجلي أنا على الأقل.

(1) ـ لاه: لماذا، في الدارجة التونسية، إلى جانب لفظة، لَواش.

وقالت آسيا:

ـ لاتقل هذا. لاتوهم نفسك لازلت شاباً... والحياة أمامك مديدة إن شاء الله.

ـ إن سمعتك مرّة أخرى تعيد هذا الكلام... سأغضب... لن يقول ذلك إلا معتوه بل حتى المعتوه لايقوله فكيف بإنسان عاقل مثلك... ومثقف... أتصدق.. هذه الأوهام، أرجوك بسّام، تذكر حبّنا تذكرني أنا، تذكر ما ستفاجؤني به من أخبار سعيدة... وستنسى هذا الوهم... ستنسى. إن حبي، وعشقي لك جعلني أفتح لك الباب في مثل هذا الوقت المتأخر، وجعلني أشعر في كلّ مرة بأنّ اليوم الموالي سيكون أنور وأسعد. أليس كذلك آسيا.

والتفتت إليها تستجديها فابتسمت آسيا، وكادت تقول لها «كيف لي أن أعرف» ولكن اللحظة الحرجة التي هم في جميعاً، لاتسمح لأكثر من إعلان الموافقة.

ـ أنا سعيد بلقائك هذه الليلة نافلة، وممنون لك... هل تذكرين أوّل مرة التقينا فيها! كانت أمام باب الكلية كنت ساعتها مازلت طالبة جديدة.... في حين أني قضيت سنين ساعتها... كنت تحدقين في وجوه الطلبة الزملاء، وهم مقبلون من مختلف الجهات، لقد شدتني نظراتك الحالمة ساعتها، راقبتك ثلاث أو أربع أيّام، كنت تقبضين علي متلبساً في كل مرّة، ومع ذلك... أنت لم تتغيري، اقتربت منك، سألتك عن الحافلة، لم تسمعيني أو تجاهلت صوتي... وأعدت السؤال بصوت مرتفع، بدوت خشناً ساعتها، جافاً «وكأني لم أتحدث في حياتي إلى فتاة» قلت لي ذلك ساعتها، ابتسمت وأعدت السؤال من جديد، ولكن بهدوء هذه المرّة، وابتسمت أنت أيضاً. أذكر تلك الابتسامة أذكرها إلى الآن، عالقة بين عيني، في ذاكرتي، لم تمّح حتى وأنا داخل السجن... حتى وأنا في أقصى ساعات المواجهة... مسكتني من معصمي وسحبتني خلفك حتى توقفنا أمام الباب الخلفي للحافلة، قلت لي «ترقب» سأسأل وصعدت الدرجتين وسألت، ثم نزلت وقلت: بعد ربع ساعة ومضت الربع ساعة، والنصف ساعة، كأن القدر ساعتها شاء لنا أن نبقى هناك وأن نتحدث عن أنفسنا، وتوجهاتنا الدراسية، ومنحدراتنا الجهوية، قلت أنك من بنزرت، قلت أني من المهدية، كلانا نسل للبحر الأزرق...

وظلت نافلة مع صديقتها تستمعان إليه دون أن تجرأ على مقاطعته، حتى تعبتا ونامتا في مكانيهما...

* * *

مرّت نافلة إلى آسيا صرّاف بمجلة «الآمال» وأعلمتها بالخبر الجديد الذي اقتنصته. وحول إمكانية نشره على صفحات المجلة طلبت منها أن تستفسر رئيس التحرير دون أن تجعله يفهم القضية بتفاصيلها، إلى أن يحين الوقت المناسب لذلك...كان الخبر المقتنص يتمثل في محاولة اغتيال بسّام دون التوصل إلى الشخص، أو الجهة المعنية بهذا العمل، ولا التوقيت الذي سينفذ فيه أو الوسائل التي ستستعمل لذلك، وراجعتا مع بعضهما ماسمعتاه بالأمس من بسّام نفسه، وثارت التساؤلات والاحتمالات في دماغ كل منهما. فتذكرتاها، دون أن تتوصلا إلى إجابة محددة ومقنعة، ومع بقاء التوتر والذعر في نفسيهما، صممتا على عدم إعلامه بشيء، إلى أن تتوفر لديهما معلومات أكثر...

حوالي العصر اتجهت نافلة إلى الورشة فوجدت بسام منكبّاً على قطعة من الخشب الخام يركلها ركلاً «بالمربوع» حتى استجاب سطحهما لما يريد... اقتربت منه وحيته فردّ عليها دون أن يرفع رأسه عن قطعته، تحدثت إليه وسألته عن هذه القطع المرصوفة أمامه معربة عن إعجابها بها رغم عدم اتمامها بعد... وعن صاحب الحظ الذي ستكون له: كانت الأشكال تتجاوز الخمس، ولايزيد حجم الواحدة منها عن قبضة اليد، قليل منها قد اتضحت صورته والبقية لاتزال غامضة.

ـ هذه كتل من النار أو الماء المتجمّد. قالت نافلة.

ـ هي كتل من الدّم الثائر في مجموعها.

مسكت نافلة القطع المتضحة بين يديها، وقالت:

ـ ليست لعباً للأطفال إذاً.

ـ فعلاً، هي صور للكبار، وإن شئت هي رؤية للحياة، والوجود، والموت، والعداوة والشقاء... باختصار نقطة استفهام يقف أمامها العقل المكتمل ساهماً، يرى صفاءه، وخلاصه..

فقاطعته نافلة...

ـ أهلاً... أهلاً بالغزالي الجديد، أو دعني أسميك الحلاج، أو ابن عربي، ابن عربي أفضل... بالأمس تتحدث عن شعورك بقرب أجلك..

ـ فعلاً أتحسس قرب أجلي، ولكن هذا المشروع بدأته منذ ثلاثة أيام، وفكرت فيه قبل شراء الورشة..

ـ إذاً أيّها تختار يا عزيزي.

ـ لأحد منهما يا عزيزي... فقط اخترت أن أكون أنا ولاأحد غيري.

وعاد لعمله من جديد، وقد لاحظت، الجدّ والصدق في قوله فسألت.

ـ ستقوم بعرضها في رواق إذاً!... مع أني ألومك لعدم إخباري بالأمس، فإنّي سأشجعك على هذا العمل الذي لم أفهم منه شيئاً كثيراً، وعلى فكرة إقامة المعرض... فعلاً هذه فكرة طيبة، ينبغي أن تقوم بهذا المعرض، وتبرز أمام الجميع، وتشتهر في الداخل والخارج، سأساعدك... يا عزيزي.

اقتربت منه رفعت رأسه بين راحتيها وطبعت قبلة على شفتيه. ابتسم وهو ينظر في عينيها، ومن جديد عاد يمزق قطعة الخشب... سعدت نافلة ـ سعدت وكأنها هي من سينجز هذا المشروع. عندما أعلمته برغبتها في العودة إلى منزلها ناداها لتقف قريباً منه، ثم وكأنه يوشوش لها قال:

ـ كنت تنتظرين المفاجأة، أليس كذلك؟! هذه نصف المفاجأة والنصف الثاني الآن: إني أطلبك من نفسك فهل ترضيني زوج المستقبل.

ـ المستقبل؟!

ـ نعم بعد إنهاء المشروع وعرضه في إحدى القاعات، نتزوج مباشرة.

ـ أطلت المدّة، يا حبيبي...

* * *

انتشر الخبر كسحابة سوداء داكنة.

أو كسجادة بيضاء ثلجية.

أو كعاصفة رملية.

انتشر الخبر.

خبر موت بشام، واكتسى من الألبسة ألواناً، تراوحت بين السواد الداكن والبياض الناصع. كانت نافلة تغلق باب منزلها عندما وقفت سيارة التاكسي قريباً منها، لتنزل آسيا وتخطو إليها مسرعة، دامعة العين. طلبت منها أن تعاود الدخول إلى المنزل، انشدهت نافلة، ودون تفهم شيئاً، فتحت الباب من جديد ودخلت، وتبعتها آسيا. قد شعرت أخيراً

أن أمراً جللاً قد وقع ولم تعرف طبيعته، خطر بذهنها خطيب آسيا المهاجر منذ سنوات، تساءلت إن كان قد راسلها أخيراً وأعرب لها عن عدم رغبته في الزواج منها، أو إن كان قد تعرض للموت... في بلاد الغربة لم يخطر ببالها أبداً أن يكون خطيبها، منذ الأمس، قد مات، وأنها هي التي فقدت سندها، في هذه السنوات العصيبة، ظلت آسيا حوالي أربع ساعات بجانب نافلة لتمرّر إليها الخبر دون أن تصدم به، ومع ذلك فقد صدمت، وصرخت، وبكت وطلبت رؤية الجثة، وكأنه كان لها زوجاً، أو ابناً، أو أباً... وليس صديقاً وخطيباً فقط.

صفحة جديدة تبدأ من حياة نافلة، صفحة المأساة، والعذاب، واليأس، صفحة الارتطامات، وبؤس الحياة...

«صدق حدس بسام إذا بقرب أجله، ولم تنفع جميع توسلاتي»، وقدراتي على صدها، صدق حدسه، صدق، صدق... حدثت نافلة نفسها وهي جالسة على سريرها بغرفة نومها وقد انتفش شعرها، وسالت ألوان الزينة واختلطت بالدمع، والمخاط... الذي صارت تتخلص منه بمسحه بظهر يدها، وكمّ ثوبها... وبين الحين والآخر وهي جالسة في مكانها تسأل آسيا إلى أي مستشفى نقلوه. ومتى يمكن لها رؤية الجثة، ومتى سيعودون به للدفن؟؟ وظلت آسيا تجيب عن بعض الأسئلة وبعضها الآخر تسكت عنه لجهلها الإجابة.. أو عدم رغبتها في مضاعفة الشجن أكثر... ونهضت نافلة أكثر من مرة وطلبت من آسيا أن تساعدها في البحث عنه في جميع المستشفيات.. توقفت قريباً من السرير وأمام الغرفة وداخل المطبخ، وقرب الباب... ألقت البصر على الصور المعلقة على الجدران، وعادت إلى واحدة منها بالتحديد، وظلت تحدق فيها ثم قالت باكية:

- إني لاأصدق أنه مات، لاأستطيع أن أصدق... لاأستطيع.

- فعلاً هو أمر لايصدق بسهولة، ولكنه الموت في النهاية.

- آه... يا آسيا لو تعلمين مايجيش بصدري، بالأمس طلب مني يدي، وأخبرني بأن الزواج سيكون إثر العرض الذي سينضمه، فقلت: قلت، أن المدة ستكون طويلة.

- ... (وسارت نافلة قريباً من إحدى اللوحات...).

- وها أنها ستكون مدة أبدية.

ذات مرة وقف هنا. نظر إلى هذه الصورة وقال: بتلقائيته المعهودة «أنت كتلك

الفرس، إنها حياة شفافة. لاتغضبي الفرس رمز الحياة، والقوة، والاندفاع عندي، وأنت الحياة». لم أغضب هل تتصورين، كنت سعيدة لتشبيهه، قرصته من حنكه وقبلته.

* * *

ارتبك مختار، واستعدّ جميع عناصر اللجنة المكلفة بمتابعة ملف بسام لأي طارئ، وأقبل عدد آخر من أعضاء الحركة ليلوم البقية على تصرفها المتهوّر، استعمالها العنف ضد أحد رموزها، سال الدمع غزيراً حاراً من مقلتي مختار، وظن البعض ممن رآه على تلك الحال أنه هو المتسبّب في القضاء عليه... قرر التحوّل في تلك اللحظات إلى بيته ثم بيت بسّام أو محل عمله.. ثم استعاض عنها بفكرة الذهاب إلى منزل نافلة.

وقرر أخيراً الخلوّ إلى نفسه في بيته... لم يتأكد أحد من تسبب مختار أم لا في موت بسام ولذلك تحلق عدد منهم حوله، وحاولوا الضغط عليه ليجيبهم بصراحة... ولكنه ظل صامتاً، وانطلق إلى الطريق اتكأ على ظهر «شيخته» فترة من الزمن ثم ركبها وانطلق، أحس بشاعة الموت، وهو يقود سيارته، بشاعة الموت الذي صاد صديقه، وغريمه بسام، لمّا وصل إلى بيته لم يتوقف، وصل إلى بيت بسّام أراد الوقوف ولكنه لم يستطع... وقام بأكثر من دورة في الشوارع الخالية ثم اتجه إلى حانة بسيطة، طلب خمراً رديئاً، وشرب بصمت إلى أن انتهى مافي جيبه من مال.

* * *

ـ سبب وفاة بسام صعقة كهربائية.

قال أحد الأعضاء في الحركة وهو يسحب كرسيه للجلوس، الجميع علموا بسبب الوفاة هذه، علموا أنها نتيجة لخطأ في تعامله مع أسلاك الكهرباء... بعضهم أحس بالارتباك، وبعضهم الآخر شعر بالأسف، وعدد منهم تقبل الخبر كما يتقبل خبراً صحفياً لايهمه في شيء، أما مختار فقد انكمش على نفسه، فقلّ حواره مع بقية الناس، وأضحى يشرب كثيراً كأنما يريد الانتقام من نفسه، كلّ يوم لايفيق من الغيبوبة إلا ليعود إليها.

ooo

الفصل السابع

«أنا أمبرتو مارسيلّو بلانكي، إيطالي المولد، والوالدين، والجنسية. مازلت أذكر الدقائق الأولى من نزولي أرضية مطار تونس قرطاج. كان ذلك في أوائل شهر أفريل من سنة أربع وثمانين وتسع مائة وألف، أي قبل خمس سنوات من الآن... أذكر أني جلست على أحد الكراسي الخشبية وسط باحة الانتظار، إذ ليس لدي من يترقبني، ولاأعمال أودّ قضاءها بسرعة، ولاأبحث عن نزل للإقامة فيه إذ لم أكن أعتبر نفسي سائحاً لبعض الأشهر، بل كنت مقرّاً العزم على الإقامة الطويلة في هذا البلد. لم تكن الوجوه أليفة بالنسبة لي... ولم أكن أتقن العربية كما ينبغي. ولذلك جلست هناك أدرس وضعي من جديد وأعيد ترتيب أوراقي... كنت أنتعل حذاء رياضياً عليه «ماركة» «أديداس»، وسروالاً من نوع «دجينز» لم ألبس مثله قبل سفريتي هذه أبداً. كان شعري طويلاً، غير واضح الصفرة، ولي شاربان قصيران... لماكن أتمتع بكثير من ملامح العرب، ولكني كنت سهل المعاشرة، سريعها... وهذا ما ساعدني على سرعة إيجاد المكان الذي سأستقر به... قد قرأت في إيطاليا عدداً من المؤلفات حول الشرق وأعجبني بعضها، وبعضها الآخر لم ينل إعجابي.. ومع ذلك ماكانت مشجعتي الأولى على الاستقرار في تونس، كما لم يكن القرب الجغرافي أيضاً، ولاالثقافي ذا فاعلية كبرى، وإنما ما انطبع في ذاكرتي عن لين معشر أهلها، وربما هناك سبب آخر ولاأعتقد فيه بجدية، وهو إمكانية انحداري من عائلة تونسية... فقد قام قراصنة جنوة باختطاف عدد من الأسر من السواحل التونسية، مع بداية عصر النهضة.. أنا لايهمني التأريخ فهو محنط بين دفات الكتب، أمّا الحياة فهي هنا، بين البشر، معهم، وضدهم، منهم، وإليهم، فيها الكثير من الحب، والكره، والمصلحة. قد أحببت الكثير ممن تعرفت عليهم وكذلك كرهت الكثير. أتقنت الدارجة في ظرف سنة واحدة، حتى أن الغريب لايلاحظ بسهولة أني أجنبي أبداً، وهذا أمر أعتزّ به في الحقيقة.

«أنا أمبرتو، بشر حقيقي، ولست خيالاً، أو شخصية وهمية من التاريخ السحيق لروما، لست أبحث عن المجد والبطولة فهي لاتهمني... وإنماأبحث عن الحياة بما فيها من البساطة والمتعة... لاأسعى إلى جمع الثروة ولا إلى تبديدها نكاية في أحد ما، ولاتلبية لرغبة أحد آخر، وإني قد اشتغلت في أعمال عديدة، كالفلاحة، والبناء وبمصانع النسيج والجلد... فقط من أجل العيش ليس أكثر... وتعرفت على عدد فاق تصوري من الناس... وتعاملت مع عدد منهم... وضايقني بعضهم وضايقت البعض أيضاً، ولكني حافظت مع ذلك على رغبتي.

«لي مجموعة من الأصدقاء أجالسهم في المقاهي، وأتجوّل معهم... وكذلك نسكر - في غير الأشهر الحرم طبعاً. كنت ولاأزال أشرب كثيراً... إلى أن ترفعني النشوة إلى السماء، فأرقص... إني أرقص دون إيقاع أو موسيقى خارجية، إنما لي موسيقاي كان ولايزال صوتها في ذهني، أستمع إليه لوحدي فأجاريه... موسيقى عذبة، ملائكية... صوت فتاة تترنم بأغنية جميلة، هكذا. هكذا تتدفق، تتدفق، ولاتتوقف إلا مع الصّحو.

منذ سنة ونصف تقريباً اجتمعت وعدد من الأصدقاء بسانية «خِلة» حول عدد من قوارير الخمر، فشربنا إلى أن سكرنا، كان ذلك داخل «المَعمرة»[1] ونهضت أنا ورقصت، رقصت، خيال «سيرينا» يتشكل أمام عيني... أحسست بالدمع بدأ في التدفق من مقلتي، هربت إلى الخارج، ابتعدت... ظن الجماعة أني خرجت للتبوّل، أو التقيء، ومع إبطائي خرج بعضهم للبحث عني، رأيتهم تحت ضوء القمر يفتشون، لم أعلن لهم مكان وجودي... استلقيت على ظهري وراقبت السماء برهة قطع السحب تنساق سابحة نحو الشرق. حينئذ وددت لو كنت مثلها، أطير معها وألحق «بسيرينا».

«كان خيال الفتاة بين عيني، وكانت الأشجار بأشواكها وثمارها تتمايل، لم أستطع الوصول إليها. الخمرة فعلت برأسي فعلها ومن جديد جلست تحت شجرة سفرجل، وراقبت... لقد ابتعدت كثيراً... كثيراً... رحلت إلى السماء.. وخرج الجميع من «المعمرة» وانتشروا في كافة الاتجاهات خائفين من أن أكون قد سقطت في البئر أو اختلطت علي الاتجاهات فضعت، ونادوا بأصواتهم المكسّرة، تقيأ بعضهم وبعضهم

(1) غرفة منفردة تقام في البساتين تكون جدرانها من قوالب الطين، وسقفها من القش ثم تبسط عليه طبقة من الطين.

أطلق سنفونية من السباب والشتائم... أردت مواصلة البقاء لوحدي علها تظهر من جديد ولكنهم عثروا عليّ وعادوا بي معهم بعناء، كنت أصرخ «أريد رؤية سيرينا سيرينا، رحلت إلى السماء»، ولماذا رحلت سيرينا، لماذا بقيت أنا...

«أكتب الآن: أكتب أنه «في البداية كانت الكلمة والكلمة كانت مع الله، والكلمة كانت الله»[1] أكتب أنا أمبرتو مارسيلو بلاتكي بعد العودة إلى الكتاب المقدس والنظر في حياة الأنبياء والقدّيسين، أن الكلمة أصعب وأثقل بكثير من أن يدفعها ضغط الهواء إلى الخارج، لأنها الصدق، والخير، والسلام. وكانت مع الله، الخير والمحبة، والأمان وهي بتوجيه ووحي مبارك منه لخلقه أجمعين ولأتباع يسوع المسيح...

أكتب ولاأدري إن كنت مؤمناً أم لا. إن ذكر الله كثيراً ومراقبة النفس وتقويمها حتى لاترتكب الخطأ وتظلم الغير، وتتكبر وتسرف في الشهوة واحتقار الآخرين، تساعد على إرساء الحياة المعتدلة والفوز بالبركة والخلاص عبر السيد المسيح...

أكتب ولست على اطّلاع بالديانة، إنما هو مايجيش في صدري من الأحاسيس والمشاعر أعبّر عنه ورجائي أن يتقبّل مني. آمين.

«قبل حوالي نصف سنة كنت مع مجموعة من الأصدقاء في حانوت الجعفري شربنا قليلاً، وبقينا نطبخ الشاي، كنت جالساً على أريكة بلاستيكية ورجلي مسبلتان أمامي، كان الباب خلفي نصف مغلق وفجأة رأيت أربعة من رجال الأمن وقوفاً بيننا، اثنان يرتديان زيّاً رسمياً وآخران بزي مدني، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً. نظرت إليهما لحظة ونكست رأسي، لم أتفوه بكلمة واحدة، أمرونا بإخراج بطاقاتنا الشخصية.... بحثت في جميع جيوبي فلم أجد شيئاً من وثائقي، لقد نسيتها. عندما حدّق في أحدهم قلت له بأني نسيتها في البيت... حاول رفعي من مكاني مسكني من ثيابي قريباً من كتفي، ولمّا عجز أمرني بالوقوف. والواقع أنه ليس من السهل علي أن أنهض وأنا في تلك الحال، من السكر وربما الخوف أو المفاجأة فتباطأت، فركلني وهو يشتمني، وأعاد مسكي وسحبي فتثاقلت، وساندہ صديقه شاتماً «إلم سقيك. قوم. ز...» ثم أضاف «قوم مْعانا» نهضت للتحوّل معهم إلى مركز الشرطة على متن سيارتهم...

«عندما نزلوا بيننا كان معاوية جبّاري قد أنهى واقعة رمضان حسيني مع الشاذلي

(1) الآيات الأولى من انجيل يوحنا.

جبّاسي وهي أن رمضان خرج لسرقة الدلاع برفقة التهامي خلدر من سانية الشاذلي في ليلة مقمرة، عندما وصلا إلى المدخل بقي التهامي يراقب الطريق حتى إذا ما مرّ أحد أصدر صفيراً معيناً للتخفي أو الهروب. ودخل رمضان وأمضى وقتاً طويلاً في البحث عن أفضل دلاعة وأضخمها حجماً لقطفها إلى أن أدركه الشاذلي ومسكه، سحبه إلى أن وصلا إلى التوتة فقيده إلى جذعها ثم سأله عن غايته من التجوال بين الدلّاع فأجاب رمضان «لاشيء» وأعاد الشاذلي السؤال من جديد وأجاب رمضان «لاشيء». فضربه الشاذلي على مؤخرته بقضيب من أغصان الزيتون فصرخ رمضان متألماً فأسرع الشاذلي بالقول: «لاتصرخ، لاتصرخ أنا أعرف عمّا كنت تبحث. كنت تبحث عن أفضل دلّاعة أليس كذلك. سوف لن أحرمك من الدلاع ولكن لاتصرخ «وضربه مرة أخرى وأخرى وهو يقول «ماذا يقول أصدقاؤك الذين أرسلوك، صديقنا يصرخ كالمرأة، غير معقول... اتريدهم أن يسخروا منك... إن كنت تريد ذلك فأنا لاأريد «وضربه من جديد عدة مرات حتى اختلط الصراخ والقسم بعدم العودة مرة أخرى على لسان رمضان. وجلب الشاذلي دلّاعة صغيرة أراها له وقال: الآن قد أعلنت عدم عودتك مرة أخرى أليس كذلك. «فطوح رمضان برأسه موافقاً. اقترب منه الشاذلي وقال: «ولكنك لم تشبع من الدلاع، وعلى الضيف أن يشبع. لهذا أنا سأواصل ضربك وأنت تقول شبعت. هذا جميل... جميل...» وانهال عليه يضربه على مؤخرته، وبين الحين والآخر يصرخ رمضان شبعت، شبعت.. وحل وثاقه بعد ذلك وسلّمه الدلاعة الصغيرة وقال له من هنا إلى الباب عليك أن تنادي شبعت... وسار رمضان دامي المؤخرة، يصرخ شبعت، ورافقه الشاذلي إلى أن خرج وهو يضحك ويسبّ ويتهكم منه. لمّا وصلا إلى الباب ألقى رمضان بالدلاعة على الأرض فتفشّخت. وصرخ بأعلى صوته ومن تلقائه «يا تهامي راني شبعت، شبعت» وسقط على الأرض من شدة الألم... عندما التحق به التهامي وأدرك ما حصل له لم يدر هل يضحك، أم يتأسف لما وقع لصديقه... والأكيد أن وابلاً من الضحك طرأ عليه فأسقطه هو الآخر على ركبتيه...

وقمنا بإشعال السجائر وبداية تدخينها صامتين وما مرّت لحظة حتى نزل الزوّار بيتنا.

«أخذوا معي طارق قابوس وقد كان ثملاً. لم تكن بطاقته الشخصية معه، ولم يكن حريصاً أبداً على وجودها بين أوراقه، لاعتقاده أن وجوده داخل المدينة بصورة تكاد تكون دائمة لايتطلب منه حملها، أنزلونا من السيارة والشتائم تتقاذفنا، وأدخلونا إحدى

القاعات أدركت فيما بعد أنها غرفة الإيقاف كان بابها حديدياً وجدرانها مخربشة، كتبت عليها حفراً عدّة أسماء، ورسمت قلوب، وأسماء أعضاء تناسلية. رسمت عليها رؤوس حيوانات ونساء، تشطيبات بالدم وأظنه دم بشري، فلان ابن فلانة... تواريخ دخول، تواريخ خروج، إمضاءات... هذه «غرفة» الإيقاف إذاً، كم استقبلت من الأشخاص وكم لفظت، سألت نفسي هل أنقش لي شيئاً يذكّر غيري بي... ضحكت، وعدت للجلوس... في الصباح أقبل أحد الأعوان أخرجنا من تلك الغرفة وأدخلنا غيرها. كان بها مكتب خشبي عليه آلة رقن كبيرة الحجم وخلفه كرسي عادي، وقريباً من الباب كرسي طويل يتسع لخمس أو ست أشخاص، ودخل موظف في لباس مدني، جلس خلف المكتب وضرب الأحرف بأصابع يد واحدة عدة مرات ثم قال دون أن ينظر إلينا، وكأنه يعرفنا تمام المعرفة:

ـ تجلسان في الحوانيت، ولاتحملان بطاقات الهوية، لأي غرض سلّمت إليكم إذاً، لايداعها بالبيوت؟!!

هممت بالكلام كما همّ طارق فزجرنا.

ـ لاأريد أن أسمع كلمة واحدة... وتسكران؟! لو طلبت منكم أثمانها لـ...

وصمت بعض الوقت ثم رفع بصره وحدق في وجهينا.. ثم أشار بحركة من رأسه وسألني:

ـ ماسمك أنت؟

ـ أمبرتو مارسيلو بلانكي.

اتكأ إلى الخلف كأنما صدم لسماعه هذا الاسم، رفع حاجبيه وهمهم ثم قال:

ـ أنت أمبرتو الإيطالي إذاً؟!

ـ نعم سيدي.

ـ وماذا كنت تفعل في الحانوت ليلة أمس؟!

ـ لاشيء سيدي كنت ساهراً مع بقية الأصدقاء.

ـ فقط؟!

ـ فقط.

ـ هذا غير معقول (قال ساخراً، وأضاف) أميرتو مارسيلو بلانكي الإيطالي لايفعل شيئاً... قل لي لماذا أقمت بهذه البلاد دون غيرها؟!

ـ أعجبتني الحياة هنا.

ضحك هازئاً ونهض من كرسيه ألقى نظرة عبر النافذة ثم اقترب منا. كان طارق صامتاً. منكساً رأسه، ونشر العون نظره على كامل جسدي ثم قال:

ـ أعجبك الفقر...

ـ لاسيدي أعجبتني طيبة الحياة، طيبة الناس هنا..

ـ طيبون حقاً! حقاً طيبون هذا واضح. أين كنت مساء أمس بين الثامنة والتاسعة والنصف؟!

ارتبكت لسماعي هذا السؤال فهو آخر مايمكن أن أتصوّره يطرح عليّ، فهو ذو وقع ثقيل، وخصوصاً إذا كان من طرف رجل أمن..ز أين كنت بين الثامنة والتاسعة والنصف؟ التحديد والدقة والصدق، إذا كان قد حدث أمر ما فهذا يعني أني طرف مشبوه فيه وأن متاعبي ستكون كثيرة. أعنّي يا رب. أنا لم أسمع عن وقوع أي شيء داخل المدينة، وكيف أسمع وأنا داخل غرفة الإيقاف... أحسست بالحيرة، والغربة، والعجز. هل يصدقني إذا أجبته بصدق؟! هل تراني أقع في فخّ دون أن أشعر؟ امتلأ رأسي بالأفكار المشوشة، وسرى الخوف حثيثاً في أحشائي، ضغطت على شفتي حتّى كدت أقطعها، إني لم أعد أجنبياً في تلك اللحظات بل مجرم أيضاً إذا وقعت عملية قتل أو سطو كما أتخيل. إني لم أدخل سجناً في حياتي، ولا مركز شرطة إلا لقضاء حاجة ـ وها أني دخلت الآن وأجلس للاستجواب.. لكزني وقال:

ـ نسيت أيضاً أين كنت! ذاكرتك مهلهلة إذاً؟

ـ لا أبداً... إني أتذكر جيداً..

همهم، استوى واقفاً نظرت في عينيه، سوداوين كانتا، ولامعتين... واصلت:

ـ كنت في مكانين اثنين.

أبدى اهتماماً أكبر لما أقول، عقد يديه إلى الخلف وأفرج ساقيه.

ـ أقصد ذهبت إلى مكانين اثنين (قلت) إلى حدود الثامنة والنصف كنت لدى

الحلاق. حلقت شعري وذقني كما ترى، ثم إلى حدود الحادية عشر كنت في الحانوت مع الأصدقاء وهذا طارق يشهد على ذلك.

والتفت إلى طارق قابوس وهو لايزال منكّساً رأسه. والتفت العون إليه أيضاً وقال:

ـ أنت أيضاً نسيت أوراقك الشخصية.

وعاد إلى كرسيه خلف المكتب ثم أضاف.

ـ ماسمك الرباعي؟

رفع طارق رأسه ونظر فيه، كان وجهه أصفر شاحب. ظل صامتاً للحظات ثم أجاب.

ـ طارق بن عبد الله بن ناصر قابوس:

ـ هذا اسمك الثلاثي، وما أطلبه أنا اسمك الراعي.

ـ هذا ما أعرفه فقط.

ـ جّد أبيك لاتعرفه؟! من يعرف إذاً؟ أنا؟!

ـ صدّقني لا أعرف.

ـ بغل. كان ينبغي أن تعرف. ولكنك بّغل؟!

إذا لم يكن يعرف اسم جدّ أبيه فمعناه بغل... ضحكت في أعماقي... وتذكرت ما شاهدته من كتابات ورسوم على جدران الغرفة الداخلية، أمّا هذه فتكاد لاتحوي شيء غير المكتب والآلة الراقنة، وكرسيين، أحدهما طويل».

* * *

«كان ذاك ممّا شدّ انتباهي قبل مايزيد عن نصف سنة. وهو في اعتقادي أمر هين ولكنه يحمل أمارة في حياتي مع ذلك، ولا أعتقد أبداً أني سأنساه».

«أمّا الآن وقد بدأت في تدوين مذكراتي، ثم توقفت لعارض حلّ أياماً عديدة فلي أن أبدأ هكذا من جديد:

ـ «بيني وبين الفجر لحظة... مرّة أخرى بيني وبين الفجر لحظة... وكم طالت تلك اللحظة» حدثت نفسي وأنا أرتجف تحت لحافي من البرد. ليلة سوداء طويلة لم تكد

تنتهي... حاولت أن أشغل نفسي ولكني عجزت، البرد يدقّ مفاصلي بحدّة... يجعلني أفكر في وسيلة لردّه دون أن أنهض من مكاني. تقلبت على جنبي ثم على بطني جعلت يديّ تحت صدري... ولكن دون جدوى... فالبرد شديد، نهضت فطويت اللحاف وضعت المخدة خلفي وقرفصت، فخذاي قريبان من صدري وإحدى قدميّ على الأخرى. ألقيت اللحاف عليّ من فوق وقد انحسرت مساحته، ثم أدرت ذراعي حول ركبتي، تخيلت نفسي... كدسا من الحطب. ربما كنت كذلك... أطراف قدمي باردة كأنها قطع من الثلج... أتحسسها أدعكها... لم تشأ أن تدفأ... بعد برهة يطلع الفجر... وأعيد لنفسي: بعد برهة يطلع الفجر ولكن طلوعه لم يكن سهلاً... لقد أبطأ... بل تلكأ كثيراً حتى صارت جميع مفاصلي تشطح دون إرادتي...

لم أكن أتدثر بأكثر من لحاف واحد في الليالي الباردة، أمّا في ليالي الصيف فلم أكن أتدثر بشيء، هكذا أبيت للعراء وفي أحيان كثيرة على السطح... أراقب النجوم أحرسها. كانت تذكرني «بسيرينا» تلك الفتاة التي أحببتها إلى حدّ الجنون...

أعتقد أنه ينبغي أن أتحدث عنها قليلاً، في هذا المقام.

سيرينا باتيسا، ابنة السيّد سلفيو باتيسّا، لم يكن رجلاً ذائع الصيت طبعاً ولاهي كذلك، كان يشتغل خبّازاً في بلارمو وهاجر منهاإلى سولفرينو سنة إحدى وثمانين ليكون جاراً لعائلتنا. لاأدري سبب انتقاله في الحقيقة، ولكنه رجل طيب، كثير الابتسام، حاضر النكتة، على عكس سيرينا كما عرفتها في البداية، فقد كانت حادّة الطبع طائشة السلوك في بعض الأحيان ولكنها كانت جميلة إلى حدّ كبير. جمالها ناعم، هادئ، جذّاب، حاولت الاقتراب منها بأكثر من وسيلة ولكنها كانت تدفعني عنها بشكل غريب. تحدثت مع والدها السيد سلفيو... ولم يبد أي حماس في الأوّل ولكن، عندما توطدت الصداقة بيننا صار يحثني، ويساعدني لإمالة قلبها وأعدّ هو بنفسه خطة محكمة لذلك. واقتحمت قلبها، فإذا هي عطوفة شديدة التعلق بمن تحب، وكانت أيضاً تحفظ كثيراً من الأغاني وتؤديها بشكل رائع، كما كانت ترقص وكأنها ملاك سماوي... قمنا بجولات كثيرة معاً في أنحاء إيطاليا، وأبهرت أكثر من مرّة بذوقها الفنّي الرفيع كان والدها السيد سلفيو يشعر بسعادة لاحدّ لها عندما يرانا معاً وفي بعض الأحيان تتساقط الدموع من عينيه ـ لاأعلم السبب ـ ويسرع لكبحها بأطراف أصابعه، ومضاعفة الشرب لأنه يجعله يضحك لأبسط الأحداث والمواقف...

ولكن الطيّب لايعمّر طويلاً كما يقول التونسيون، فقد توفيت في حادث سير قريباً من روما سنة أربع وثمانين، وهكذا افتقدتها إلى الأبد...

ملاحظة: لعلّ انجذابي إلى جليلة بن مجسن يعود إلى تقارب الشبه بينها وبين سيرينا... فهي أيضاً ذات جمال هادئ جذّاب يجعل ملامحها قريبة جداً من ملامح «سيرينا».

«كنت أتحدث عن مواقع النوم والدثار، وأتذكر الآن أني نمت في إحدى ليالي الصيف على سطح المنزل عارياً تماماً. فعندما وقعت الخصومة بيني وبين عثمان بن علي في حانوت منصور البالغ. أقسمت بالمسيح أن أهشّم عظامه، لقد أسقطته على الأرض كالثّور ولولا تدخل منصور للفصل بيننا لهشمت وجهه. وتجمهر عدد كبير من الناس حولنا كثير منهم كان يسأل عن السبب: أنا لاأحب الظلم، ولا الاحتقار وعثمان يسعى إلى ذلك جاهداً، لقد شتم والدتي، وأختي (أنا ليست لي أخت) ولكنه تفوّه بكلام بذيء في حق والدتي، قال إنها قحبة، وأني ابن القحبة... صعد الدم إلى قمة رأسي، أحسست بقرع حاد في أذني... إنه يعتدي علي، يأكل حقي ويشتمني، حسب أني لن أرفع يدي أمامه ولا أطالبه بمستحقاتي... ليكن من يكون ليمتلك الأرض جميعها ولكنني لن أتنازل له عن مليم واحد فهو عرقي الذي بذلته... أقسمت بالسيد المسيح أن لايتحرك من مكانه خطوة حتى آخذ ما لديّ عنده ضغطت على عاتقه بذراعي، وأدخلت رجلي بين ساقيه ودفعت به أمامي ليسقط على الأرض، عند ذلك اندفع منصور البالغ من وراء «الطارمة» وفصلني عنه. ثم شهد مع عدد آخر ممن حضروا، على ماوعد به عثمان من تسليمي أموالي في المساء، كان نهاراً حاراً والليلة التي تلته أيضاً، وأثر المعركة بقي يدوّي في رأسي، نزعت كل ملابسي واستلقيت على ظهري، ووجدت نفسي أفكر في السيد المسيح وعيناها تراقبان النجوم في أفلاكها قد أقسمت مرّتين في بالنهار بحق السيد المسيح وكنت جاداً في تنفيذ ما أقسمت من أجله. المسلمون يقولون أنه كلمة من الله، والمسيحيون يقولون أنه ابن الله. كيف ينجب الله؟ والكلمة لاأفهم... الكلمة، كلمة، ولكن المسيح لحم ودم، المسيحيون يتناولون الخبز المقدس والخمر المقدس باعتبار أن الخبز هو لحم السيد المسيح وأن الخمر هو دم السيد المسيح. وتناولهما يكون لأجل البركة والخلاص، عجزت عن الفهم والتفكير أكثر... وأنا عار هكذا تحت السماء، خطر لي أنه لو كنت نبيّاً، فهل معنى هذا أن البشر سيأكلون لحمي ويشربون

دمي؟! وأعضائي التناسلية هل يمكن أن تأكل أيضاً... ارتعدت خيفة، وبعد لحظة وجدت نفسي جالساً ألمّت بي الحرارة والخوف معاً. فأسرعت إلى ارتداء ما خفّ من ملابسي المكوّمة بجانبي. إني لم أدخل كنيسة في حياتي ولا أتصوّر أني عمّدت. نعم لاأتصوّر، فوالديّ لايدينان بدين وقاما بترتيبي بمدرسة علمانية، ولذلك لاأعرف عن الديانة الكاثوليكية إلا ماسمعته من أصدقائي.. ولكن لماذا أقسمت بالمسيح؟! أكان ذلك زلة لسان؟! لاأعلم..

«طرق الباب ثلاث طرقات قوية متتالية.. رفعت رأسي عن ركبتي أردت الانصات ولكن الطارق لم يتمهل فأعاد الطرق من جديد صرخت من مكاني «من؟» لم أكن أودّ النهوض، فالبرد يأسرني، لم أسمع جواباً وأعدت السؤال «من؟» وجاءت إجابة خافتة، لم أتبين صاحبها فأعدت السؤال من جديد «من يطرق؟» لهاث يقطع حلقي من شدّة البرد واصطكاك أسناني يجعلني غير قادر على الكلام المتواصل. التحفت مثل النسوة واتجهت صوب الباب سألت وأناأقترب منه «من الطارق؟» وبلغني ردّ: «أنا، أنا، افتح» أصبح الصوت مألوفاً لديّ ولكني لم أستطع تحديد صاحبه فتحت الباب الظلمة تواري وجهه...

«بسلفرينو بلدي كانت والدتي تمنعني من فتح الباب ليلاً، عندما كنت صغيراً، وتحذرني من فعل ذلك «لاتفتح الباب ليلاً أترك المقبل يطرق حتى يكلّ ثم ينصرف، واستهوتني هذه النصيحة كثيراً، فأصبحت لعبةً أتسلى بها. مارستها في النهار... خصوصاً في الساعات التي أشعر فيها بالملل. ومع تقدم السنوات مللتها، إذ شعرت بأنها تكبلني تحدّ من نطاق معرفتي، من أقبل ولماذا؟ ما حجمه، مازيّه، ماشكله، مالونه.. ورغم ذلك بقيت أتسلى بها في بعض الأحيان وكان والدي قد وقع ضحية لها في إحدى المرّات... طرق الباب مرّات متتالية ولم يناد، كنت في الحمّام ساعتها، توقف الطرق قليلاً ثم عاد من جديد وبسرعة وقوة أكبر قلت في نفسي ستكون لعبة اليوم ناجحة... وأعاد الطرق مرّة ثالثة، وهذا ليس من عادته أبداً - أي طرق الباب إذ لديه مفاتيحه الخاصة، وبقيت أنا محافظاً على صمتي دون أن أعلم من يكون. ولما تيقن من عدم وجود أي شخص في الداخل جلس على عتبة الباب يترقب والدتي وقد كانا متخاصمين منذ مساء اليوم السابق... حسبت أن الطارق قد عاد على عقبه ولذلك لم أفتح بعد الهدأة أيضاً... عندما عادت والدتي وكان ذلك حوالي العاشرة والنصف

وجدته مقرفصاً قالت أنها دهشت، خوفاً من أن يكون قد حدث له مكروه أو أطرد من العمل وهي تفتح الباب سألته عن السبب فقال أنه نسي عدداً من أوراق العمل، ومفاتيح المكتب والخزائن... وأنه لم يجد من يفتح الباب وقد بقي ينتظر أكثر من ساعة ونصف وعندما أعلمته بوجودي ثارت ثائرته وكاد أن يلقي بي من النافذة لولا أن والدي شفعت لي... ومع ذلك فقد فصل عن عمله لمدّة يومين دون مقابل ويومين آخرين يعمل فيهما ولايتقاضى أجرهما... والسبب في نظره ونظري أيضاً هو تلك اللعبة...

»قلت لصاحب ذلك الوجه المتواري تحت الظلمة وجميع كياني يرتجف تحت اللحاف.

ـ لم أستطع معرفتك.

وجاء جوابه لاهثاً، خافتاً مختصراً:

ـ أنا عبّاس، عبّاس... وهذا منذر..

أعرف عبّاس جيداً، ولكن منذر هذا لاأعرفه، انتظرت صامتاً مايريدان، ولكنهما بقيا صامتين، فسألت:

ـ ماذا؟!

وقال عبّاس.

ـ ألا تريدنا أن ندخل!

رفعت يدي عن مصراع الباب وأشرت لهما بالدخول... وبينما كنا نقطع صحن الدار إلى الغرفة التي أنام بها قلت: »الحقيقة أنه ليس لديّ فراش، أنا نفسي ليس لديّ ما يكفيني من الأغطية« وبدا أنهما لم يعيرا اهتماماً لما ذكرت..

كنت وجفاً من هذه الزيارة الغريبة فأحدهما وهو منذر لم أره سابقاً، وعلاقتي بعبّاس لاتعدو أن تكون معرفة سطحية قد نتبادل التحايا في بعض الأحيان، وفي بعضها الآخر يكون الصمت والتجاهل سيداً للموقف، كما أنه طوال سنة ونصف لم يطرق باب منزلي أحد في مثل ذلك الوقت المتأخر جيّداً. جلسا على حافة السرير، وجلست أنا على كرسي قرب الطاولة. انتظرت من جديد مايمكن أن يدليا به عن أسباب هذه الزيارة... اصطكاك الأسنان المختلط باللهاث واحتكاك الأيادي بالبشرة، ساد لحظة طويلة ثم قام منذر بتمزيقها قائلاً:

ـ جئناك إلى بيتك لغاية واحدة نرجو أن توفرها لنا، وسنكون ممتنين شاكرين.
انشدهت، ترقبت معرفة هذه الغاية، الأكيد أنهم لايرغبون في شيء وإنما هي غاية نفخ عبّاس في قبضتي يديه، ونظر إلي وقال:

ـ أنا أعرف تماماً أنك إنسان طيب، وأعرف أيضاً أنه لايزورك عدد كبيرة من الناس، لذلك اخترنا اللجوء إليك.

ـ لم أفهم شيئا.

قلت. فجاء الردّ سريعاً:

ـ نريد اللجوء في منزلك.

ـ لماذا؟ اللجوء من ماذا؟!

أحسست بالحرج، والخوف، والرغبة في المعرفة في آن واحد، ولكني ترقبت الإجابة، ترقبتها فعلاً، قال عبّاس:

ـ سنخبرك، نعم، ولكن إذا أعطيتنا وعداً بالقبول.

حافظت على الصمت لحظة كأني أفكر فيها، وكدت أقول «لا». لاأعدكما بشيء ولكني تراجعت، فقليل جدّاً من يقوم بزيارتي ولجوئهما في اعتقادي لن يشكل خطراً عليّ إذا لم يكونا هاربين من جهاز الأمن قلت:

ـ أعدكما. أعدكما بذلك.

فقال منذر:

ـ إسمح لي، يا سيد أمبرتو أن أسأل قبل ذلك.

أرجحت رأسي إلى الخلف والأمام موافقاً على السماح له، فأضاف:

ـ أنت لم تدخل الإسلام بعد. اليس كذلك.

ـ بلى هذا صحيح، ولكن ما محلّ هذا السؤال؟

فواصل عبّاس:

ـ معنى هذا أنك ماتزال مسيحياً، كاثوليكياً؟

أجبت دون تفكير عن هذا السؤال:

ـ نعم.

ـ نريدك أن تقسم لنا على الكتاب المقدّس أن تعدنا بالقبول، والكتمان.

ـ ليس لدي كتاب مقدّس (ثم بعد لحظة قلت مستدركاً). عفواً لي انجيل يوحنا. أعتقد أنه يمكنني أن أقسم عليه.

سحبت ذلك الانجيل وهو مكتوب باللغة العربية، وما قرأته إلى الآن، وضعته على الطاولة، ووضعت عليه يديّ، وأقسمت أن أقبلهما في منزلي لاجئين واعداً إياهما بالكتمان لكلّ ما سأسمع منهما.

والتفتُ إليهما وكدت أقول كلاماً كثيراً ـ لا أذكره الآن ـ ولكن انطلاق عباس في الحديث جعلني أنساه، قال:

ـ نحن الاثنان معارضان سياسيان... أنت لاتعلم هذا طبعاً، وها قد أخبرناك، قلت معارضان، ومعنى هذا أن الأمن يبحث عنّا...

أحسست بقلبي يسقط في جوفي، وأنفاسي تتوقف... نسيت البرد والأغطية وكلّ شيء... «الفخّ نصب لي وقد وقعت فيه» قلت في نفسي، وأضفت: ماكنت أتجنبه، وأرفضه، يالِ حياتي التعيسة، هل أنكث عهدي، هل أتراجع وأرفض بقاءهما وقد أقسمت واضعاً راحتي على إنجيل يوحنّا، إنه إنجيل واحد وليس الكتاب المقدّس بكامله. ما العمل زاغ بصري، مثّلت أغلب حركاتي. في تلك اللحظات، وانهمر العرق من جبيني، «إني لاأودّ أن أكون بطلاً، ولا أن أقف أمام شرطي واحد... أريد أن أحيا دون مشاكل أو زلات، يا سيدي المسيح خلصني». قلت في نفسي وأنا ذاهل.

هل يكون سيدي المسيح إلى جانبي؟! لقد واصل عبّاس حديثه ولكني لم أسمعه، وقال منذر على أثره:

ـ حسناً... (وتوقف لحظة كأنّما يتذكر وأضاف) أنت تعرف عبّاس أليس كذلك؟ لكنك تجهلني أنا؟ ليقم كلّ منا بالتعريف بنفسه. أنا وأنت، أبدأ أنا: أنا منذر بن رابح من العاصمة يمكنك أن تناديني منذر دون لقب، وأعدت خلفه بصوت خفيض: منذر، ووجدت نفسي بعد ذلك أعرفه بشخصي.

ـ أنا أمبرتو مارسيلو بلاتكي، من مدينة سولفرينو، شمال إيطاليا، ونهضت من

الكرسي لأعود إلى القرفصة على السرير، وقاما هما بنزع حذائيهما، والقرفصة إلى جانبي، وألقى اللحاف علينا جميعاً.

كانت ليلة باردة كأدنى ماتكون البرودة، وطويلة إلى أقصى حدّ، رغم أن الفصل مايزال خريفاً فنحن في بداية النصف الثاني منه... كما لم تكن هناك أمطار ولا ريّاح عاصفة، خلال الليل والنهار... ولكنها ليلة شاذة على أية حال.

أسبوع مضى الآن على استقرارهما ببيتي، أسبوع بالتمام والكمال ولاأعتقد أنهما سيغادران قريباً، ولكن هل تناقص خوفي وترددي بعد ذلك؟ مازلت لاأعلم... نعم لاأعلم إلى حدّ الآن، ما أعلمه فقط أن تذكري لجليلة قد خبا، وأن إقبالي على المطالعة والكتابة قد تناقص بشكل ملحوظ.



الفصل الثامن

أقبل نسيم إلى العاصمة في بداية الأسبوع الثالث بعد وفاة بسام عاشور. كان ينوي لقاءه، والحديث معه فيما عرض عليه من طرف الأمين العام للحركة حسني عامر، ما كان يعلم بهذه الوفاة الفجائية، وماكان ينوي لقاء أحد غير بسام، وها قد وجد نفسه مضطراً لمقابلة نافلة، بحث عنها في بيتها فلم يجدها، وتوجه إلى منزل آسيا معتقداً أنها ستكون هناك. فما وجدهما. وأعلم أن آسيا في «المجلة» ولاتعود إلا مساءً، وتوجه إلى المجلة...

كانت آسيا خلف أحد المكاتب، ونافلة تجلس أمامها على أحد الكراسي، ورجل لايبدو عليه شيء من الأناقة، مع بطن مندفع أمامه بفترو، كان يحمل أوراقاً بين يديه ويتحدث بسرعة... طرق نسيم الباب وهمّ بالدخول، فالتفتت الرؤوس الثلاثة إليه، كان معتدل القامة، كثيف الشعر أسوده مع بشرة لطيفة السمرة، وعليه بدلة صيفية، ما إن تفطن لنظرات الرجل الجامدة حتى توقف بمكانه، لايعرف إن كان عليه أن يعود ليقف خارج الباب أو يتقدم إليهم، وعاد الرجل لحديثه المتشنج فختمه بتوصية سريعة، وخرج...

بعد التصافح جلس نسيم على الكرسي الثاني المقابل لنافلة، كانت لاتزال تبدو عليها آثار الحزن والحيرة معاً. جال ببصره في القاعة، والمكتب الذي يجلس أمامه، وأبدى ابتسامة إعجاب، فقابلته آسيا بابتسامة مشابهة ثم سألته إن كان يودّ شرب شاي أو قهوة، فأعرض شاكراً لها كرمها. وبدأ حديثه بتقديم التعزية لهما باعتبار أن ليس له أقارب في العاصمة يمكن أن يتقبلوا مواساته... ثم قال:

ـ الحقيقة أني ماسمعت خبر وفاته إلا اليوم، عندما اتجهت إلى الورشة وجدتها مقفلة والغبار متراكم على الباب فسألت في المقهى المجاور عن السبب، وكانت الإجابة صدمة لي. قلت أيكون قد توفي حقّاً؟! وكيف؟ وسألت ثانية فكانت الإجابة أكثر غرابة من

سابقتها.. ولم أستطع التأكد من أحد آخر... الحقيقة أن بسام كان إنساناً رائعاً، وجريئاً في نفس الوقت، وأتمنى أن يبرز من تلامذتي واحد على الأقل فصيح مثله وجريء، وصادق، وطيب... الأعمار بيد الله على أية حال.

ـ رحمه الله، قالت آسيا.

ـ ولكن الموت لم يمهله....

ـ نعم، حقاً، الموت لايمهل الطيبين.

ـ فعلاً، قالت آسيا.

ـ هل دفن بالعاصمة، أم..

ـ لا لا... نقل إلى المهدية، أقبلت عائلته ونقلته.

ـ لم يتذكروه إلا ميتاً. قالت نافلة.

ـ هكذا الدنيا سي نسيم، واللحم لايخون بعضه حياً وميتاً.

ركزت نافلة النظر على نسيم، وعلى حركاته البسيطة، بدت معجبة به ثم كأنها تشتهيه، وتفطن نسيم إليها متلبسة، كانت آسيا تراقب الاثنين معاً، وهي تخطّ على ورقة بيضاء أمامها، أشكالاً وكلمات متفرّقة، عندما رآها نسيم تفعل ذلك، تذكر أنه لم يسألها عن هذه الوظيفة الجديدة فقال:

ـ المعذرة آسيا، فما سمعته عن بسام، أنساني تقديم تهانيّ لك بهذه الوظيفة.

ـ (ابتسمت) شكراً جزيلاً... الحقيقة، مازلت أكوّن خبرة، فلم ينزل أي مقال بإمضائي إلى حدّ الآن.

ـ أتمنى لك النجاح والتوفيق على أية حال.

ـ شكراً... المجلة، لازالت فتية، فلم يمض على تأسيسها أكثر من شهرين وثلاثة أسابيع.

ـ يبدو أنها ستكون ناجحة، ورائدة أيضاً.

ـ نتمنى ذلك...

ـ الرجل الذي وجدته هنا، زميل لك؟!

- هو رئيس تحرير المجلة، أمضى جزءاً مهماً من حياته العملية في شرق أوروبا والصين، هو أيضاً إنسان طيب، ومجتهد.

- يبدو ذلك!..

والتفت إلى نافلة فوجدها تنظر إليه بعينين حالمتين، وكأن لمحة الحزن التي وجدها فيهما عند الدخول قد امّحت تماماً، وبسرعة تبعث على الاستغراب. فلم يحاول إمهالها، حتى لايسوء الوضع وأسرع يطرح موضوعه دون مقدّمات..

- كنت في طبرقة منذ ثلاثة أسابيع، أطلب شيئاً من الراحة، والاستجمام، محاولاً الاستعداد لبداية السنة الدراسية الجديدة، وفاجأني ظهور حسني عامر هناك... لم يخبرني بوفاة بسام.

- حسني غاب عن العاصمة قبل وفاة بسام، ولم يظهر إلى الآن... قالت آسيا.

- ليس هذا الموضوع، إنما ما أثار استغرابي وحيرتي معاً أنه طرح علي مسك الأمانة العامة للحركة، فرفضت، وألحّ... ومضى إلى عنابة، دون أن يسمع مني موافقة أو رفضاً قاطعاً، وقد جئت اليوم إلى العاصمة لاستشارة بسّام، ووجدت أنه قد لحق بجوار ربه.

استمعتا إليه مندهشتين... تغيرت نظرات نافلة الحالمة، وتغيرت نظرات آسيا الرصينة، لتتحدا في الدهشة.

- حسني طلب منك ذلك!؟ ولماذا؟!

- لأنه أحس بالتعب ولم يعد قادراً على التسيير كما قال.

وسمع رئيس التحرير شيئاً من الحوار وهو في مكتبه، فأسرع إليهم. وقال بصوت فيه الكثير من الحزم:

- آسيا. أرجو أن تكوني على علم بما سأقول مرّة وإلى الأبد... المجلة ليست حزبية معارضة، ولاسياسية... هي مجلّة، يأكل الخبز من ورائها عدد من الأسر، ولايتمنى بل، ولايريد أحد لها الوقوف.

أحس الجميع بالغيظ ينعقد في صدورهم، ووجدوا أنفسهم مجبرين على الصمت، وخرج رئيس التحرير من المكتب، وبعد وقت قصير خرج نسيم وخلفه نافلة وقد أعلما آسيا أنهما سينتظرانها بمقهى «نزل أفريقيا»، وبقيت آسيا خلف مكتبها تحاول تنظيم

أفكارها. ما إن تواريا حتى عاد رئيس التحرير من جديد إلى آسيا، وبصوت هادئ مشحون بنزعة من الطيبة قال:

ـ أنت تعلمين الوضع السياسي، والأمني في البلاد، هذه الأيام، فأنت صحفية الآن، وتعلمين ما تعانيه الصحافة، كما المعارضة تماماً. تغرّب المؤسسون في أنحاء العالم من أجل جمع الأموال وتكوين الخبرة لتأسيسها، فهل نرمي بكل ذلك العناء، والتعب بين يدي الأمن فيرتقي واحد منهم أو بعضهم درجة، ويزجّ بنا نحن في السجون كالخنافس...

ـ ولكنّا لم ننشر شيء، وماتحدثنا فيه هو بمثابة شأن عائلي، فقد كنا ننتمي لحركة ثم انسحبنا منها، ولانريد الانتماء لا لها ولالغيرها من جديد. يا آسيا. أنت مثقفة، وذكية ولذلك اخترناك من جملة المتقدمين للوظيفة، وأحسبك الآن ابنة أو شقيقة لي وإلا ماكنت أتحدث إليك بهذا الأسلوب...

ـ شكراً جزيلاً على أية حال.

ـ أرجو أن تكوني قد فهمت قصدي كما هو، واقتنعت به.

ـ أشكرك من جديد على عطفك، وسأحاول العمل بما قلت.

ونهض خارجاً، وماكان يصل إلى باب المكتب حتى التفت إليها وقال مبتسماً:

ـ يمكنك أن تلحقي بهما، ولكن كوني حذرة!

كانت الساعة تقترب من الرابعة عندما خرجت آسيا من الجريدة، وكانت وجهتها «نزل أفريقيا». بحثت عنهما في المقهى فلم تجدهما سألت النادل فقال أنهما توجها إلى منزل نافلة، وسارت آسيا إلى الوجهة المذكورة، فلم تجدهما، وترقبت هناك إلى حدود الخامسة فلم يأتيا، عادت مرة أخرى إلى النزل، وسألت النادل ذاته، فقال لها بأنهما أقبلا مرة أخرى وأوصياه بإخبارها بأنهما سيكونان بالمطعم الصيني في حدود الخامسة والنصف، واتجهت إلى المطعم الصيني، فوجدتهما لايزالان أمام الباب، دخلوا جميعاً.... كان المطعم «بديكوره» يختصر التراث الديني والفن الشعبي معاً، مع الهدوء القاتل المخيم فيه، جلسوا حول طاولة قصية، وطلبت آسيا من نسيم أن يتمّ حديثه الذي لم يكتمل بالمجلة.

ـ كما ذكرت قد ألحّ عليّ حسني لتحمّل هذه المسؤولية، وأنا في الحقيقة لاأستطيع،

فالسنة الدراسية لم يبق على انطلاقها إلا أسبوع واحد... ثم هذه الحركة سالبة منذ تأسيسها كما قال بسّام... وليس من السهل أبداً إعادة تنظيمها...

ـ أنا مقتنعة بما قلت تماماً، قالت آسيا، فالحركة، فعلاً سالبة، ولم تحقق شيئاً، ولاأحد يعتقد أنها ستتصلح في المستقبل....

ـ فكرت في الانسحاب كما قلت قديماً، ولكن..

ـ أنا أساندك في هذه النقطة أيضاً، سي نسيم، قالت نافلة، ولكن دعني أسأل لماذا لم يختر سواك من بين جميع الأعضاء؟

ـ قال أنهم لايتمتعون بمواصفات العمل القيادي.

ـ مواصفات!!

ـ نعم، أقصد أنهم سيتناحرون،

ـ كيف يتناحرون، وهم مجتمعون من أجل الضغط؟ قالت نافلة.

ـ قد رأى في شخصي مايمكنهم من اتباع المسار الذي يريده... ربما هم... لست أدري مايقصد بأنهم غير قادرين؟!!

ـ الحقيقة ليس لي إلا أن أحذرك من حسني هذا، ومن كافة أعضاء الحركة فنحن خبرناهم، ورأيت أنت مافعلوه بسام... فهم لم يتحوّلوا إلا وحوشاً... هم أشدّ ضراوة.

ـ أتظنين هذا؟؟

ـ هذا رأيي على أيّة حال.

ـ فعلاً...

والتفتت إلى نافلة فابتسمت، كأنها لم تكن في هذا العالم... إن شردت بذهنها بعيداً.

ـ هل أنت متفقة معها؟!

واقتربت منه قليلاً. ثم أضافت.

ـ دعنا من الهمّ السياسي الآن لنتحدث عن شيء آخر...

ـ عن ماذا؟ الرياضة! أنا لاأفهم فيها، ولست مغرماً بها..

- ومع ذلك تبدو قوياً، و...

- .....

بعد العشاء رغبت نافلة أن يعود نسيم معها إلى البيت، وطرحت آسيا مشروعاً آخر يتمثل في الذهاب إلى «المناج» وقضاء بعض الوقت هناك، ثم العودة..

في الصباح أحس نسيم أن نافلة تريد منه أكثر مما يريد.. فهي تحاول الاقتراب منه بشكل غريب ومثير، كأنما تعلقت به.. أو تحاول أن تجعله مرادفاً لبسام، فهي لاتنفك تنظر إليه، ثم تستدعيه لبيتها، وتبيت إلى جانبه، وتحاول أن تشدّ انتباهه لا كعشيق، أو حريف... ولكن بشكلا لايستطيع تصوّره... وهوّ الذي عزف عن الزواج، والنسوة منذ سنوات الجامعة.... كانت لاتزال نائمة عندما نهض وأعدّ القهوة، وارتدى ملابسه... أكل ما تقبلته نفسه من الإفطار وهو يفكر... نظر إليها قبل المغادرة بدت سعيدة رغم استغراقها في النوم، كتب رسالة قصيرة نصها مايلي:

* * *

«أعترف أنّ النوم إلى جانبك لايجعل الإنسان يغطس في واقعة الحالم، والحارّ فقط، وإنّما يرحل به عبر الآفاق، اعذريني، أنا مضرب عن الزواج والنسوة، وعن السياسة، والآن عن زيارة العاصمة مرة أخرى.

لك تحياتي. نسيم».

سقطت الورقة من بين أصابع نافلة على الطاولة، كورقة من شجر التوت «من قال أني، أرغب...» تداعت على الكرسي..تساقطت الأدمع من عينيها بصمت... هل أنا نحس على نفسي إلى هذا الحد، لا عائلة، لازوج يصل به العمر لارجل يسدّ الفراغ... لاموقداً للشمع، لامخمداً للنار. لماذا أعيش، وكيف لي أن أكون بعد هذا... كيف لي كيف..

- كيف! كيف!

«اللعنة، والتعاسة، والشقاء!... من السماء أم من الأرض».

انتفش شعرها أكثر، واسوّد محجرا عينيها من أثر الدّموع، وظلت على تلك الحال ساعة من الزمن.

مع تقدم الأيام ازدادت أجواء المنزل تغيراً، فقد أضحى الأثاث، وكامل «الديكور» ميتاً، لامعنى ولانكهة، ولاجمال فيه، كقطع من الصخر ملقاة على شاطئ بحر هادر... مالت الصور المعلقة في أماكنها، واتضحت عتاقة الأثاث وانفصال بعض أجزائه عن بعضها الآخر. وتراكم الغبار على كثير من المنسوجات... حتى كأن الحياة هاجرتها منذ قرن أو يزيد، وظلت نافلة غير عابئة، به، وبحياتها، هاجرتها معاني الوجود، وانسدّ الأفق أمام عينيها...

* * *

على أريكة من بين مجموعة من الأرائك تجلس نافلة، أمامها على الجدران صور رخيصة... وستائر في ناحية أخرى من الغرفة تتدلى..

ـ أشعر بأن هذا اليوم ليس كمثله من أيام حياتي الماضية، قالت، ماذا يعني الانتقال من البؤس، واليأس، إلى الأمل، إلى الحياة، ماذا يحدث لشخص مثلي يبصر كوّة من النور في كون من العتمة، ستكون الحالة كذاك التشبيه السقيم غريق يتعلق بقشة... تسخر من كلامي!... اِسخر، ولكنني لاأملك إلا أن أقول ماأشعر به... لست لي قبل الآن. وربما لاتكون كذلك في المستقبل، وإن كنت أتمنى عكس ذلك ولكنني متأكدة أنك الآن لي، ولعلي، أجرأ على قول أنك ملكي..

ـ إني خائف من شيء...

ـ أنت خائف... خائف، ولكني أحس بشجاعة.

ـ شجاعتك لاتزيل خوفي... بل إني خائف... وشجاعتك هي المؤججة له.

ـ إني لاأودّ الحديث عن الخوف... إني صرت أكره الخوف.. آه الخوف!... (صمتت لحظة ضربت بقعر الكأس على راحتها، وهي تنظر فيه، ثم رفعت رأسها كالمنسية، وحدقت في دخان سيجارته، وأضافت مسرعة...

ـ هل تعلم؟!.. من شدّة معاشرتي للخوف واليأس صرت لا أفرّق بيني وبينه في بعض الأحيان أقول: من يكون الخوف أنا، أم هو؟! اقتنعت أني أنا التي أصنع الخوف، أنا الخوف إذاً! لو قلبت الصورة سأكون أنا من يصّنع الشجاعة وبالتالي أنا الشجاعة.

يستمع إليها، وظفر ابهام يده اليمنى الممسكة بالسيجارة بين أسنانه، كان يجلس على كرسي عادي قبالتها، ولايزال بملابس العمل الرسمية، عيناه تحلقان من حين لآخر

في الفضاء الذي ألفه، كانت نافلة قد ولجت الصمت، وراحت ترتشف الكأس الأولى التي ملأتها، كانت عيناها مشرقتان، وبين شفتيها ابتسامة غريبة، مدت له الكأس المملوء منذ حين وقالت:

ـ اشرب... لننسى الخوف.

ـ شكراً...

ـ هناك ماهو أهمّ.

مسك الكأس وابتسم، مشى بضع خطوات في الغرفة، يردد لنفسه «هناك ماهو أهم» توقف أمامها، مسكها من يدها لتنهض فاستجابت.

ـ هل أنت راضية؟!

ـ الصمت مملّ، الحياة صخب، ولعلّها، في أغلب الأحيان صمت، صمت مقيت، أنا لأحب الصمت.

ـ...... ابتسم.

ـ سنسكر الليلة، قالت، أعتقد أنك لاتعمل غداً.

ـ أنت تتقنين كل شيء حتى...

ـ ليس صحيحاً.

نظر في عينيها كالمكذب لما تقول، فاستدركت.

ـ قد يكون، ولكن ما أعلمه أني مثقفة، والمثقفون لايحسنون شيئاً، حتى الحياة لايتقنونها، فهم كالمر ذولين

ـ العالم مليـ...

ـ أنا لاأتحدث عن العالم، ولاعن مثقفي العالم... إني أتحدث عن مثقفي هذه الأرض. ألا تعلم أننا هنا؟! وأننا غير مسؤولين عمّا يقرر، في واشنطن، أو طوكيو، قد يحسنون هم ذلك، قد يكونون سعداء، حتى قبل أن يولدوا...

ولكن ماذا يمسّنا من سعادتهم أو اتقانهم، غير المقارنة والعناد ووجع الدماغ. ألسنا عند ذلك كمن ينطح جداراً.

توقف عن الدوران داخل الغرفة، وفي تلك اللحظة قالت.

ـ اشرب هذا أفضل.

ـ نعم أفضل...

وسكب ما في الكأس دفعة واحدة في جوفه، وجلس، وجلست حذوه، وحدقت الأعين في بعضها البعض. وسار كل منهما يسبح في خياله أمام عيون الآخر... اقترحت عليه أن يستمعا إلى شيء من الموسيقى، فاستجاب، اقترب من خزانة الأشرطة، وجعل يقلب محتواها ويتلو ماكتب عليها أو ماجادت به قريحته من الأوصاف:

ـ موسيقى سعيدة، موسيقى نكد ومآسي، موسيقى شعبية، كلاسيك، رومنسية... أم كلثوم، عبد الحليم، أديب الدايخ... نجاة الصغيرة...

وضع الشريط في آلة التسجيل وضغط على أحد الأزرار فانسابت موسيقى ممزوجة بصوت نجاة الصغيرة «فوسط الطريق»، وأقبل نحو نافلة ملأ الكأس بنفسه، وجعل يرتشف منها، بينما كانت هي تسبح مع صور الماضي، بسام، ونسيم... فكر في تلك الأونة أن يفسّر لها مخاوفه التي أشار إليها في بداية السّهرة... همّ ببداية الحديث ثم تراجع...

مع انتهاء السهر، والاستلقاء على السرير ثنى ذراعيه خلف رأسه وجعل يحدّق في صورة معلقة على الجدار قبالته. تحمل مجموعة من الخيل بعضها يركض وبعضها الآخر يشرب ماء أو يتقدم إليه، بينما كانت نافلة تنظر في عينيه والنوم يكاد يأخذها إليه. وفجأة التفت إليها، ومسك عاتقها براحة يده وقال دون تقديم:

ـ إني أخدعك.

انتبهت، الصراخ يقوّض عينيها، هدأت لتقول.

ـ أنت تقول أي شيء.

ـ صدقيني إني أخدعك.

ولكني أؤمن بك.

سحب يده وأعادها كما كانت، وأضاف بصوت أقلّ حدّة.

ـ كان ينبغي أن أقول لك ذلك، أن أحذرك أن أنبهك، أنا لاأعلم ما دفعك لهذا

الطريق، لهذه الأرض المهلكة حتى تسيري فيها، قد أخبرتني بنتف من ماضيك وأعرضت عن الباقي بدعوى أنك لاتشائين ذكره، أو تذكره، أخاف عليك على أية حال، ليس لأنك تحبني، وإنما لما فيك من الإنسانية، أخاف عليك من الهلاك نعم الهلاك.

ابتسمت.

- نم، نم، فمثلي لايهلك بسهولة والشقاء قد سرى مع دمه في كل خلية.

التفت إليها من جديد:

- أنا لم أشرب كثيراً. وأنت كذلك على ما أعتقد، فكلانا لايزال يعي، مايقول ومايسمع، اسمعي: لعلك لاتعلمين أني لاأحبك، ولا أكرهك أيضاً. فأنت بجانبي الآن كالبضاعة التي يقتنيها أحدنا لأنه يجب أن يستهلكها، أو كالوظيفة التي يشغلها ولايميل إليها، أنت كهذه الأشياء التي ذكرت، حاجة، نعم حاجة ليس أكثر...

- كم أنت تعيس، وهبتك ثقتي وإيماني، ونفسي بصمت، ولكنك لم تشأ، لم أطلب منك غير لحظة من السعادة، وإن كانت مزيفة، ولكنك شوّهتها. منحتك فرصة حتى لاتقع في الخطأ ولكنك لم تشأ... حطّمت نشوتي، لماذا لم تستجب لماذا؟! إنك تشقى... وإني أشقى أكثر. نم... نم، قد يكون في الغد أمر آخر، إني صرت مرهقة أكثر ممّا ينبغي، وإن واصلت، ستنقض سكري، ولحظة سعادتي...

صمتت، وصمت هو أيضاً، ولكنه بقي يتخيل خيول الصورة تركض بسرعة أكبر...

نهض باكراً في الصباح الموالي، كما لو كان سيقصد عمله... لم يوقظ نافلة، أعدّ لنفسه قهوة، غيّر ملابسه. جلس على كرسي خشبي في الفسحة الخلفية، وضع كأس القهوة على الأرض قريباً منه، أشعل سيكارة، وبقي يدخّن...مرّت ساعة من الزمن ولم يغادر مكانه، كان يفكر في وضع نافلة، في ماضيه قبل أن يلتحق بالشرطة، في سنوات الدراسة: عاوده صراخ لم يتبين صاحبه ولاسببه، «لماذا... لماذا... أرجوك... أتوسل إليك... لاتفعل ذلك...» كان يحمل كراساً تحت إبطه في تلك الساعة ويسير بين أشجار السرو، قد أكمل مراجعة الدرس، وحفظ ثلاثة عشر بيتا من شعر المتنبي وهو الآن ينوي القيام بدورة قصيرة في المكان، يسرّح البصر في الأفق البعيد... ثم يعود إلى منزل أهله بالقرية، ولكن الصوت أثاره، جعله يفكر في البحث عن صاحبه، والاطلاع عمّا يجري

قريباً منه، فأخفق، وبقيت الكلمات تعاوده بين الحين والآخر في الفصل، في المنزل، وهو بين أصدقائه، في أحلامه... جعلته يشرد، حتى ينسى المكان الذي يوجد فيه أحياناً...

أقبلت نافلة تتثاءب، اتكأت على الجدار قريباً من أمين، حيته بصوت متهدّج:

- صباح الخير.

- صباح الخير.

- أرك نهضت باكراً.

- قبل ساعة تقريباً.

تركته، وتحوّلت إلى الحمّام. ارتشف من القهوة، واعتدل في جلسته، أحس أنه يفكر في أشياء عديدة أو يتخيلها، ثم إذا أراد حصر واحدة منها لايجد شيئاً، ارتعد في مكانه كأنّما هبت عليه ريح باردة، نهض، وسار إلى النافذة بقاعة الجلوس، فتحها وبقي ينظر في الطريق، كانت نافلة لاتزال في الحمّام، تحدّق في بشرة وجهها، وعينيها وفي حاجبيها، ومن حين لآخر تضغط عليهما...

قد أصبحت العاطفة باردة، باهتة، لايعتريها تشنج، أو تدفق من كليهما الكلمات مقتضبة والأسئلة شاحبة، ركيكة، خرجت من الحمّام، وعندما لم تجده في مكانه أسرعت تبحث عنه في الداخل، منكب على حافة الشبّاك، يدخّن، ويحلق في الطريق، ودون أن تقترب منه قالت:

- سأرتدي ملابسي، وأعود إلى بيتي، إلى وحدتي.

ولم ينبس بحرف واحد، ولم يلتفت.

الآن وهي تفتح الباب استعداداً للخروج، أطلّ هو من القاعة دون أن يتغير شيء من ملامح وجهه، مشى خطوات في اتجاه الباب فأصبحت هي في الخارج، شرعت في غلقه ولكنها توقفت، لقد خطر بذهنها سؤال، فأسرعت تبسطه.

- إني لم أسألك عن السبب وراء عدم زواجك إلى حدّ الآن؟

وعادت لتدخل من جديد. وفي عينيها علامة استغراب، وهي تضيف.

- إني أقبلت إلى هنا، وبت معك ثلاث مرات في ظرف أسبوعين، وهذه المرّة الرابعة، ولم يخطر ببالي هذا السؤال إلا الآن. هل تجيبني؟!

واستدار سائراً إلى الداخل فتبعته..

ـ لأعرف... لم أفكر في ذلك... ولم أطرح على نفسي هذا السؤال إلى حدّ الآن.

ـ ولكن كان ينبغي أن تفكر في ذلك.

وعاد مرّة أخرى ليقف قريباً من النافذة، وينظر في الطريق، ويشعل سيكارة، وينفث دخانها، ويغرق في الصمت.

ـ ولم أسألك من أي جهة أنت، أقصد هل أنت من الشمال، أو من الساحل... أضافت بعد حين وكأنها تطالب بحق لها، استولى عليه غيرها، ولمّا لم يجب انصرفت مغادرة، عندما كانت تبتعد في الطريق، وتحت أنظاره، قال بحزن

ـ يجب أن نلتقي في مساء يوم آخر... قريب.

ارتعدت وهي تستمع إلى كلماته، ومع ذلك فقد اكتفت بالتفاتة بسيطة.

* * *

ـ لست أدري!... ولكني لست متحمّسة للحديث، وخصوصاً معك...

ـ لايهم... ولكن هل سترافقينني..

دعست شيئاً بمشطة ساقها... رفعت رأسها إلى السماء، ثم أرسلت بصرها إلى الناحية الثانية من الطريق.... مختار عيسى جالس على أحد الكراسي أمام المقهى، وآسيا صراف تتحدث معه، وإلى جانبها خديجة بوراوي... أحست نافلة بارتفاع الحرارة في نصفها الأعلى... لقد مضى مايزيد عن الأسبوع دون أن تلتقي بواحد منهم، فكرت في الهروب وفي التوجه إليهم، في مواصلة طريقها والعودة إلى بيتها وكأنها لم ترهم، فكرت في استدعاء أمين ليتوجه معها إليهم... الف خاطر ينقدح في ذهنها دون أن تدري أيّها تختار... أبطأت في السير... بإمكانها أن تعود بإمكانها أن تقف إلى جانبهم جميعاً، ولكن ماتراها تقول لمختار، وماذا تراه يجيب؟!! أمين إلى جانبها، يسأل يجيب، يبتسم، يضحك، لاتسمعه، الفوضى في دماغها تعزلها عن العالم الخارجي... أخيراً أفاقت من شرودها، التفتت إليه:

ـ مازلت هنا؟!

ـ نعم؟!!

ـ لاشيء!

ـ قلت شيئاً، دعيني أسمعه.

ـ لاشيء. أرجوك. كفى.

ظلا يسيران معاً دون أن ينبس أيّ منهما بكلمة. ودون تحديد الغاية التي يتّجهان إليها.

وصلا إلى حديقة الحبيب تامر دخلا من الباب الشرقي، وعند رؤيتها لأوّل مقعد شاغر أسرعت لتجلس عليه، فتبعهاأمين، وجلس إلى جانبها... صوَر... وأحداث، وذكريات ماضيها تتزاحم أمام عينيها، والدها الأسمر القصير، والدتها، خروجها لآخر مرة من منزل عائلتها، شقيقتها التي لاتعلم عنها غير القليل القليل... بسّام يصعد الدرجتين في ساحة الكلية: «الزملاء، الحقوق لايمكن التفريط فيها بسهولة، من فرط اليوم في حق يعتقد في ضآلة أهميته، غداً... غداً يفتك منه عنوة، وأمام عينيه، أعز، وأعظم حق لديه... غداً يكون الباغي أكثر شراهة ورغبة في حقوقكم الأكثر أهمية.. فانتبهوا... انتبهوا.. وكونوا كل يوم، بل كل ساعة ولحظة يقضين... «إني بحثت عنك في كل مكان في بيتك في منزل آسيا، في شوارع العاصمة... خلت أنهم اختطفوك... هل اختطفوك؟! كدت أجن... وجدت نفسي تحت صور الجلاّز.. انتقل إلى جنوب العاصمة»...

«السيدة المحترمة، زوجة محمود بن حازم»، لم تعد زوجة، تحوّلت إلى أرملة، من جديد ورقة أخرى، وخطّ جميل، «السيدة المحترمة، أرملة محمود بن حازم» مات محمود في حادث أليم، مات بسّام في حادث غريب، لم تره قبل الدفن، ليست زوجته، ليس قريبته، غريبة عنه... قريبة منه... نسيم ينسحب كالظلّ يترك ورقة، يمضي ولاينوي العودة.

إلتفتت إلى أمين، ينفث الدخان ولاينظر إلى شيء، أو إلى ما يقع أمامه من أشياء، «وهذه حمولة جديدة. لاشيء يدفعها إلىّ غير الحاجة»... فكرت في تناول السيگارة من بين أصابعه لتتمّها هي، ثم عدلت... «أنت مدخّن كبير»...

عاد أمين للحديث بصوت شبه مرتفع، وعادت هي إلى محادثة نفسها بصوت منعدم ولا أحد منهما يسمع الآخر لا أحد يعلّق على أقوال الثاني كأن جدراناً عازلة أقيمت بينهما، قالت نافلة: كما يركض الزمن، كما تركض الخيل في الفيافي... تتغير

الأشياء، والأفكار والرغبات، ربما يتشوّه الجسد، أو الفكرة، أو الرغبة، وربما جميعها في آن واحد لاشيء يقنع بالثبات، حتى الموت، لايقنع... شعرت بارتعاشة في رغبتها، ورأسها، كأنها بفعل دفعة خفيفة من الخلف، التفتت إلى أمين فإذا به ينفث الدخان بقوّة ويقول:

ـ... وعند ذلك لاتستقرّ في جيب واحد وإلى الأبد، فهي في دورة دائمة... لم تدرك نافلة عن ماذا يتحدث، ربّما عن الأموال!، ربّما عن شيء آخر؟! ولكنها الآن لاتشاء معرفة هذا الشيء، قاطعته، دون توطئة:

ـ هل ترغب أن نعود إلى بيتك.

توقف عن مواصلة حديثه وقد اكتشف عدم اكترائها بما يقول، حدّجها بنظرة احتجاج ثم سأل:

ـ ولماذا؟!

ـ معناه أنك لاترغب في العودة.

ـ لا ولكن... يعجبني الخريف، أحسّ بحرية الطقس فيه... وبهذه السنة خريف هادئ يمرّ، الأوراق تسقط دون دحرجة، الأشجار تعرى وكأنها من تلقائها... الشمس حارّة دون مواراة... هل يحبّ غير هذا الطقس شخص مثلي؟!

ـ تعبت من الحركة الخاوية... من الخريف... من الصيف... أرغب أن أستريح...

ـ كنت أودّ أن نتأخر بعض الوقت، كأنك لاتودين ذلك...

ـ فعلاً لاأودّ. ولكن بإمكانك أن تبقى، سأغادر لوحدي.

* * *

وصلت إلى المقهى. توقفت في المكان الذي شاهدت فيه آسيا ومختار، وخديجة، بحثت بعينيها إن كانوا لايزالون موجودين هناك... لاأحد منهم حتى مختار غادر المكان، لم تستطع أن تتكهن أين يمكن أن يكونوا. التفتت، حملقت في خزائن العرض التي بجانبها، تقدمت خطوات على الرصيف ثم عادت يجب أن تتجه رأساً إلى بيتها، لتعد إلى صمتها، إلى وحدتها، فالحياة لاتشاء الابتسام لها، معرضة عنها، عن أفكارها، عن مشاعرها، لتعد... لتعد...

دخلت الغرفة، الغبار يتراكم باستمرار على كل شيء، حتى على روحها التي بين جنبيها، استلقت على السرير، وضعت الوسادة على عينيها... رائحة الرطوبة، والغبار رائحة الأواني المستعملة في المطبخ، رائحة الشياط من المرحاض، رائحة جسدها رائحة ملابسها الداخلية، الهواء الميت داخل الغرف... يعكر المزاج أكثر... يسدّ الأنوف... ومع ذلك فقد اعتادت عليه... قدرتها على الشم انمحت... كما تنمحي رغبة إنسان، وحبّه للحياة...

عادت ذاكرتها إلى الماضي البعيد تنبش، تنبش في مفاصل العلاقات داخل العائلة، تنبش في التفاصيل... لم تر والدها يتبسم يوماً، لم تر والدتها تنبهها لخطر ما يوماً... لأحد يسأل عن الآخر... لأحد يحب الآخر أو يكرهه، عائلة خلقت من ثلج أو من رماد. نحّت الوسادة عن وجهها، ونهضت لتجلس على حافة السرير... الصورة على الجدار مائلة، وخيول تشرب ماء، والماء لاينذلق رغم ميلان الصورة، ابتسمت نافلة. وهيّ تتأمل المنظر... ثم وهي تتذكّر بسام، «أنت كالفرس...» بسّام مضى ولأحد غيره يقوم بالتعويض... لأحد يريد، أو لأحد يستطيع..

انتبهت على طرق الباب... لاتترقب أحداً، ولأحد فعل ذلك منذ أسابيع خلت تباطأت في الفتح... لكن الطرق لايشاء الإنقطاع كأن الطارق يعلم بوجودها... فتحت الباب، كان أمين واقفاً. لم تدعه للدخول سألت:

ـ أأنت! كيف عرفت العنوان؟! ولماذا أتيت.

ـ أمّا العنوان فأمر الإجابة عنه سهل نهضت بعدك.. وسرت خلفك، توقفت بوسط شارع الجمهورية، بنفس النقطة التي توقفت فيها سابقاً. ثم عدت إلى هنا، وظللت أسير خلفك... ظننت أنك ستخرجين بسرعة ولكنك أبطأت الواقع أني خفت من وقوع شيء ما، وأنا شرطي كما تعلمين، فبادرت بالطرق للإطمئنان، أمّا لماذا أتيت، الحقيقة أني لاأملك إجابة على هذا السؤال ربّما رغبة مني في تغيّر الجوّ الذي يحيط بي، ربّما لأنه ليس لديّ ما أقوم به في هذه الساعات، وربماأيضاً رغبتي في معرفة بيتك الذي تقطنينه... الحقيقة لاأعلم أيّاً من هذه الأسباب هو الدافع الحقيقي...

ـ حسناً، أشكرك، ومع السلامة.

ـ فقط؟!

- فقط.

- حسناً، مع السلامة...

واستدار عائداً وأغلقت نافلة الباب، وعادت لتستلقي على السرير. وماكادت تمضي دقيقة أو دقيقتان حتى انتفضت واتجهت إلى الباب جرياً، فتحت وأطلت، كان أمين في آخر الطريق، نادت بصوت مرتفع، مرتين، فالتفت وتوقف، ثم عاد إليها.. نظرت إليه مبتسمة، ودّ لو يستطيع معانقتها في تلك اللحظة كما في الأفلام... سألته من جديد دون أن تدعوه للدخول:

- لماذا أتيت خلفي؟ هل اكتشفت أنك تحبني حقاً؟

- (صدمة السؤال... لايملك له جواباً هذه الساعة... هل يحبها... وكيف له ذلك... كيف يجيب وقد قال لها سابقاً أنّها ليست أكثر من بضاعة بين يديه) لاأعتقد.. حقاً لاأعتقد... أتصوّر أني أخطأت..

واستدار عائداً... ولم تنبس نافلة بحرف واحد إثر ذلك...

لمّا ابتعد أمين، جمعت نافلة حاجتها، وأغلقت الباب، ومضت إلى أحد الهواتف الآلية، أدارت رقم هاتف آسيا «بالمجلة»:

- آلو... آسيا؟ أنا نافلة.

- أهلاً بك... أين أنت؟!

- في الطريق العام؟

- أقصد أين كنت، مضى وقت طويل لم تزرني فيه، ولم تسألي عني...

- حسناً، سأفعل الآن.. هتفت إليك ولا أعلم إن كنت موجودة بالمجلة أم لا... هل أن خديجة معك الآن؟

- كانت معي قبل الثالثة، ولكنها لم تدخل المقرّ، قالت أنّ لديها حاجة ستقضيها، لماذا؟

- أسأل فقط... هي أيضاً لم أرها منذ فترة... إلى اللقاء الآن.

ولم تتجه نافلة إلى مقر المجلّة. كما أخبرت آسيا بذلك، حيث غيّرت رأيها مباشرة إثر خروجها للطريق، واتجهت إلى بيت أمين، وقفت لحظة أمام الباب قبل أن ترفع يدها

لتضغط على الجرس... ترددت، تمنت أن يكون في الداخل ولم يتجه إلى مكان آخر... رفعت بصرها إلى السماء... حاولت الانسحاب.. لم تستطع... ضغطت على الجرس لم يقبل أي صوت من الداخل... أعادت مرّة أخرى، وأخرى... شعرت بالارتباك يتملكها... قررت الانسحاب استدارت وتقدمت خطوات ثم عادت لتضغط على الجرس من جديد، انفتح الباب بسرعة هذه المرة، نظرات أمين تقع عليها كشلال من الماء البارد...

ـ أعلم أنك ستأتين، ثم رأيتك وأنت تمرين... وسمعت الجرس...

ـ دون إرادة مني... أقصد أني لم أفكر في القدوم.

ـ حسناً... لن أقول لك مع السلامة... فقط أترك لك الخيار بين الدخول والمضي....

دخلت نافلة، وجلست على أحد الأرائك، وجلس أمين قبالتها، أخرجت سيگارة من حقيبتها، أشعلتها نفثت دخانها إلى أعلى. ثم قالت:

ـ مثلك... أخبرك أني أدخن مثلك.. مع فرق بسيط، شاسع، أنت تدخن منذ سنوات، أمّا أنا فمنذ أسابيع فقط ربّما لم تشاهدني أفعل ذلك قبل الآن ولكن... يقولون التدخين مضرّ بالصحة، وزارة الصحة هي من توصّل إلى هذا الاستنتاج، وهي من فرض التنبيه إلى خطورته.

كان ينظر إليها بشي من الانشداه، والاستغراب وهي تتكلّم، ثم وهي تسحب أنفاساً متتالياً... ودون أن يقول كلمة واحدة نهض واقفاً، فواصلت هي الحديث:

ـ لم تجبني عن سؤالين في المرة السابقة: سوف لن أعيد أياً منهما على كل حال... سأعتبرهما، تفاهة، التفاهة تبدد العمر... أنا مثلاً عمري بددته التفاهة.سوف لن أعيد أي سؤال، الناس يطرحون عدداً كبيراً من الأسئلة، ولايجيبون عنها، ولعلهم يحاربون طرحها جاهدين، أنا مثلهم ليس فقط لأن الأجوبة تكون كنصل المقصلة، ولكن لأنها تعرضني على التفاهة من جديد...

أفاق عند هذا الحد من قولها، فنهض وجلس بجانبها، شبك أصابعه بعضها بالبعض الآخر، أغمض عينيه وعبّ كميّة من الهواء انتفخ لها صدره، قال وكأنه يريد أن يضع حدّاً لحديثها:

ـ أعتقد أنك مجنونة... أو... قحبة متمرّسة بمن هم مثلي...

ـ وربّما أكون ذكية إلى الحدّ الذي جعلني أتوصّل إلى رأس الجواب الذي تخفيه بين جنبيك.

ـ أنتنّ النسوة.

ـ وأنتم الرجال.

ـ ما رأس الجواب الذي توصلت إليه؟!

ـ وهذه بلادة ذهنك ميزتك، أقصد ميزة أمثالك... أجبني هل لديك شراب... رجال الأمن دوماً لديهم: في كثير من الأحيان لايدفعون شيئاً... لأنها الهدايا، والهدايا لايقبض ثمنها.

اتكأ إلى الخلف ثانياً ذراعه تحت رأسه، نظر في السقف، السقف أبيض لامع... والضوء يخترق شاش النافذة فيضفي على القاعة طقساً سحرياً رائقاً...

ظلت صامتة بعد ذلك إلى أن نهض وجلب من الثلاجة زجاجة من الخمر الرفيع، وضعها على الطاولة، ووضع إلى جانبها كأساً واحدة ثم جلس إلى جانبها من جديد.

ـ هذه زجاجة، ماتزال مختومة...

ـ وكأساً واحدة! كأنك لاترغب في الشرب.

ـ فعلاً... ربّما لأن الساعة لم تحن بعد...

ـ سأشرب ولايهم إن توفر ثلج أم لا. إن تقطعت أوصالي أم لا، لا أرغب في نفسي هل تعلم؟!... لاأستطيع فتحها، إفعل أنت، ها قد انفتحت...

ـ قبل أن تشربي أجيبيني، لماذا اقتربت مني، ولماذا عدت؟!

ابتسمت... ثم قهقهت، أخرجت مرآة من حقيبتها، نظرت في وجهها، ضغطت بإصبعها تحت عينها اليمنى... كأنها تودّ تفتيت ذلك السواد الطبيعي المتراكم وضعت المرآة على الطاولة، ومسكت الزجاجة من جديد رفعت غلافها، وألقت به قرب الكأس.

ـ سأجيبك بعد الكأس الأولى، أو الثانية.

سكبت في الكأس في جوفها.

وأعادت السكب في الكأس من جديد، التفتت إليه، كان ينظر إليها دون أي حركة. ثم سكبتها في جوفها على جرعات، وما إن فرغ الكأس حتى قالت وهي تشير به إليه:

ـ سأجيبك بعد الكأس الموالية، ولعلمك، لم أكن قحبة، ولم أدخّن، ولم أشرب قبل أن أعرفك...

ابتسم وهو يستمع إلى كلماتها المتقطعة. ثم قال:

ـ كنت محافظة وشريفة، إذاً.

ـ ليس بالضبط... أعرف مايدور بخلدك، اطمئن لن أقول شيئاً.

ـ آه.

ـ ... (ابتسمت)... لايهم.

وشربت الكأس الموالية، أشعلت سيگارة، وهو يراقبها بصمت... وكأنه يترقب منها ما ستدلي به. ولكنها جعلت تؤجل الإجابة في كل مرة إلى الكأس الموالية، ثم نهضت واقفة. وقالت:

ـ سأدخل الحمّام، أنا لاأعرف إلا ثلاثة أمكنة بهذا البيت، الحمّام، غرفة نومك، وهذا المسرح... سأغادر إلى الحمام، الحمّام. نعم، فعلاً، يجب أن أغادر، هيّا دلني على الحمّام...

O O O

الفصل التاسع

ـ يا سادة يا سادة، يدلنا ويدلكم لطريق الخير وأشّهادة، قالت شهرزاد[1]: وشمعت يا مولاي ألّي جانشاه وصحابو هجموا ع الغزالة شيصطادوها، ياخي هربت منهم ورّمات روحها في البحر، وكان في الوقت أذاك صيّاد عندو فلوكَ راسية، نقزت فيها لغزالة، هبط جانشاه وصحابو من فوق الخيل مْتاحهم وطلعوا للفلوك يصطادو في الغزالة، وقتلّي جاو راجعين للبرّ رى جانشاه جزيرة كبيرة، قال لصحابو ألي معاه، تحب تمشيوا لْها كل الجزيرة...

كان الجميع ينصتون إلى عزوز بانتباه وهو يروي لهم واحدة من حكايات ألف ليلة وليلة، وقد فغرت أفواههم، وجحظت عيونهم، وكأنهم شدو إلى لسان الراوي بحبال شفافة وما إن دخل طارق قابوس عليهم حتى تفتت انتباههم واستدارت أعناقهم، بعضهم يسأل السبب وراء الضجّة، والبعض الآخر يترقب الاجابة لمواصلة الاستماع إلى الحكاية وماكاد ينشر خبره الجديد بينهم:

ـ الأمن يطوّق منزل عبّاس.

حتى جمدت الأبصار، وسأل عزّوز باقتضاب:

ـ وقتاش؟!

ـ الآن، قبيلي شوية، دخلوا سيارتين متاع بولسيّة، لزنقة الصبّان وقفت وحدة قدّام دار عباس، ولخرة، وراها، هبطو منهم ثمنية بْليسية، وقفوا ثنين بجنب الباب، وثنين في راس النهج، واحد قعد بجنب السيارة التّلنية، وواحد نقز على الحيط، ملأوّل مادقوش الباب وقت ماخذنا كل واحد بلاصو، تقدموا الزوز الباقين ودقوا الباب بالقوي، حلّت أم عباس الباب مفجوعة، ومن غير مايسئلها حتى حد، دزوا الباب، ودزوا المرى، ودخلوا،

(1) ـ من بداية الليلة 511 من ألف ليلة وليلة. (بتصرّف)

واحد ملواقفين سئلها على عبّاس وهي تبكي وتصيح... خرجوا الجيران وتملات الزنقة، نزروا البليسة عليهم كل واحد شبْ في دارو...

توقف طارق قابوس عن الحديث، ليسمح لأحد الحاضرين بطرح سؤاله وقد تحلقوا حوله، وتصادمت الأنظار ببعضها البعض...

- ومن بعداش؟..

- يلوجوا على عبّاس.

- لواه. شعمل؟

- الله أعلم مانعرفش.

- مشاو وإلا مزّالوا.

- خليتهم فم[1].

- شدوه، وإلا لا؟!

- مانعرفش.

- ماتعرفش؟! شتعرف إمّا لا.

- ألي قلت.

استمع عزوز إلى هذه المحاورة بانتباه وكأنها تذكّره بإحدى حكاياته السابقة أو أوحت إليه بحكاية أرقى، يمكن أن ينسج خيوطها بنفسه، وجلس طارق إثر ذلك في المكان الذي يقف فيه، وحلّق يديه حول ركبتيه، وأمعن النظر أمام قدميه، فانحنت الرؤوس عليه وكأنها تراقب شيئاً في قاع بئر. وبعد لحظات قال حميد عمار بشيء من القلق:

- سنجموا نعلموا تو[2]؟!

وقال آخر بشيء من التهكم.

- شتعملوا، شعنّ[3] نعملو؟! هذي خصومة مع الحاكم، واللّي خصومتو مع

(1) - فم: هناك.

(2) - تو: الآن.

(3) شعنّ: ماذا يمكن لنا.

الحاكم... تعرفوا البقية.

وقال ثالث:

ـ يلزم نعرفوا ع الأقل شيلزم؟ لواه يلوّج عليه البوليس شيحب من عندو؟!

ـ هذي محنتو هوّ، شمدخلنا أحنا؟!

كان حانوت عزوز ملاصقاً للحانوت الذي يسهر به طارق، وأمبرتو، وخميس جاموس وكان طارق على علم بأن أحد أقارب عباس يجلس في ذلك المحل، وما نقل الخبر إلا ليعلم المزيد عن عباس من هذا القريب، ولكنه لم يجده هناك... وتواصل الجدل بعد ذلك حول سبب ملاحقة الأمن لعباس، وحول ما ينبغي فعله من طرف الحاضرين طوال ذلك المساء، حتى أشرفت الشمس على المغيب، عندها نهض عزوز من مجلسه وقال ناصحاً منبهاً:

ـ كان لازم تتفرقوا. وتجيبوا الأخبار، خاطر قعادكم هنا مايعمل شيء.

ـ لكنه الأمن عَم عزوز...

ـ نعرف الأمن حتى تقلي! أما فمّة حاجة في الوسط، عبّاس إنسان عاقل ما تتصورش كان عمل عملة تستاهل هلْقوة إلكل... (قال عم عزوز، وبعدأن شرب الماء أضاف)

ـ قوموا اسئلوا.. واعرفوا وجيبوا لخبار... قوموا، انبشوا وتعلموا... نهض بعضهم على مضض وكأنهم لايشاؤون المغادرة... كانت الشمس تنزلق بتؤدة خلف الجبل الغربي... ناشرة حمرة دموية حولها. وتحرّكت الأرجل في كلّ اتجاه فامتلأ قلب «البلاد»[1] ونبضت الحياة فيه، حيث خرج العائدون من المزارع للبحث عن عملة أو عمل، وامتلأت المقاهي، وكذلك المتاجر وارتفعت الجلبة مختلطة بأصوات المحركات في بعض الأحيان... لتخبو من جديد بعد فترة من الزمن.

التقى الخروبي وهو ممن كانوا يستمعون إلى عزوز ـ التقى بمحمد الناصر، الصديق القديم لعباس، تحدّث معه بعض الوقت حول العمل في المصنع... ثم قال وكأنه يزفّ إليه خبراً بالغ الأهمية.

(1) البلاد: المدينة أو القرية.

- ماسمعتش يا خي؟!.. قالوا الحاكم يلوّج[2] على عباس،
- ماسمعتش. شيعملوا بيه؟!
ش شدّ وابيه ديون الدولة. لا لا.. بالحق جاوه، زوز سيّارات بثمنية بولسيّة... قالّك فرتوا[2] الدنيا عليه.
- شدوهش؟!
- مانعرفش!... ممكن راهم شدوه. ممكن.
- ربي يعينوا على كلّ حال.
وافترق الاثنان.
في طريق العربي فارس التقى حميّد عمّار بأمبرتو الايطالي، فسأله إن كان رأى عبّاس، فاهتز أمبرتو وقد اعترته رعدة خوف، ثم أجاب:
- لا... لا لا ماشفتش. علاش[3]؟!
- قالوا الحاكم لوّج عليه اليوم. مانعرفش شدّوه وإلا لا.
- ماعلميش.
وتدخل شكري قاسم الذي كان ماراً في الطريق فسمع نتفة من الحوار.
- حتى أنا سمعت، زعمة[4] بالحق.
- مانعرفش.
- قتلو يا ولدي خطاك. ماحبّش يسمع... برّة عاد آش يفكو من يديهم.
- لاه شحب.
- قالك تنده السيارة من غير رخصة في الشارع الكبير، قدّام البولسيّة بيدهم... شكون راه، ضرب بعد الحد قتلوا، وإلّا وقّفوه البليسة ماحبش يوقف؟!

(1) - يلوّج: يبحث.
(2) - أحدثوا فوضى.
(3) - علاش: لماذا.
(4) باترى.

- زعمة هلك.

تنفس أمبرتو الإيطالي الصعداء وقد سمع هذا التعليل.. ثم سأل حميد عمار:

- مزالو يلوجوا عليه؟!

- يا خي كان قتل بعد الحد، ماهم يقعدوا يلوجوا عليه حتى يلقووه.

- ربي يهديه إذاك هوّ...

عندما دخل البطحة، صادف طارق قابوس، حسام عمّار. وهو تلميذ بالمعهد الثانوي فألقى عليه التحية، وليست هذه من عادته إذ أنه لايلقى السلام إلا على من كان أكبر منه سنّاً، أو كان صديقاً له. سأله عن أحوال عمله الدراسي، فردّ حسام مستغرباً:

- حمد لله، لابأس.

وبعد قليل سأله عمّا إذا كان قد علم بأن صديقه عبّاس مبحوثاً عنه من طرف الشرطة.

- لاأدري، ولكني رأيت قوّات الأمن قد تمركزت هذا المساء أمام منزله... ولاأدري لماذا.

وسألت طارق قابوس من جديد:

ولكنّ القوة كبيرة:

- لاأعلم صدقني... منذ حوالي خمسة أيام لم أره.

في تلك الأثناء تذكر طارق أنه لم ير عبّاس منذ أربعة أيّام ثم ليس من عادة عبّاس أن يغيب عن الأنظار طوال هذه المدة، وهو مع ذلك ليس بالشخص المنغلق على نفسه، الكاتم لأسراره... قطّب طارق جبينه وواصل سيره دون أن يحيّ حسام، مما جعله يبقى في مكانه مقطباً جبينه هوّ الآخر، محدّقاً لطارق قابوس وهو يبتعد...

* * *

عندما عاد أمبرتو إلى منزله أخبر كلاً من عبّاس ومنذر بن رابح بما سمع من حميد عمّار، وشكري قاسم حول بحث الشرطة عن عبّاس مضيفاً، بأنها كانت مسلّحة بالرشاشات، وأجهزة اللاسلكي...

ارتعد عبّاس ومحمّد... ثم انكفأ الاثنان على الطعام يمضغان اللقم بمرارة... لمّا انتهى العشاء، سأل عبّاس بصوت خفيض:

ـ نعم، ماذا ينبغي أن نفعل في هذه الظروف الراهنة... أعتقد أنه ينبغي التفكير مليّاً وأنت معنا أمبرتو، أنت معنا...

نزّ عرق بارد من مسام أمبرتو، وكأن ماء بارداً قد صبّ عليه... وبعد جيئة وذهاب داخل الغرفة قال منذر:

ـ وهل أعلمت أحداً بأننا هنا.

ـ لالا. هل يعقل هذا؟!

ـ والتفت إليه عبّاس، ثم قال مطمئناً الاثنين معاً.

ـ لاتخشى شيئاً، أمبرتو، رجل، رومي صحيح، ولكنه رجل، أنا أعرفه جيّداً أليس كذلك أمبرتو؟!

ـ أعتقد أنّكما أدخلتماني في باب نضالكما من حيث لاأشعر، فأنا الآن في نفس الوضع الذي توجدان فيه تقريباً.

وقهقه، في حين ابتسم الاثنان وكأنما لايوافقانه الرأي..

بعد حوالي الساعة طلب عبّاس من أمبرتو أن يخرج إلى الطريق، ويحاول الاقتراب من منزلهم ليطّلع على آخر المستجدّات هناك. ففعل أمبرتو، وإن لم يكن راضياً في قرارة نفسه على هذا الطلب.

لقد تأكد شيوع الخبر بين أغلب سكان «البلاد» إذا لم يكن جميعهم... ومرّ أمبرتو مرتين أو ثلاث أمام المنزل ولم يلاحظ أي شيء يشدّ الانتباه... مرّ بمتجر منصور البالغ لشراء علبة سگائر فسمع أحد الحرفاء يتحدث عن الحدث بكل تفصيل قال:

ـ ... «وشاهدت أحد أفراد الشرطة، يدفع بعباس إلى خارج المنزل، وقد وضع على رأسه قطعة من ملابسه حتى لايراه أحد، كانوا يدفعون به في اتجاه السيارة، وهو مقيد اليدين، وكانت والدته تصرخ بصوت عال وكأن مساً قد أصابها، مسكينة هذه الوالدة... قالت عدّة مرّات: «يا عبّاس يا وليدي لاش هكه» وفتح أحد أفراد الشرطة بيد، وباليد الأخرى، دفع بعبّاس إلى داخل السيّارة، لم تكن شرطة «بلادنا» أنا لم أر

أحداً منهم في حياتي أعتقد أنهم أرسلوا خصيصاً من الوزارة «وزارة الأمن» لاتخفى عليها خافية، إنها تخرج المذنب ولو من كبد الأرض، ولو بعد قرن... قيل والله أعلم أنهم سيذكرونه في الأخبار التلفزية، وربّما يقدّمون صوراً له ولزملائه، سيكشف عن الطريقة التي بها استولى على الأسلحة، وعن طريقة صنعها بنفسه، كان عبّاس خبيثاً. أنا شخصيّاً، لم أكن أتصوّر أنه يجمع كلّ هذا الخبث في دماغه.

ثم سمع شخصاً آخر يقول:

ـ نعم حقاً، لقد كان قادراً على صناعة الأسلحة، والقنابل... لو كان في غير هذا البلد لاعتنوا به، واستثمروا خبرته، وقدرته، فتكون لهم ذخيرتهم المصنوعة بأيديهم، لابأيدي أعدائهم، ويعلمون جميع أسرارهم ولا أحد يطّلع عليها من أعدائهم... يربحون القوة، ويربحون الأموال التي ستصرف، معاً. وانتقل الحديث بعد ذلك عن الدول العظمى، وصناعة الأسلحة، وعن قدرة إسرائيل العسكرية والاقتصادية.. فانسحب أمبرتو ليواصل ماقام عبّاس بتكليفه به... عندما وصل إلى نهج الزيتون، توقف لاشعال سيگارة، كان وقوفه صدفة أمام أحد المنازل. فسمع شاباً يحادث فتاة، ربما تكون شقيقته. قال في نفسه وتقدم خطوة إلى الأمام، فسمع مايلي:

ـ ستموت أم عبّاس كمداً على ابنها، الذي دعس المرأة في مركز الولاية وهرب، قيل أن الشرطة وجدت السيّارة التي كان يقودها، وتعرفت على السائق عن طريق صاحبها، أمّا أهل المرأة، فقيل أنهم لن يتنازلوا أبداً عن تتبع مرتكب الحادث حتى ينال أقصى درجات العقاب.

ثم قالت الفتاة:

ـ اللّطف يا صاحب اللطف... أيفعل عبّاس كل هذا... ماذا نقول بشأن الجاهلين إذاً.

ـ هل تعرفينه؟!

ـ لا... اقصد... سمعت عنه.

ـ هل عرفته عن قرب؟! هذا سؤالي.

ـ الحقيقة أن صديقاتي أعجبن به بوسامته وحسن حديثه.

ـ صديقاتك أم أنت.

ـ ماذا تقصد؟!

ـ أقصد ما سمعت.

ـ لا. عبد الرحمان، لا، لاتقل هذا.

ـ كنت تقولين أنك لم تحبي أحداً سواي.. وفي النهاية ينكشف سرّك... كذبتك الحقيرة...

ـ عبد الرحمان، أنا لم أحب أحداً سواك، أقسم لك... أقسم أني لم أحبّ أحداً سواك.

ـ وعبّاس هذا؟

ـ أعترف أنه مجرّد إعجاب، نعم إعجاب ليس أكثر...

ـ إعجاب... إعجاب!؟ مالإعجاب، أليس حبّا، أليس عشقاً... أليس تمني...

ـ إنك تدمّر حبنا عبد الرحمان، تدمّر حبّنا، توقف أرجوك.

ـ حبّنا!! أيّ حبّ...هاقد دمّرته أنت... تريدين مني أن، أن... ولم يواصل أمبرتو الاستماع، إن مضى في طريقه، وقد تذكر جليلة بن محسن وحبّه لها، واعراض أصدقائه عنه، تذكر موتها الشنيع، تذكر الرسالة التي قدّمتها إليه... وصل إلى النهج الذي يقطنه عبّاس ألقى نظرة من بعيد ثم قفل راجعاً... كان أثناء سيره منذ الخروج يسمع تفاسير وتحاليل للأخبار هي أقرب إلى الهذيان... حاول الاعراض عن سمع بعضها... وإصلاح بعضها الآخر ولكنه..

لايستطيع لوجوده في مركز الخطر مع اللاجئين عنده...

* * *

لقد عاد البعض ممن كان في مجلس عزوز بعد العشاء، وكلّ منهم يحمل أخباراً متضاربة. قام البعض بروايتها كما هي، وأضفى البعض الآخر على ما جلب تزويقاً، وروتقاً، لايجعل حديثه مستحيل الوقوع فقط بل يجعل من عبّاس بطلاً على طريقة أبطال الأفلام الأمريكية، أو عدوّاً وشريراً على نفس الطريقة... ومع ذلك استمع عزوز إلى كلّ ما قالوه بانتباه وتركيز شديدين فعليه في نفس الوقت اقتناص المشاهد الأسطورية التي عرضوها... ماكان مهتمّاً بالخبر في حدّ ذاته وإنّما همّه هو أطرف وأغرب مايقال في

صلب القالب السردي. الطريقة التي يكون بها الحدث مجرّد حدث، ثم يتحوّل إلى حكاية، تشدّ الإنتباه، وتسلب العقول بمجرّد أنها تترجم إلى كلمات...

ذكر في مناسبة لاحقة: أنه بالإمكان أن يكون شخص آخر غير عبّاس قد وقع في هذا الإطار، وأن تكون دواعي ملاحقته مخالفة تماماً لدواعي ملاحقة عباس ولكن ترجمة كل ذلك إلى كلمات قد يجد نفس الطريقة... نفس التهويل أو العكس... الأساسي... المهم... هو النسيج الذي يقع حول الشخص إنطلاقاً من جهله له. ومن جهل الحدث الأساسي المرفق به...

كانت جلسة تلك الليلة، جلسة استثنائية. قام فيها المستمعون بسرد الحكايات بأنفسهم، كما قاموا بدور البصل الراوي، وهذا، ممّا أمتع عزوز وافتخر به بل وممّا جعله يعتد بنفسه ويصف شخصه «بالأستاذ» ثم يقرّر إكرامها بأن يشرب في تلك الليلة خمراً عوض الجعة، التي ضاعفت من حجم بطنه، وكبد خروف... فأرسل لاحضار هذه المواد بعد غلق الجزّار لمحله... وما إن انتصف الليل حتى عاد البعض إلى منازلهم للنوم... وبقي القليل منهم لقضاء جزء آخر ممّا تبقى، مع عزوز.

* * *

قفز عبّاس بحذر وسط الدار. كانت والدته داخل المطبخ تجلب ماء لأحد ابنيها الصغيرين، فلّما سمعت وقع الأقدام فزعت وسقط الدورق من بين يديها، أطلت برأسها من خلال النافذة، لتجد ولدها يسير بحذر ويشير بالصمت إلى حين يصل إليها، حضنته دامعة العينين، قبلته عشوائياً ثم سألته إن كان سيبقى أم لا... وأشارت إليه بالدخول إلى الغرفة القبلية. دخل عبّاس ليجد شقيقيه الصغيرين يغطان في نوم عميق، ووجد شقيقه الأكبر متغيباً، أقبلت الوالدة حاملة معها عشاء، وماء، وبعضاً من الفاكهة التي تخفيها، وضعت كلّ ذلك أمامه وجلست قبالته، قالت بصوت أمومي عطوف.

- كل يا بني، كلْ... كلْ... يا ناري[1]... على ولدي يا ناري.

- لباس يامّي. إنت لباس، واخوتي لباس... كلكم لباس؟؟!

(1) - يا ناري: لفظة تحسّر تقابلها في الفصحى: واحسرتاه. ولاتنطق بها إلا النسوة.

ـ لباس كول يا ولدي، كول الشبع...

أكل بعضاً مما قدّمته له، وترك الباقي لاحساسه بالشبع كانت تنظر إليه وهو يمضع، ويبتلع، بحنان ورأفة بالغين، لمّا مسح يديه ممّا علق بهما طلبت منه المزيد من الأكل، ثم اقترحت عليه أن يحمل ماتبقى معه إلى حيث يختبأ فأبي. وعاد لالقاء الأسئلة، والإجابة عما تطرحه عليه والدته. قال:

ـ أين بنعيسى لاأراه موجوداً؟!

ـ يعمل ويبيت في السانية هذه الأيام... جاء البارحة، سأل عنك... وبقي مع شقيقيه قليلاً ثم عاد.

ـ وأنت، هل أنت بخير، هل مازلت مواظبة على تناول الأدوية... حاذري لاتخالفي... ولاتنسي..

ـ تعبت يا كبدي... تعبت... اليوم أقبل البوليس يبحث عنك؟!

ـ أعلم... أعلم...

ـ بهذلوا بحالنا، لم يتركوا شيئاً في مكانه، ودفعوني حتى كادوا يسقطوني على الأرض...

ـ مجموعة من المتوحشين...

ـ حافظ على نفسك يا بني... إني أسأل الله أن يكفيك شرهم دنيا وآخرة...

ـ حسناً..حسناً!!

ـ هل ستبيت الليلة هنا، إني أفتقدك... ولا أكاد أنساك في أي لحظة من لحظات اليوم... أرجوك أن تبيت الليلة.

ـ لاأستطيع... قد يعود البوليس في أي لحظة..

ـ قل لي أين تختبأ إذاً؟ وهل تأكل جيداً وتتدثر جيداً... إن لم يكن يتوفي لك الغطاء الكافي، خذ معك من هنا، خذ معك... ترقب سآتيك بغطاء. البرد قارس مع سكون الليل، واقتراب الصباح ينزل برد الدنيا بأسرها في هذه «البلاد»...

ـ شكراً... هناك أكثر مما نحتاج من الأغطية. والفراش...

ـ لم تقل لي أين تختبأ، أريد أن أطمئن عليك..

ـ لاأستطيع أن أقول شيئاً... أنا بخير إطمئني... حافظي على صحتك... أرجوك أن تكوني مطمئنة، وأن لاتخبري أحداً بقدومي إليك حتى وإن كان أخي بنعيسى ينبغي أن أعود الآن.

سال الدمع من عينيها من جديد، مسكت معصمه وكأنها لاتشاء له المضيّ... ابتسم وحدّق في عينيها بحنان واشفاق ثم قال:

ـ كل شيء بالمكتوب.

ـ فعلاً، كل شيء بالمكتوب، ولكن مالم أفهمه لماذا تبحث عنك الشرطة...

لماذا؟ أفزعوني... كانوا عنيفين معي... سألوا عنك بحثوا عنك، لم يتركوا زاوية في المنزل لم يفتشوها... كانوا كالكلاب المسعورة... عندما لم يجدوك... قالوا لي إذا ما أقبل، أعلميه بتسليم نفسه، سيكون ذلك أفضل، وأقل خطورة عليه، إني خائفة عليك يا بني... خائفة على أشقائك أيضاً... إني خائفة عليكم من هذه الوحوش...

كان عباس يستمع إليها بانتباه، عيناه تحدّقان في الأرض أمام قدميه، وَدّ أن يسألها عمّا إذا كانوا قد بحثوا في أوراقه أم لا، وهل تعرضوا إلى أخويه بأذى.. ولكنها أضافت بعد صمت قصير:

ـ من لنا غيرك يا بني... من يشدّ أزر هذه الأسرة المنكودة... من؟؟

وغرقت في البكاء فحاول التسرية عنها ملقياً اللوم عليهم قال:

ـ لاتبكي... لاتبكي أرجوك، إن مايحدث لايستحق دمعة واحدة من دموعك العزيزة... ثم لست أنا السبب... إنهم هم... يأكلون قوت الشعب... يحدصون الرّشاوي... هم من يقف أمام من يبتغي العمل... لقد صمتنا كثيراً... صمتنا بما فيه الكفاية، وينبغي لنا أن نتكلم، أن نصرخ، أن نقول لهم لا، ونقول نعم في الوقت المناسب، وفي اللحظة المؤاتية... إننا بشر... بشر... مواطنون يا أمي، أحرار ومن أجل أن نكون كذلك ينبغي أن ندفع الثمن، وهذا الثمن...

ـ إني خائفة عليك، لاأريد أن يمسّك أحد بسوء..

ـ إطمئني... لن يحدث إلا ماهوّ خير...

ـ يا ابني...

ـ إذا عادوا مرّة أخرى، قولي لهم بأني لم أظهر... سيكون الغد أفضل، ابتسمي وسترين.

قبل مغادرته اقترب من شقيقيه، قبلهما، ونظر إليهما لحظة من الزمن ثم ابتعد وهو يردد:

ـ ينبغي أن تكونا رجلين، تفخر بكما البلاد، والناس الطيبون والمحرومون أدرسا جيّداً ولاتعتنيا بشيء غير دراستكما.. لاتفكرا في ماذا أفعل... لاتفكرا، اعملا، اجتهدا...

وقبّل والدته ثم أسرع خارجاً.

* * *

دخل أمبرتو وبين أصابعه سيگارة أشعلها حديثاً... كان منذر يراقبه دون أن يتحرّك من مكانه وهو يتقدّم نحوه، وماكاد يصل قريباً منه حتى نهض منذر واقفاً وقال أمبرتو دون أن يطرح عليه سؤال:

ـ ليس هناك جديد، فعلاً ليس هناك غير الصدى... أحاديث متداخلة، متضاربة كأن عباس لم يعد عبّاس الذي عهدوه. كأنه تنين في نظرهم الآن، أو كأنه ملاك البعض يمجّده، البعض الآخر يلعنه... ولكنهم يتأسفون على أية حال لما شبّ إليه... ودخل الغرفة ملتفتاً يميناً وشمالاً، ودخل خلفه المنذر، جلس على حافة السرير، قال أمبرتو:

ـ أين هو؟

ـ من؟

ـ عبّاس!!

صمت لحظة قبل أن يجيب.

ـ لأدري كان هنا، ربّما دخل المرحاض.

ومضى أمبرتو ليجلس على الكرسي أمام الطاولة. فأسرع منذر إليه.

ـ أريدك أن تروي لي كل ماسمعت، وماشاهدت، أنت تعلم أنه قد مضى علي غير قليل من الأيام داخل هذا السجن... وأشتاق إلى معرفة مايحدث في الخارج أشتاق لرؤية الحياة، والحركة، والناس والأطفال...

سحب أمبرتو نفساً من سيگارته وبدأ في الحكي...

بعد وقت قصير ولمّا كان يسعل، دخل عبّاس دون أن يثير قرقعة بتصادم دفتي الباب... فالتفت إليه منذر وقال دون تفكير:

ـ ها أنت تأتي، ألم تشعر أنك قضيت وقتاً طويلاً داخل المرحاض.

ابتسم عبّاس وقد فهم المغزى من حديثه، فاتجه ليجلس على حافة السرير، ويستمع لما يقوله أمبرتو حول أوضاع الحياة في الخارج.

○ ○ ○

الفصل العاشر

لم يبللها المطر عندما لجأت إلى قوس «باب البحر» كان لايزال رذاذاً ساعتها، ومع تقدّم الزمن أضحى مطراً غزيراً، تجمّع حولها عدد لابأس به من الناس، بعضهم أجانب وبعضهم الآخر تونسيون، بعضهم شباب، وبعضهم شيوخ، وأطفال. أصاب المطر منهم عدداً وهم الآن يمسحون وجوههم وجباههم، راقبتهم واحداً واحداً، شرد بصرها خلف وجوههم الملتمعة، والكالحة والباسمة والمتجهمة، أدمغة تشتغل داخل تلك الصناديق المرتفعة عن صفحة الأرض، تقرر السير، وتقرر البقاء، ترفع الرؤوس بكاملها إلى السماء لتقول أنه لن يكون الصحو قريباً أو العكس، وتسرح الأبصار مع الماء السائل في ناحية من الطريق نحو الجنوب. ولعلّها تسيل معه إلى حدود البحر، وتتبخر إلى السماء... وتعود الدورة لتجد نفسها تحت القوس بين عشرات البشر...

قبل أن تغادر المكان بقليل وبعد أن طاش فكرها في النواحي عاد ليستقر على وضعها الشخصي، فهي منذ أن غادرت «البلاد» لم تعد إليها، ومنذ دخلت الحركة توارى طريقها ومنذ تصدّعت الحركة ضاعت هيّ... ووجدت نفسها أخيراً تنتهي مع فكرتها إلى قلب الصفحة الثانية من حياتها، والعمل على نسيان مافيها من أحداث وأزمات، والعمل على الدخول إلى الصفحة الموالية... ألقت نافلة نظرة أخيرة على باب السفارة البريطانية، ثم انسحبت لتسير في اتجاه الساعة الضخمة (الآن) تحت المطر الغزير.

ساعة قضتها في انتظار خروج خديجة من السفارة، دون أن تعلم مقدار مكوثها أو حاجتها منها، فهي قد شاهدتها من بعيد تدخل ولم تتمكن من اللحاق بها... ساعة قد مضت وهي واقفة تحت ذلك القوس الحجري الأحمر. بشر من أجناس وأعمار مختلفة يحتمون مثلها من المطر المتهاطل بغزارة... ونظرت إلى الباب بضع مرات قبل الانصراف... «قد تخرج الآن؟ ربما الآن قد تخرج» ولم تخرج في ذلك الآن، ولا في الآن الذي يليه، وربّما خرجت ولم تشاهد إحداهما الأخرى... لقد حنت نافلة للوقف

إليها بعض الوقت، والسؤال عن أحوالها، وأحوال عائلتها، وشقيقها، وآسيا، وهو ماجعلها تنتظر طيلة هذه الساعة، إلى جانب المطر... إنها رغبة في إحياء شعور إنساني يسير إلى الدمار، والانسحاق، تحارب نفسها من أجل إذكائها الآن... وبعدها يكون التلاشي من جديد، ومن جديد، تعود إلى الوحدة التي تحيط بها نفسها... إن تمضي كل منهما في حال سبيلها، وكأنها ما اعترضتها وما شاهدتها وما سألتها... هل تذكر الآن آخر مرة شاهدتها فيها؟! إنها تذكر... نعم تذكر، كانت قبل أسابيع قليلة، ثلاث، وربما أربع... حين كانت واقفة مع آسيا ومختار أمام المقهى... كانت آسيا تتكلم بشيء من الحماس، وكان مختار يأرجح رأسه وقليلاً ما ينطق بكلمة، أو جملة... تسعى الأيام سريعاً... كأن ما شاهدته نافلة من ذلك المشهد، وقع بالأمس فقط... وبالأمس فقط كانت تجتهد لتتوارى عن مجال أبصارهم...

لمّا وصلت قريباً من السفارة الفرنسية، ابتلت جميع ملابسها وتعطلت قدرتها على السير الحثيث وهو ما اضطرها إلى إيقاف «تاكسي» لنقلها إلى منزلها رأساً... كانت تنوي الوصول إلى «مقهى رومانا» بآخر الطريق الرئيسي للعاصمة، والبحث عن أمين هناك. فقد يكون موجوداً، اليوم هو يوم عطلته الأسبوعية. وهو لايزور هذه المقهى إلا يوم عطلته. جلست في المقعد الخلفي وتلت العنوان على السائق انطلقت السيارة تشق المياه المتدفقة، كانت نافلة في مكانها أشبه ماتكون بفرخ دجاج سقط في بركة ماء... يتصاعد بخار شفاف من رأسها العاري، عندما لاحظها على تلك الحال قال بصوت خفيض:

- كان ينبغي أن تحتمي في مكان لايصله المطر يا «مدام».

نظرت إليه، ولم تجبه، ثم أمالت رأسها إلى زجاج النافذة. قطرات الماء تصدم البلور وتسيل.. فتصعب رؤية مايمرّ في الخارج من مشاهد... وما إن صارت السيارة بعيداً عن قلب العاصمة، حتى تعطلت الحركة لتجمّع بركة ماء في أحد الشوارع... ممّا اضطر السائق إلى التراجع إلى الخلف بصعوبة لسلك شارع آخر... كانت منبهات السيارات قليلاً ما تفح، ويبطئ شديد تدور العجلات...تذكرت نافلة، في تلك الأثناء، حادث موت بن حازم في مفترق الملاسين، ثم سريعاً ماتذكرت عملاً قامت به ونسيته منذ تلك الساعة، لطمت جبينها بكف يدها. وأدلت رأسها إلى الخلف: الرسالة التي بعثت بها إلى زوجة محمود تدعوها فيها للحضور إلى ورشة بسّام. لقد أخفت عليه هذا الصنيع حتى

لايعارض، والآن وبعد هذه الشهور العديدة تتذكر الأمر، مسحت براحتها على شعرها المبلول وعيناها تحدّقان في سقف السيارة... تساءلت: «هل تراها وصلت إليها؟! وهل تراها أقبلت إلى الورشة؟ وهل ترى بتام علم بالأمر؟؟! لم يخبرها شيئاً على أية حال!.. ربما لم تقبل... وربّما لم تشأ أن تجازف بشيء... وربّما أقبلت ولم يشأ بتام إخبارها من تلقائه. كانت تنوي ساعتها توضيح بعض الأمور العالقة. كانت لاتشاء التفريط في بسام، ولا حتى في شعرة منه، ولكنّ المنيّة كانت أقوى من مشيئتها، قد رحلت به مرة واحدة وإلى حيث لن يعود...

توقفت السيّارة أمام منزلها، نزلت منها وأسرعت في الدخول، أخرجت ثياباً جافة من الدولاب ارتدتها، وجففت رأسها، ثم أسرعت إلى إخراج كدس من الرسائل ومسودّات رسائل أخرى قد بعثت بها. قلّبت في تواريخها، وبداياتها... قرأت بعضها، وألقت ببعضها الآخر على حدة... قالت في نفسها وهي تنظر فيما استوى أمامها.. تكوّن كتاباً لو جمعت وطبعت. «ثم» بعضها فقير دون شك، ولكنه ذو دلالة.. أخيراً وقعت على المسوّدة: ليست برسالة طويلة على أية حال: قرأت بصوت مرتفع وكأن أحداً يستمع إليها:

ـ الحمد لله.

السيدة المحترمة زوجة محمود بن حازم، (نصف الجملة مشطوب)، السيدة المحترمة أرملة محمود بن حازم، تحياتي الخالصة، أنا بسام عاشور صديق لزوجك محمود رحمه الله، (اللفظ، لزوجك، مشطوب، أعيدت كامل الجملة) أنا بسام عاشور، كنت صديقاً للفقيد محمود، كان طيباً ورائعاً في أخلاقه. ومثالاً في سلوكه، رحمه الله تعالى، قد كانت بيني وبينه بعض المعاملات، إذ أني أشتغل نحّاة خشب في العاصمة، وقد بقيت له عندي مستحقات، لاأستطيع ذكرها الآن. أرجو منك الحضور إلى ورشتي على العنوان المكتوب في الظرف، وفي أقرب فرصة سانحة لك. مع تحياتي وتقديري، بسام عاشور.

العاصمة في: كذا، كذا، كذا.

وضعت الورقة أمامها وقالت:

ـ لعبة تافهة، وقديمة...

وبعد لحظة..

ـ كان ينبغي أن تحرق جميع هذه الرسائل... لافائدة من بقائها، لافائدة. بحثت عن حقيبة الكتف، كانت مبللة، تماماً، فتحتها وبحثت بداخلها عن علبة السگائر، وجدتها مبللة أيضاً، فرزت من داخلها سگارة نصف مبللة، وألقت الباقي، أشعلت عود ثقاب بعد خمس أو ست تحطّم كبريتها... جفّفت النصف المبلّل من السگارة، ثم أشعلتها، ودخّنت بصعوبة...

* * *

استمرّ المطر في الهطول بغزارة، ودون انقطاع إلى مابعد ظهر اليوم الموالي، وانقطعت نافلة عن العالم الخارجي ليومين مواليين بسبب الزكام الذي ألمّ بها... وصباح اليوم الثالث زارها أمين في بيتها، كان لايعلم ماهي فيه من مرض، بقي معها ساعة من الزمن، ثم انصرف، وبعد لحظات من ذهابه أقبلت آسيا صرّاف. هي الأخرى لاتعلم شيئاً عن إصابة نافلة... عاتبتها عن عدم زيارتها لها خلال الأسابيع الماضية، وكادت تشتمها لما عبرت عنه من أفكار رأت أنها سخيفة إلى حدّ لايطاق. فهما على أية حال صديقتين منذ زمن بعيد، ولاتختلف أوضاع إحداهما عن الأخرى كثيراً، شكرتها نافلة على مشاعرها الصادقة هذه، ووعدتها بإعادة التفكير في وضعها من جديد، كما وعدتها بزيارتها في المنزل أو في المجلة أو مكالمتها عبر الهاتف كلّما أحست بمشكلة تعترضها... وكأنها بهذا الأسلوب تبني صداقة جديدة على أساس من الحذر والحيطة وغادرت آسيا المنزل لتبقى نافلة وحيدة كامل الساعات المتبقية من النهار.

لم يكن قد تغير شيء من وضع المنزل خلال الأيام التي قضتها حبيسة بداخله. بل ولم تفكر لحظة في شيء من ذلك... كانت تنظر إلى الصوّر المعلقة، أو جالسة بصمت أو تفكر في شيء تطبخه... حتى عندما سألتها آسيا عن سبب هذا الوضع الرديء لحالة الغرف، وإشارة أمين له، لم تجب أيّاً منهما ولو بكلمة، اكتفت بإشاحة البصر إلى ناحية أخرى، ثم الابتسام، أو تغيير مجرى الحديث...

قبل خروجها في اليوم الرابع، وعندما كانت تستعدّ له، خطر بذهنها مراسلة أرملة محمود بن حازم من جديد، ولكن على أن تكون المراسلة باسمها هي هذه المرّة، أعجبتها الفكرة، وأقرت العمل بها، وبينما كانت تدير المفتاح في المزلاج تذكرت أن

حالة المنزل وهي على هذا الشكل الذي لاتشاء تغييره لاتسمح... وضعت المفاتيح في الحقيبة، وسحبت نفسا ضخماً ثم قالت بصوت مرتفع:

- لاحاجة لمراسلتها، لاحاجة لاستدعائها.

ومضت في سبيلها.

قد تغير الطقس تماماً بعد ظهر ذلك اليوم، إذ انقشعت السحب تماماً فبدت السماء صافية مضيئة، واكتظت شوارع العاصمة بالناس والسيارات، وارتفعت الستائر، وانفتحت الأبواب... وكأن دهراً من الزمان قد مضى لم تنفتح فيه.

- قد قلت لي في إحدى المرّات أنك خائف. ولم أسع لمعرفة السبب...

قالت نافلة وهي تسير بجانب أمين في اتجاه محطة الأرتال، محيطة ذراعه بذراعها، وعليها لباس برتقالي لايزيد طوله عن ركبتيها وحذاء ذو كعب عال... همهم أمين محاولاً عدم الإجابة عن سؤالها، ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً أمام إلحاحها، إذ وجد نفسه يقول:

- أنت تعلمين أني رجل أمن، تعلمين أيضاً أنه ليس من الشهامة أن يخاف رجل الأمن، ولكن... عليه أن يكون كتوم، لو سألتني ساعتها عن سبب مخاوفي أو إن شئت عن مخاوفي أصلاً، كنت أجبتك... أمّا الآن... أقصد... ما أقصده ليس الخوف الذي يتملك إنساناً في ظرف معين من ظروف حياته... هذا الخوف لاأعترف به... إنما... إنما خوفي هو شعور بالحرج إزاء موقف معين، إزاء حالة من الحالات...

اضطربت حركة نافلة، شعرت وكأنها تدخل زقاقاً أكثر ضيقاً وعتمة ممّا هي فيه، تنهدت محاولة تخفيف العبء عن نفسها، أبصرت إلى الأرض بين قدميها ثم إلى وجه أمين دون أن تنبس بحرف، كأن كلماته أذابت جهاز التفكير لديها أو جهاز النطق والتعبير... وظلا صامتين لبعض الوقت أحسّ فيه أمين أنه ابتعد عن بؤرة الخطر ذراعاً... وما إن اقتربا من الدرجات القليلة المؤدية لباحة الانتظار بالمحطة حتى توقفت نافلة، واضعة حقيبة صغيرة تحملها بيدها اليمنى على الأرض، وقالت:

- ولكنه خوف على أية حال سواء كان كما يفهمه الناس، أو كما تشعر به أنت وفي كلا الحالتين يستوجب حلّاً.

- فعلاً.

ـ ألا ترى أنه إذا صرّحت لي عن مضمونه يمكن أن نجد له سوياً ـ حلاً... تقدّم خطوات فرفعت الحقيبة وسارت خلفه... سحب نفساً كثيفاً ثم أطلقه بقوة، محمّلاً بقسط من الغيظ، فهو لم يهنأ بإحساسه طويلاً، ولم يستطع تشغيل جهاز التفكير لديها، لتفهم مايريد إبلاغه تلميحاً... تجاوز الباب إلى الداخل، القاعة مكتظة بالمسافرين نوعاً ما. أجال بصره في اللوح الإلكتروني ثم بحث عن مكان قليل الاكتظاظ فلم يجد... حاولت الضغط عليه من أجل إخبارها معتبرة أنها الفرصة التي لايمكن أن تعوّض. استوقفها في ناحية وقال بصوت خفيض:

ـ اسمعي. لاأريد مشاكل. هذا المكان لايمكن الحديث فيه عن أشياء تريدين معرفتها. ينبغي أن نكون منفردين، فأجّلي إلحاحك.

نكست رأسها مؤكدة إخفاقها في هذه المعركةأيضاً، وسارت لتقف تحت اللوح الالكتروني، دون أن ترفع بصرها إليه، وتبعها أمين، ألقى بصره على ساعة يده، وساعة المحطة ثم على اللوح الالكتروني، كان يحمل بيده حقيبة متوسطة الحجم بها ملابسه، وشيء ممّا اقتنّاه للعائلة... اقترب من نافلة أكثر وقال محاولاً إذابة الثلج الذي قام بينهما حديثاً:

ـ ثلاث ساعات تفصلنا عن موعد آخر سفرة لهذا اليوم.

ولم تجب نافلة بحرف واحد. حاول تحريك مشاعرها، وحاول دفعها للحديث معه في شأن آخر، لم يستطع... عند يأسه قال:

ـ أعتقد أنه من المستحسن أن أآجل هذه السفرة.

ـ تُوجل السفر. أنت ممن يؤجلون السفر؟!!

ـ أقصد تأجيلها إلى آخر رحلة في هذا اليوم.

ـ وبذلك أبقى معك طوال ثلاث ساعات حبيسة لهذا المكان المحزن.

ـ كان ينبغي أن نتحدث....

ـ نتحدّث؟! في ماذا نتحدث؟! قد أغلقت أبواب الحديث ألم تشعر؟!

ـ فعلاً.

ـ إذاً. كيف تريد فتحها من جديد. ترفع السقف؟!... إرفع. أنت رجل أمن ورجال الأمن قادرون.

- نافلة!!

- سئمت معاملتك لي، أنا، سأمضي في حال سبيلي.

- ستتحدث.

- لا أشاء، لأشاء الحديث، لأشاء... نتحدّث! يقول نتحدّث!!

- ولكنه يخصّك، أقصد أن الحديث في هذا المجال لايستحق التأجيل...

- يخصني؟! وهل هناك من المواضيع مايخصني...

- نعم. يخصّك.

- تكفيني تعاستي الآن، نعم تكفيني، سأمضي.

- ولكن ستفاجئين، نعم ستفاجئين وتسعدين معاً.

- أفاجأ؟! لم يعد هناك شيء يفاجئني، قرّ عينا. والسعادة ماعادت من شيّمي.

وضعت الحقيبة من يدها أمامه، وأسرعت خارجة من بهو المحطة، وبقي أمين يراقبها دون أن يستطيع فعل شيء.

* * *

«هكذا دائماً، أواجه مصيري لوحدي ودون إدراك، كأن لعنة الجدود تلاحقني، كأن السماء تفلتني منذ الأزل وإلى الأبد... قالت نافلة في سرّها وهي تسير في آخر شارع مراد الثالث بعد خروجها من بهو محطّة الأرتال وواصلت، أكلّ هذا إمتحان؟! أكل هذه لعنة؟! أحياة الإنسان بكاملها تكون امتحاناً وبهذا الشكل... شديدة، عسيرة، متى يتنفس المرء إذاً، متى يشعر بقبس من الراحة؟!».

قذفت كاغذا صادفها على الرصيف، فلم يكد يتحوّل من مكانه إلا ليقع في بركة ماء قريبة، وواصلت سيرها حثيثاً لاعنةً الزمن الأغبر، والمال الكلب، والرجال، والسياسة والتعليم، وما اتصل بها جميعاً... عندما استدارت مع الشارع القاطع له دخلت أول مغازة لملابس جاهزة اعترضتها. أجالت العاملة فيها البصر، ثم تقدمت نحوها.

- تفضل «مدام»

- لست مداماً.

ـ عفواً، آنسة، لنا مايساعدك من الملابس. انظري هذا اللون يليق بلون بشرتك.

وتقدمت العاملة إلى الثوب لجلبه إليها، فتركتها نافلة وغادرت المحلّ مواصلة السير في نفس الاتجاه، كانت الحركة في هذا الشارع أكثر اكتظاظاً وحركية، لمّا وصلت إلى نهايته استدارت يميناً. كانت لاتعلم أين تتجه بالضبط واستدارت مرة أخرى يميناً مع أوّل شارع يعترضها، ثم أخيراً وجدت نفسها في شارع مراد الثالث، وأعادت الدورة كاملة من جديد، كانت تسير بتأثير من غريزتها ليس أكثر، كأنها حيوان أليف يعود إلى مربطه باسطبل لقد انفصلت عنها ملكة التفكير ساعتئذٍ.

كان أحد بائعي المرطبّات بشارع مراد الثالث قد انتبه لمرورها المتكرر أمام المحلّ، ورجّح سريعاً أنها مومس وقد أكد لون لباسها البرتقالي له التخمين... ناد صانعه بالمحلّ وسأله استزادة للمعرفة... فأجاب بأنها تمرّ يومياً أمام محلّه، ولكنها لم تبتع منه شيئاًابداً، صرفه إثر ذلك ولطم زجاج العرض بمنديل يمسكه، وما إن دخل الصانع إلى القسم الداخلي من المحلّ حتى أسرع إليه سائلاً من جديد:

ـ أهي تمرّ من هنا في نفس الوقت يومياً؟!

ـ في قليل من الأحيان تمرّ في مثل هذه الساعة من النهار، ولكنها في الغالب تمرّ في أوقات أخرى غير محدّدة.

تَقبّل بائع المرطبات المعلومة بجدّية وصمت.

لمّا قامت نافلة بدورة أخرى، ومرّت أمام محل المرطبات شاهدها البائع فخرج مسرعاً وإحدى الأدوات بيده، صفّر... نادى مرّتين «يا آنسة». كانت نافلة تسير بسرعة جنونية هذه المرّة، فلم تسمعه، أو ربّما سمعته ولم تشأ الإلتفات إليه، جرى صاحب المحل بضع خطوات خلفها، صفّر من جديد، ولم تلتفت أيضاً بل زادت سرعتها، لم يكن يثيرها شيء في الخارج، فقط يتكرر بخاطرها قول أمين، ونسيم، وآخر ماسمعته من بسّام ومع كل خاطر تزداد سرعتها كأنّما تريد اللحاق به، كأنّما ترغب في افتكاك أنفاسه منه... أو اعتراض سبيله وإيقافه في النقطة التي وصل إليها...

ماتوقف عقلها عن الاشتغال إذاً، وما انعزلت مادته عن كامل حياتها الماضية، بل ازدادت، وتضخمت حتى أضحت وكأنها ثابتة جامدة في نقطة واحدة لايدركها كثير منا، ولكنها كذلك، وربّما دورانها في نفس الشوارع هذه المرّة ترجمة خارجية،

عمّا يدور بذهنها من أفكار وخواطر...

عندما أحسست بالتعب اكتشفت أنها تدور في نفس المكان منذ وقت ليس بالقليل، وقررت الاتجاه إلى محطة «المترو» وما إن سلكت نصف المسافة حتى عادت أدراجها إلى «محطة الأرتال»، وتجاوزت باب الدخول، وبحثت عن أمين بين المقبلين والمدبرين، ونادت بأصوات مختلفة الارتفاع:

- «أمين... أمين... أين أنت؟!».

ولكنه لم يظهر، ولم ينطق أي من الموجودين بالمحطة بحرف يدل على وجوده أو انصرافه، ربما ركب القطار الذي حجز المكان فيه، وربّما عاد أدراجه إلى بيته، وربما هو الآن في طريقه إلى «الكاف» يراجع صوّر أهله على بلّور النوافذ، أو وجوه المسافرين مثله... انهارت على أحد الكراسي القريبة منها واجتمع عدد من المسافرين حولها وأغلبهم ينظر إليها بصمت مثير للأعصاب، وقلة يسألون بعضهم البعض عن سبب انهيارها.

عندما استعادت توازنها خرجت من بينهم وهي تردّ شعر ناصيتها إلى الخلف، ما إن اقتربت من باب الخروج حتى التفتت إليهم، لتجد جميع أنظارهم تتجه إليها. فقالت مشيرة إليهم بيدها.

- تنظرون... مغرمون بالفرجة، و«التمنيك» والاحتقار، وجمع الأخبار، وصرفها مغمرون بالتقاط هذه المشاهد... وسردها من جديد، وكالات أنباء أكثر من وكالات أنباء أنتم، ولكن جهودكم تلقى إلى الخسار... تتفرجون، تفرجوا انظروا... دققوا البصر... من أكون، ماذا أفعل، أبكي؟! أنتحب؟! تريدون المعرفة، جميعكم يريد المعرفة... لن أقول لكم ماتريدون معرفته، لن أكرّم أذانكم، وأعينكم السافلة. أتركُكم جافين جميعاً مثل أرض قاحلة، أنتم أصلاً مثل أرض قاحلة. واستدارت لتواصل المشي، ثم التفتت وأضافت.

- أنا أيضاً أرض قاحلة، ولكن تطؤها الأقدام أحياناً وبعنف شديد.

* * *

خرج مختار من «بار أدلفو» عندما كانت نافلة تمرّ أمامه عائدة. لقد شرب كأسين من البيرة فقط هذا المساء، فلم تبد عليه علامات السكر، أبصرها تسير بخطى سريعة،

فلحق بها، مسكها من ذراعها وطلب منها الانتظار، حسبت أن أحد رجال الشرطة لحق بها بسبب ما أثارته في المحطة من شغب. ولمّا وجدت أنه مختار، اكتفت بالنظر إليه، ثم أمره بتركها، ولمّا لم يستجب ورفع صوته مقهقهاً. تنخمت وبصقت على وجهه، مسح الأثر براحة يده اليسرى، وألقى سؤاله دون إحساس بالمهانة.

- تسرعين. أراك فعلاً تسرعين، ما الأخبار ماذا يحدث؟! قد افتقدناك طويلاً... رحم الله بسّام كان شهماً، ورجلاً حقيقياً.

- نذل، وقح، اترك ذراعي.

- ابتسم مختار هازئاً، ثم قال بشيء من القوّة، وهو يسحبها إليه.

- أنت قرأت «الياطر» وتعلمين أن زكريّا يحب النساء بعجرفة، أنا أيضاً أحب النساء، بقوة أيضاً وبعجرفة أكبر... اعذريني لم يعد شيء بدماغي غير الكتب وسائل الخمر... أنا شخصياً لا أحبّ ذلك الحبّ العذري!.

لمّا حاولت سحب ذراعها منه بقوّة، قال:

- اصمتي... اصمتي أفضل لك. علمت أنك صرتِ قحبة رسميّة، هذا أمر جميل، الحركات تنتج زعماء سياسة، وحركتنا تنتج قحبة، وسكّيرين أنا سكّير، سكّير ولاشيء آخر.

مادت نافلة قليلاً، ثم ركلته بمرفقها على بطنه، فعاد يتصارع معها، صرخت ولكن أحداً لم يسمعها غيره. حاولت التملص منه من جديد، أضحت كسمكة لزجة بين يديه أعادت لكزه، وركله من جديد، أفرطت من قبضته وابتعدت عنه بضع خطوات:

- إذا اقتربت مني ثانية ستكون عاقبتك وخيمة. سأنهي أمرك إلى الأمن، أو أسيل دماغك على وجهك النحس...

ومضت مبتعدة، بقي مختار في مكانه برهة، ثم عاد أدراجه إلى «البار»، جلس حول طاولة شاغرة وسط المحلّ وطلب من النادل أن يحضر له أربع زجاجات من «البيرة» لمّا أتم شربها طلب أربع أخر...

عادت نافلة إلى منزلها مباشرة، كانت الدموع تنساب على خدّيها مختلطة بالكحل، ولمّا وصلت إلى المنزل ووضعت يدها على الباب، وجدته مفتوحاً، دخلت وقلبها يخفق من أثر الخوف والاستغراب. ما كان أحد ليجرأ على فتح بابها وهي غير موجودة في

المنزل... ماكان أحد ليجرأ على التفكير في الاقتراب منه... فحت الغرفتين الأوليتين وأجالت البصر فيهما لأثر يدلّ على حاله كما تركته، ثم دخلت غرفة الجلوس وهناك وجدت أمين جالس على أحد أريكتين ويده على خدّه، رفع بصره إليها، فتقدّمت نحوه بهدوء.

ـ لم تسافر إذاً، وسبقتني في الدخول إلى منزلي...

أبقى على صمته والنظر إليها، جلست على كرمي خشبي مهترئ، ثم سألت:

ـ من سمح لك بالدخول... من أعلمك أني أرغب في زيارتك لبيتي...

اتجه نحو باب الغرفة، وقبل الخروج التفت إليها:

ـ يعجبني غضبك.

ـ عدت لتقول لي: يعجبك غضبي!!..

ـ شئت إخبارك بماأخفيه في صدري. ولكني سأسافر الآن، بعد خمس وعشرين دقيقة ينطلق القطار...

ـ ستخبرني.

ـ لن أفعل الآن.

ـ أعلم هذا.

ـ كنت أنوي ذلك فعلاً...

ـ لأحبك، ولا أصبر على فراقك.

ـ ليس غريباً، الخلق أصناف. ونحن صنف منها.

خرج ولم يلتفت ثانية، إلى أن وصل إلى نهاية النهج توقف والتفت باتجاه منزل نافلة، ثم واصل طريقه إلى محطة الأرتال.

اختلطت الأصباغ المدحورة على وجه نافلة من أثر البكاء، واستعمال كفها في مسح الدموع، كما اختل ترتيب شعرها... لاحظت ذلك وهي تنظر إلى نفسها في المرآة المعلّقة فوق حوض غسيل الأواني بالمطبخ، ونزلت دمعة كبيرة وهي تكتشف ذلك. سحبت نفساً كثيفاً وألقت بأحد الأواني الزجاجية على المرآة فتطايرت الشظايا، عاودتها صورة آسيا صرّاف، وهي تخرج من المطبخ بخطى ثقيلة ثم صورة بسّام وهو ينحت

قطعة الخشب ليصنع منها شيئاً، ثم صورته وقد ألقى بزجاجة ماء معدني على مرآة كبيرة بالورشة.

* * *

صعد أمين آخر عربة للمسافرين في القطار، جلس قريباً من النافذة ليراقب الممرّ المخصص للمترجلين كان لايزال لديه أمل في ظهور نافلة لتوديعه... عاد المطر ليهطل من جديد بعد أكثر من نصف يوم من الانحباس أطلق القطار زعقاته المتتالية إعلاناً عن قرب الاقلاع وأعاد الليل صداها بفتور لم تظهر نافلة، أغمض عينيه، رفع يده ومسح الزجاج براحتها قلة من الناس يسيرون تحت الرذاذ... «ستظهر، أنا مقتنع أنها ستظهر» حادث نفسه، التفت إلى الجليس القريب منه، كالح الوجه، هادئ حتى الموت... ستأتي الآن تأتي. نهض من مكان وسار إلى الباب وقف بأسفل درجة، مسك بالحديد وأحنى نصفه الأعلى إلى الخارج ملقياً بصره إلى مدخل المحطة. راقب بانتباه... تحرك القطار ببطئ شديد ولم تظهر نافلة، ألقى بنفسه على الرصيف دون أن يشعر كاد يسقط على وجهه.. لم تأت نافلة لتوديعه ولن تأتي سار متثاقلاً إلى قاعة الانتظار، جلس على أحد الكراسي الشاغرة ملقياً برأسه إلى الخلف... بقيت الحقائب في العربة، لتسافر إلى الجحيم، لن يبحث عنها، لن يطالب بإعادتها إليه.

كانت عقارب الساعة تتحرك ببطئ أمام عينيه، وهو لايزال جالساً في مكانه، لاشيء يشدّ انتباهه في عالم السفر هذا. الوجوه كالحة مصفّرة تحت ضوء المصابيح، ينبغي أن يغادر المكان عائداً إلى بيته، نهض من مكانه سار خطوات ثم عاد ليجلس من جديد، المطر يهطل في الخارج... تحت الأضواء المنبعثة من المصابيح الكبيرة... خيوطها تقطع السكون عند الوصول إلى الأرض تنقر البلاط وتسيل... اقتربت منه فتاة وهو جالس، سألته عن الساعة فلم ينتبه، وأعادت السؤال من جديد، لمّا أفاق من شروده، أجابها بشيء من الجفاف والحدّة.

- الساعة هناك، بإمكانك رفع بصرك وسترين...

نهض من مكانه تاركاً إياها في حيرة، وسار إلى الباب ثم عاد وأضاف بصوت مرتفع:

- انزعها من الجدار وأضعها بين يديك لتعرفي الساعة...

ومضى خارجاً. نظرت الآنسة إلى الوجوه والأعين المحدّقة فيها دون أن تنبس بكلمة، أو تدري ما تفعل.

أثناء سيره في الطريق، تيقن أنه يحب نافلة، وليس فقط يميل إليها، بل يحبها بجنون، وعامل التأكيد هو مغادرته للقطار وإبطال السفر إلى الكاف... إنها تحيي مشاعر الإنسان فيه، تذيبُ الشمع المتجمّد في قلبه... تعرضه على الصبى عرضاً، وعلى سنّ المراهقة وبداية الشباب... ماكان يخشاه من البداية ماكان يحتاط منه، ماكان يحقن ذاته ضدّه، الحب المشؤوم، يقتات منه الآن قهراً... المطر يصفع وجهه مع البرد... الحبّ يلهب صدره يدفعه للسير قدماً، إلى بيته، أو إلى منزل نافلة، لايهم، سيبقى في العاصمة وسيلتقي بنافلة كلّ حين... لايهم... المطر، والظلمة والمصابيح الساهرة في قلب الشوارع، لايهمّ... سيبقى في العاصمة ويشاهد نافلة هذا المهمّ.

أخرج التذكرة من جيبه مزقها وألقى بها خلفه فتساقطت مع حبات المطر... ضغط على أحد شفتيه بأسنانه ومضى حثيثاً.

* * *

شرب مختار حتى لم يعد قادراً على حمل نفسه، رفعته الأيادي وألقت به في الطريق، انتهت أمواله، انتهت الحاجة إليه... رفع رأسه إلى السماء بدأت تمطر... مشى تمايل... الأرض تميد به، أو هوّ يميد بنفسه استند إلى جدار، ضحك، شتم نافلة، وعمّال البار، وأدلفوا صاحب البار... بصاقه يطير رذاذا في كلّ اتجاه، مسح شاربه بكمّ سترته، مشى البخار يتصاعد من فمه وأنفه، أحسّ بالدوّار... والغثيان.. غنى لنفسه لمجايليه، لأحبته، وأعزائه، صوت كريه، يثير الأعصاب، ينفّر الذباب من الاقتراب منه، يسير يبطء، يحاول التقيؤ لايستطيع كأن مافي بطنه قطع من النحاس لاسائل خمر، الغثيان يهدّ أنفاسه... يحاول الغناء لايستطيع... يسير صامتاً، البخار يتصاعد من عينيه. من كفيه، من قمة رأسه العاري...

مرّت تاكسي، حاول إيقافها لايصاله فلم يشأ سائقها... انحنى مختار على جانب من الرصيف، وتقيّأ....

ooo

الفصل الحادي عشر

مضت حوالي ساعة بعد منتصف الليل، واقترب أمين من منزل نافلة، كان مظلماً، وساكناً، المطر يتساقط باعتدال، ومصابيح الشارع تضيء في كآبة وصمت. رفع يده ليطرق الباب، ثم أنزلها، فكر في العودة إلى بيته، ثم في الجلوس على عتبة الباب. المطر يتساقط... باجتهاد. إيقاع خافت على البلاط، والغدران، وطرابيش المصابيح... رفع يده من جديد مسح صفحة وجهه المبلل، ثم طرق على الباب... انتظر إجابة من الداخل فلم يسمعها فقط صوت حركة بعيدة... رفع يده من جديد، وأعاد الطرق. اقترب وقع الأقدام واتضح أكثر، انتظر من جديد وأعاد الطرق مرّة واحدة، سألت نافلة:

ـ من؟!

ـ أنا. أمين.

ـ لم تسافر.

ـ افتحي.

وفتحت الباب، ودخل، ودخلت خلفه ثم أشعلت نور غرفة الجلوس.

ـ أنت مبلل.

ـ وأنت وحيدة داخل هذا المنزل... البارد.

ـ انزع هذه الملابس سأحضر لك بديلاً عنها.

وغيّر ملابسه بما أحضرته لنا، وقد انتقل إلى غرفة نومها. وأحضرت له قدحاً من الحليب الساخن. ابتسم كشخص عاديّ. جلست حذوه صامتة.

ـ ألغيت السفر إذاً.

ـ اكتشفت أني أحبك.

ـ والحقائب؟

ـ حقيبتان فقط.

ـ تزيد في آلامي.

ـ الحقيبتان؟!

ـ لا. أنت.

ـ إني أحببتك... أحببتك فعلاً... آه... كم جاهدت ضدّ ذلك، ولكني... عجزت.. وضع القدح على الأرض وأضاف:

ـ إني مجنون.

أزاحت بصرها عنه لحظة من الزمن ثم سألت:

ـ أهذا مايخيفك؟!

ـ ربّما! ربّما.

ـ ربّما.

ـ يتكدس في صدري جبل من المشاعر والأحاسيس... أفكار تراودني... إني مجنون... مجنون.

ـ لاتعلم بالضبط إذاً... الحقيقة، لايحق أن تكون رجل أمن، أقصد أنك لاتصلح لأن تكون رجل أمن. هذه أوصاف، ومشاعر، وأفكار شعراء وفنانين لأنها قاعدة الجنون، الجنون سمة الفنانين.... قد أخطأ منتدبوك يا أمين.

نهض من مكانه. سار خطوات نحو المرآة ثم سألها:

ـ هل لديك سگائر؟

ـ سگائر رديئة... بوستة..

ـ أريد أن أدخن.. لايهم.

ـ في الدرج أمامك، افتح، واسحب علبة.

سحب علبة، دخن منها سگارة أولى ثم أتبعها بثانية، في صمت، سحب الكرسي إلى حيث كان. جلس وقال:

ـ قضيت سنتين من البطالة، والإفلاس، من الحاجة والضيق والقلق، من الضياع من التعب، سنتان كانت الدنيا فيهما كخرم إبرة لاتتسع حتى لمرور بعوضة أشرفت على الانتحار، ونقلت نفسي إلى الغابة. وقلت لها «إلى الوحوش» لطمت رأسي بالجذوع، قلت «لينفجر وأرتاح...» النهار نهار، والليل نهار... لا نوم لا سباة، لا تعب يريح الأعصاب. كلّ ما هنالك إرهاق يزيد في شدّة الوتر...

فكرت في العبور إلى الجزائر وعجزت عن التنفيذ، الجزائر، على مرمى حجر، وأخفق في الوصول إليها... ووجدت نفسي في يوم من أيام سنة ألف وتسع مائة وأربع وثمانين بذلك الزي الرسمي، عون من أعوان الشرطة، متجهم الوجه عبوساً، بل قولي متخشب الهيأة، متخشب الأحاسيس والمشاعر كاظم الابتسامة، أو، قد فقدتها تماماً... أحسست بنفسي تضيق وتتسع دون مشيئتي، ورغبتي كشيء من المطاط السائل... أشياء تتحطم وأخرى تنهض في نفسي بأشكال ووجوه قبيحة... من أكون؟! سألت، سألت نفسي. أأكون أمين الذي نشأ، وتربى في الكاف بين أحضان الطبيعة، وأحضان التسامح واللين أأكون ذاك الذي حلم أن يكون يوماً شاعراً بحجم نزار قباني، يفرش مشاعره، لمستمعيه، لمريديه، لمحبيه... أم أكون شيئاً آخر! منزوع الفؤاد منزوع المشاعر... متخشب الوجه، جاف الحديث...

إني رجل، ليس فقط، بل رجل أمن، أفهمت، أدك مشاعري نحو القاع لأكون خشناً، ليرهبني المذنب، والخارج عن القانون. ليخشاني تعيس الحظ مثلي، ويلزم الحذر... رجل أمن... رؤسائي يحذّرون... زملائي يوصون... الواقع يفرض، الوجوه تريد، تريد، تريد، وأنا لاأريد انمحت إرادتي ورغبتي... قلت يوماً وربّما كان ذلك لنفسي: «إنني رجل، والرجل إنسان والإنسان له مشاعر، وأحاسيس وطباع، وعقل، أي أنه لم يكن ملاكاً في لحظة من لحظات وجوده، ولم يكن شيطاناً أو آلة...». أعجبني قولي هذا وخرجت من المياه التي تغمرني، تمساحاً مريعاً، أسلك جميع السبل: أجتهد في عدم ترك أي فرصة تمرّ مهما كانت، ومهما كان حجمها، لأني إنسان والإنسان كائن حيّ، والحيّ يعيش مرة واحدة في دنياه، انقلبت فلسفتي في الوجود على رأسها... انقلبت. أفهمت! ربّما أكون معذوراً وربّما لا... ولكن رؤيتي لم أترك لها فرصة للتغير حتى بعد معرفتي بك أنت. نافلة. نعم أنت، كنت آخر امرأة أتعرف عليها، وأمنع نفسي من الولوج إلى عالمها. لمعرفة مايحزنها ومايسعدها، لمعرفة ماتخفي وماتظهر، كنت مع

الأخريات أكتشفهن كورق اللعب على طاولة، أما أنت، فأحسست أنك تبذلين نفسك نقمة عليها، ولم أحاول معرفة السبب قلت ربّما هيَ مأساة التحوّل والضياع، ربّما مشابهة لمأساتي... صمتت، أراك تبذلين نفسك بسخاء كأن جرحاً متغلقاً بصدرك يدفعك، كأن الحياة منعتك من الدخول إليها إلا مشوهة، تذكرت مأساتي، تذكرت حياتي، تذكرت جنوني... نزل جزء من دمعة وانحبس الباقي، ثم دمعة كاملة، كدت أفقأ عيني، تحجري، قلت، البكاء... للنساء. ولم يعلم أحد من زملائي بعلاقتي معك، وأتصور ذلك.

ـ فهناك في أغلب الأحيان مايخالف أكثر مايعتقده شخص منّا ـ كان سلوكي معهم عادياً إلى أقصى الحدود، ويسرح ذهني، يسرج حول شخصيتك دون دافع مني، وأتساءل عن السبب ولا أحاول الإجابة. في إحدى المرّات، ذكرت لي بأن أعوان الأمن يتقبّلون الهدايا، وكان هذا التصريح العفوي من طرفك متعلقاً بزجاجة من الخمر الرفيع على ما أعتقد، لأذكر في الواقع ما أجبتك به ولكن ما أثارني، هو إقبالك الشديد على السكر، وقد ذكرت مرة أنك لم تكوني تسكرين. ولكنك الآن تفعلين. قلت ما أثارني هو الشرب إلى حدود السكر، إلى أن يتغير منظرك معه، ينتفش شعرك، تتدلى شفتاك وتفقدين التحكم في وتوازنك حتى لربع ثانية وتطلبين سقياك، ونقلك للنوم، وتنامين أحياناً دون أن تكشفي شيئاً من أسرارك، من ماضيك... فقط تتحدثين عن اللحظة التي نعيشها، وفقط قلت لنفسي، ربّما تشعرين بضعف الانتماء إلى أسرة، تقوم بالسّهر عليك...

يصنع الفرد فرادته عن البقية ويثبت ذاته بين مجموع الذوات الأخرى بينية جسدية قوية، أو بارتقاء، سلم وظيفي بسرعة البرق، أو بحسن التصرف في مال أو فكر... وفي النهاية هناك مايميز بشراً عن آخر... هذه قاعدة كنت آمن بها كإيماني بوجودي ولكنها كانت ذات مسار أتمناه... أمّا الآن فأمارسها أفهمت، أمارسها بشكل لم أكن أتمناه أبداً في السابق البعيد... إني لأاترك امرأة تشير إليّ باصبعها، أو تبتسم، أو تطبق طرفها... ولو لعباً ولا أركض في اتجاهها ولو امتنعت، واستعصت فلا بدّ من أن أدخلها الشركة. كما تراني... لست على غاية من الجمال والسحر الجاذب للنساء، ولكني أفعل شيئاً من المستحيل ثم أتركها تركض خلفي... إني أقول هذا الكلام لا لإثارة الغيرة أو الحقد في نفسك... ولكن لتعلمي مقدار التخشب الذي سارت إليه مشاعري... فتحوّل جهاز

التفكير عندي من قمة رأسي، إلى وسطي، من باطن دماغي إلى أعضائي الخارجية. هذه ميزتي عن بقية البشر، هذا التحوّل المهلك من مكان إلى آخر... لقد تعبت وأريد أن أرتاح الآن، ماحدّثتك عن نفسي قبل الدخول إلى الأمن إلا قليلاً. ربما أروي لك كل شيء في فرصة أخرى.

نهضت نافلة، وأشارت له بالانتقال إلى السرير، أما هي فقد سحبت سگارة من العلبة التي أخرجها أمين، أشعلتها ودخلت غرفة الاستقبال أو الجلوس، لتنفث دخانها هناك.

* * *

في اليوم الموالي استقبلت نافلة كلاً من آسيا وخديجة في منزلها. كان ذلك بعد انصراف أمين إلى الشارع. وعبرت نافلة عن أسفها لعدم زيارة آسيا في مكتبها بالمجلة، وتمنت أن تقوم بذلك في مستقبل قريب... ثم سألت خديجة عن أخبار شقيقها المتخفي عن الأمن، فأجابتها بأنهم أمسكوه، وأجروا معه التحقيقيات... ولاأحد يعلم الآن عن موعد عرضه على المحكمة. وشردت إثر ذلك وساد الصمت... أرعدت السماء فارتعشت آسيا، وقالت:

- يبدو أن مطرا غزيرا سيهطل.

فقالت نافلة:

- وربّما ثلج، الطقس بارد جداً!..

وبعد دقائق من الصمت المعبر عن الفراغ قالت نافلة تسأل الاثنين معاً.

- الربيع يقبل جرياً، والأثمار تسير إلى الفساد مع الأيام... ألم تفكرا بعد في قاطف لها؟!

- لم أفهم.

- ولاأنا.

- حقاً؟! معناه ألم تبحثا لكما عن زوجين. خطيبين؟! تقتربان الآن من الخامسة والثلاثين.

- هل فكرت أنت؟!

ـ وهل مرّت لحظة من حياتي دون التفكير؟ واحد أخذه الموت، والآخر هرب تاركاً ملابسه. والثالث لاأدري...

ـ سوف لن أقول أني شبيهة لك. قالت خديجة، ولكن أقول أني ولدت رجلاً... فكلما فكرت في رجل أجده امرأة...

ـ عانس؟!

ـ يا حسرة، أرمل...

ـ أما أنا، قالت آسيا وأضافت. فكرت، أتدرين فيمن فكرت.

ـ ابن الجيران، قالت خديجة.

ـ لا، وإنما في رئيس التحرير.

ـ جيد جداً، صاحب مؤسسة، بطنه كبير، ولكن يمكن التضييق منه.

إسعي، اسعي وانسي الباقي الآن.

ـ سعيت، ودخل القفص.

ـ الحمد لله، أقول مبروك إذاً.

ـ لا، وإنما قولي *دفع الله ماكان أعظم*.

ـ أيريد الدخول مع شقيقه؟ قالت نافلة.

ـ لماذا؟ هل أنا نزل! القفص الذي دخله من حديد وحجر. إنه دخل السجن حوكم ودخل السجن؟

ـ نعم!!

ـ نشر أخباراً كاذبة حول إحدى الفنانات... فرفعت شكوى. وأوقفت المجلّة، وحوكم رئيسي.

ـ أنت، عاطلة الآن إذاً؟! لماذا لم تخبريني من الأول؟

ـ لأن ماجئت من أجله ليس هذا.

صفرت ريح في الخارج فارتجت بعض النوافذ وسقطت مواعين في المنازل القريبة. وهطل مطر بلغت إيقاعات حبّاته على الباب والنوافذ آذانهنّ...

- اعذريني لم أفهم.

- ماجئت من أجله هوّ أن أعرض عليك مشروعاً للمشاركة في إقامة محل تجاري.

- محلّ تجاري! وماذا سنبيع؟!

- الكتب القديمة، المستعملة، الكتب الرخيصة.

- فقط؟!

- هذا يكفي في البداية.

- والصحافة؟!

- الصحافة! إلى الجحيم... كرهتها منذ اليوم الأوّل الذي اشتغلت فيه بالمجلة، كلها نفاق. وتفاهة، وكلام لايسمن ولايغني...

- مارأيك خديجة؟!

- الحقيقة أني متحمسة للفكرة، ولولا الافلاس الذي أعاني منه لما ترددت لحظة عن مشاركتها فيه.

* * *

-... وعموماً فهي إنسان بحواسه ومشاعره، بمآسيه وآماله، بأخطائه وصوابه كأي إنسان من هؤلاء البشر، لقد جعلتني أمتطي طرف جناحها، وأراقب الحياة من جديد، والدنيا بأسرها، فأعشقها وأخاف عليها.. أعشقها! لعلّه اللفظ الأقرب من غيره لتصوير مشاعري نحوها الآن، فكأنها مني وكأني منها...

تحدّث أمين لزميل له، رشّحه ليكون أعز أصدقائه هذه الأيام، واستمع الزميل بانتباه وانفعال لهذا الحديث حتى أنه نسي القهوة المضغوطة الجاثمة بكأسها أمامه، كانا جالسين داخل «مقهى نوّار» بمدخل المدينة الحديثة بالعاصمة، وكان المطر قد هطل في الخارج لساعة من الزمن ثم انقطع... فامتلأت المقهى بالغرباء، وتضبّبت أجواءها بدخان السجائر والشيشة... ودون أن يقطع أمين حديثه، قال مواصلاً:

- في البداية كنت أراها كما يرى التجار سلعهم، فهم يشترون ثم يعرضون للبيع... فيبيعون ويقبضون أموالاً، وتنتهي علاقتهم بتلك السلعة، ولعلهم مع مرور الوقت لايعودون يذكرونها... شئت أن أخبرها وفعلت صباح اليوم، فسمعت وكأنها لم تسمع

شيئاً... حافظت على نفس سلوكها المعتاد، ونفس أحاسيسها ورغباتها اليائسة... أنا الغبي الأبله لاأفهم لماذا. ولكني غبي... حاولت في إحدى المرات أن أكتشف ردّة فعلها إزاء زواجي، فاصطنعت كذبة، قلت لها بأني متزوج وأن زوجتي تسكن مع والدتي في الكاف ومع إخوتي الصغار، وهي من أراد ذلك، لأنها لاتشاء مفارقة حيّها، والأسرة والبلد عموماً. لأنّها أحبتها كما أحبتني... قلت لها ذلك، أرأيت وأخبرتها أني سأسافر إلى الكاف... فبكت كما لم أشاهدها من قبل. حسبت، أن السبب يكمن في الزواج الذي أعلنته لها حسبت أنه يكمن في عدم قدرتها على الانجاب، حسبت أنها لم تشأ مفارقتي، لأن ليس لها غيري، لقد صدقت أكذوبة زواجي كنت أنوي إبعادها عني، أو بالأحرى ترك مسافة من الجمود بيني وبينها، ولكنها لم تنفعل لكلّ ذلك، نعم لم تنفعل أفهمت، عندما هدأت قالت بأنها تذكرت أهلها وموطنها وصديقاتها بجهة بنزرت، إنها لم ترهم، ولم تزر بنزرت ولا إحدى مناطقها طوال ثماني سنين... ثماني سنوات، لم تر أحداً من أهلها ولا شبراً من موطنها الذي نشأت وترعرعت فيه... انقطعت عنهم قالت لي صباح اليوم، وانقطعوا عنها... حضنتها على صدري، قبّلت رأسها، مسحت دموعها بكفي قلت لها بأني سأكون أهلها وموطنها، وأسرتها، وكلّ عشيرتها... ورفعت وجهها عن صدري لأرى ماستكون عليه ملامحها... أتدري لقد بقيت جامدة للحظات طويلة. قالت فات الأوان. ابتسمت في الأخير قلت لها مؤكداً. ليس لي زوجة[1] ولا إخوة صغار... لقد توفي والدي إثر ولادتي بأشهر قليلة، سقط عليه جرّار وهو في الواد، حطّم صدره، مات على عين المكان والدي مات إثر ولادتي كنت نحساً عليه، شؤماً لم يعش كثيراً ولم ينجب بعدي... حاولت تشبيه وتقريب وضعينا من بعضهما البعض... اقتربت مني وقالت هامسة «رحمه الله»، لم تجف أدمعها بعد. قبلتني من خدّي، ثم جلست قبالتي قالت «لن أطمع في الزواج منك، أنا أيضاً امرأة نحس، أنا أعلم هذا، لن تصدقني. ولكن أنا أصدق ما أقول، إني أقترح عليك أن نبقى صديقين فقط... يكفي هذا... قد أكون إذا وافقت الزواج منك أكون... أكون...» ولم تنطق بحرف حول ما ستكون... إني أشعر أنها امتلكت صدري، جلست وسط قلبي دون أن تشعر، هذا ليس خطؤها على أية حال، إني أراها مشفقة على حالي صحيح لست في حاجة إلى الشفقة ولكني تأثرت، نعم تأثرت، قلت لها بيتاً من شعر المتنبي قبل أن أغادر المنزل:

«أصخرة أنا؟ مالي لاتحركني هذي المدام ولاهذي الأغاريد؟

إذا أردت كميت اللون صافية وجدتها وحبيب النفس مفقود.

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أنا شاك منه محسود.

فردت علي بشعر طويل لأبي العتاهية لاأذكر منه غير:

أملت أكثر ممّا أنت مدركه...وإن طالا

حتى متى أنت بالآمال مشتبك....

لقد زاد ماذكرته في حماستي، لاأدري كيف ولكنني متحمس. أتدري! إني لم أتعرف على واحدة من صديقاتها طوال معاشرتي لها، كأنها دون صديقات أو كأنها هي ذاتها صديقة نفسها. إني لم أرها، ولم أسمعها يوماً تتحدث عن صديقة، أو صديق لها. ربما لم أسع لمعرفة ذلك، ولكنه أمر خطر لي الآن، أليس غريباً... اشرب قهوتك. قد بردت وتغيّر لونها.

نظر زميله إلى القهوة، فوجد لونها قد تغيّر فعلاً، تذوّقها ثم تركها.

ـ لم تعد لذيذة...

ـ ما رأيك في الانصراف من هذا المكان. أشعر بالاختناق، وصوتي قد بحّ. نهض الاثنان وخرجا.

لم يحددا اتجاههما طوال السير، ولكن في آخر المطاف وجدا نفسهما بنزل بغداد وسط العاصمة، وأمامهما بضع قوارير من البيرّة مع موسيقى لاتدّل إلا على وجود حركة وحياة داخل القاعة... شرب الاثنان في البداية دون حديث كثير ثم وجد أمين نفسه يطلب زجاجات أخرى من نفس المشروب ويحكي لصديقه بصوت خافت ومنفعل:

ـ... أقول لك: شاهدت في منزلها عدداً من الصوّر المعلّقة، كان أغلبها يحمل خيلاً ترعى أو تشرب... أو تلاعب بعضها. حدّثتها بأني أحب الخيل..انتبهت لسماعها كلمة خيل، وألقت بصرها على صورة ماثلة داخل غرفة نومها، كأنها لم تكن معي في البداية، ثم كأنها دخلت خندقاً من الذكريات.. عندما أتممت حديثي كانت عينها اليمنى تدفع بدمعة لتتحدر على خدها. لم أسألها إلى الآن عن السبب. قلت لعلّها صدفة. أو تذكرت شيئاً من ماضيها البعيد، أنا أيضاً لي ذكريات بعيدة أبطالها خيل وحمير.... وقالت نافلة بعد شرود: «لاأعتقد أن هناك على وجه الأرض من لايحب الخيل هل تدري: الخيل ذكر في القرآن الكريم... لم أسمعها أبداً تستشهد بالقرآن، فاجأتني تلك

المرّة، تساءلت إن كانت تحفظ منه شيئاً نهضت واقفة واتجهت إلى الصورة وقفت قريباً منها، كانت الصورة ماثلة ولم تلمسها.. فقط تنظر إليها ثم إليّ وتقول: قد كانت لنا فرس بيضاء ناصعة كتلك التي على الصورة، كانت أليفة وذكية، تفهم البشر عندما يتحدثون ولو توفرت لها حبال صوتية كالتي للبشر كانت تجيبهم عمّا يسألون أو تساعدهم فيما يفكرون..» وصمتت لحظة من الزمن ثم قالت: «الحقيقة كانت الفرس لجارنا كنت صغيرة ساعتها، كنت أراها وهو يمرّ بها أمام بيتنا... لم تكن كبقية الخيل كثيراً ما أتذكرها الآن، وكثيراً ما أتذكر إيقاع خطواتها... عندما كنت في الجامعة حلمت بأن تكون لي، لي وحدي، فيلا كبيرة. وزوج لايفكر في شخص غيري وفرس تركض بحرية أنى شاءت... كانت أحلام، كأحلام ألف ليلة لايتحقق منها شيء»... وصمتت من جديد، وعزمتها على كأس من الويسكي... أحسست أنها تبكي في باطنها... أترى إنّها تتألم ماكانت تعلن ذلك كثيراً، كانت تميل على نفسها وتبكي... تبكي... قالت: «عندما انضممت إلى نادي الرسم بالكلية كنت أمعن النظر في تلك الرسوم التي تحوي خيلاً، كأني أنا التي رسمتها، ومارسمتها، تنهدت من أعماقها، أحسست ذلك، كأن ماضيها صار خلف الضفة الأخرى أو خلف الحياة مرة واحدة...مدّت إلى الكأس وقالت «إشرب، النواح لايعيد ما انصرم»... أضافت بعد ارتشاف مثير: «وجع للرأس، تفتيت للعينين، لا أكثر ولاأقل...».

* * *

لقد شرب أمين أكثر ممّا يحتمل في ذلك المساء، كما شرب زميله، حتى أنهما عادا معاً إلى منزل نافلة، فلم تقبل إدخالهما، تاركة إياهما تحت المطر.

ooo

الفصل الثاني عشر

ما كادت تمضي أيام قليلة حتى نسي الناس أمر عبّاس، والأمن الذي يبحث عنه... ليعتنوا بأحداث أخرى وقعت بينهم، كقدرة السيد سحنون على إنقاذ مركبه وبحّارته بعد أن أشرف على الغرق أثناء عاصفة مدمرة في عرض البحر... وجرأة بو خلال وهو شيخ عجوز على التغرير بابنة جاره المتخلفة ذهنياً، وتحويلها إلى صفّ النساء... ثم افلاس سعيد عطوني وانحداره إلى القاع بعد أن ملك نصف البلد الجنوبي، وليس له الآن إلا أن يعمل في حظائر البلدية ليكسب قوت يومه...

كان أمبرتو يبلغ جميع هذه الأخبار، والأحداث، وآراء الناس فيها إلى كلّ من عباس ومنذر، إذ كان نافذتهما على العالم الخارجي طوال تلك المدة، كما حدثهما عن قصته مع جليلة وسكان البلد، كان عباس يعلم نتفاً من هذه القصة من الأهالي ورغم أنه لم يكن متحمساً لفكرة الزواج التي عرضها أمبرتو فإنه قد تحمس لفكرة البحث في موضوع السّحر الذي أصاب عائلتها ودون أن ينسى، أشار، إلى أن ظاهرة السّحر هذه لاتميز الشعوب البدائية والأقل تطوراً فحسب، بل هي ذات انتشار حتى في الشعوب الأكثر تقدّماً الآن، وقد استفادت من تطور التقنيات وسرعة الأحداث... ككلّ شيء آخر...

لقد كان أمبرتو محافظاً على علاقاته مع أصدقائه القدامى، وعلى المواعيد المحددة، لأكثر من سبب، لعلّ أهمّها على الإطلاق هوّ عدم رغبته في أن يشك أحدّ في إيوائه لأشخاص هاربين من قبضة الأمن... ثم جمع الأخبار وإعادتها على مسامع ضيفيه... والمحافظة على المورد الذي يقتات وضيفيه منه... كان يعمل دون أن تتقلص مجهوداته، ويجلس في المقهى أو في الحانوت، ويسكر ثم يعود إلى البيت ليدخل في وردية ثانية أحياناً كثيرة... لقد لاحظ طارق عليه التعب أكثر من مرة وسأله عن السبب، وفي كل مرة يجيب أمبرتو بأن الطقس البارد وانحباس الأمطار هو السبب، ومع أن طارق لايفهم

العلاقة بين هذه الأشياء فإنه يدعو له بالصحّة، وينصحه بالحذر ثم يغير مجرى الحديث، ويواصل أمبرتو كتم مجهوده في مراجعة كتب السحر والتنجيم، والسهر مع عباس ومنذر بعد العودة، ثم نهوضه المبكر، وعودته المتأخرة أحياناً، والسكر ووجع الرأس... ومع ذلك مرّت الأيام رتيبة إلى حدود منتصف شهر فيفري حيث هطل مطر غزير طوال يوم وليلة. اضطرّ الناس فيهما للانحباس في منازلهم... وفي ليلة موالية، اتفق عبّاس ومنذر على مغادرة بيت أمبرتو، واتصل عبّاس بالريس وأقنعه بضرورة إيوائهما لديه، كان موعد التنفيذ محدداً في الليلة الفاصلة بين الثلاثاء والأربعاء. ولم يكن أمبرتو يعلم بشيء من كل ذلك إلى أن حان الموعد... الثلث الثاني من الليل: سكون وظلام دامس يخيم في كلّ مكان، حتى القطط غادرت إلى الدفء وتوارت الكلاب السائبة، وانطبقت الأجفان على بعضها البعض في كلّ الأرجاء... أيقظا أمبرتو بعد أن قضى أكثر من ساعة ونصف نائماً... أخبراه أنهما سيقومان بجولة في الحيّ القريب لينزعا عنهما شيئاً من الركود، جلس متثائباً وعيناه حمراوان تطفحان دمعاً، من أثر التعب والنوم، سألهما مرتعشاً.

- وإن رآكما أحد؟!...

- سنحطاط، لاتخف ثم إن الليل دامس...

- صحيح. ومتى تعودان؟!

- لن نطيل الجولان

- هل أغلق الباب؟!

- أنت وماترى... ولكن لاتفتح الباب لأيّ كان.

- حسناً.

ومال جذعه فانسحب داخل الفراش ونام، وكأنه لم يسمع كلمة ممّا قيل، وخرج الإثنان متلفعان بثياب شتوية خشنة... وسارا جنباً إلى جنب سيراً عادياً إلى أن وصلا إلى الشاطئ.

كان الموج شديد الارتطام بالساحل، والريح تقذف بحبّات الرمل الجافة كالابر... مشى الاثنان مهتديان بما يصدم أقدامهما من الماء... كانت الظلمة تخيم فعلاً على كل شيء وليس هناك من نور غير ماتقذف به مصابيح سفينة متوقفة في الأعماق... توقفا

لبعض الثواني، أشعلا سيگارتين وواصلا المسير، صامتين، وحيدين، غير نادمين على مايفعلان... ومع اقتراب الفجر تبدّلت طبيعة الساحل الذي يسيران عليه، ليصبح صخرياً... تثاقلت خطوات منذر وكاد أن يعلن تعبه، فهذه أربع كلمترات قد انسحبت الآن تحت أقدامهما ولايدري كم مايزال عليه أن يقطع، كانت السفينة قد توارت تماماً في اتجاه الغرب. وهمّ بإعلان ملاحظته لعباس فوجده يقول:

ـ نكاد نصل... لم يبق كثيراً.

التفت منذر إليه، ولكنه لم يميز ملامح وجهه، فتنفس بقوة ثم قال:

ـ أصحيح أن عمره يزيد عن الثمانين.

وأجاب عباس بسرعة وكأنه يخشى أن يقاطعه.

ـ نعم.. في الصيف كنت قد سألته، كما ذكرت لك، فقال أنه ولد سنة ألف وتسع مائة وأربع مع بداية جني الزيتون...

وقاطعه منذر فجأة:

ـ عباس انظر... ضوء أعتقد أنا وصلنا...

ورفع عباس رأسه ليرى هو الآخر هذا الضوء.

كان خافتاً غير بعيد جداً، ضحك وقال:

ـ نعم. هذا هوّ وصلنا.

وجرى الاثنان على الصخر المسطح كالمائدة.

* * *

ـ ساعتين وأنا أنتظر.

ـ الطريق طويل والريح قوية على الشاطئ.

قالا معاً وهما يلهثان، ثم دخلا الغرفة ودخل خلفهما، وضع المصباح على الدكه وقال:

ـ أتعبتماني، فالصحة بدأت في التراجع ولم أعد أبداً كما كنت. أنت منذر؟! (وأشار إليه باصبعه) سمعت عنك شيئاً يسيراً. أعطني سيگارة، قد نفذت سگائري أثناء

الانتظار، (وسلمه منذر سيگارة) جيد جداً. (وضعها بين شفتيه الرقيقتين والتفت إلى عبّاس) أشعل، وهكذا يكون بيننا الثلاث نار وسگائر.

وأخرج عباس علبة الكبريت من جيبه وأشعل سيگارو الشيخ، وبعد أن نفث دخانها لمرات متتالية قال:

ـ أنتما الآن نزيلان بهذا الفندق البائس. وبماأنه لايتوفر لديكما أجر تدفعانه فما عليكما إلا أن تقوما على شؤونكما بنفسيكما.

ـ هب أن لدينا الأجر...

ـ جيد، أنادي عرائس البحر إذا... هل أنتما مستعدان تماماً!! ولكن قل لي: كم ستبقيان؟

نظرا إلى بعضيهما البعض، ابتسما ثم قال منذر:

ـ الحقيقة أننا لن نبقى هنا.

ـ إذاً؟!

وقال عباس:

ـ سنتفرج على هذه المؤسسة ونمضي فقط.

ـ متى؟!

ـ بعد شهرين وربّما ثلاثة أو أربع، فمن يدري، لعل في الشهر الخامس. أو السادس يطلبنا البحر لعرائسه فيطول بنا المقام لشهر سابع أو ثامن.

ـ جيّد خصوصاً وأن الشهر العاشر والحادي عشر تزداد فيه الحركة...

وقهقهوا جميعاً، حتى بانت لهاة بعضهم، ثم عاد منذر يسأل من جديد:

ـ عم حسين، هل حقاً أن لاأحد يزور هذا المكان؟!

ـ أولاً أنا سلطان البحر كما سمعت صديقك يقول. ثم نادني بالريس هذا يكفيني، وأخيراً هناك من يزور هذا المكان.

جحظت عينا منذر، وأضاف الرّيس.

ـ ألم تسمعني أحدثك عن سلطان البحر، وعرائس البحر، أيوجد سلطان بدون

عرائس، في أي كتاب قرأت هذا؟!

زفر منذر وكأن أثقالاً نزلت من عاتقه. وابتسم عبّاس، وبعد لحظات، وواصل الريس حديثه.

ـ في مثل هذا الفصل لايلج هذا المكان إلا الهارب من قبضة الأمن، مجرماً كان أو سياسياً... لايهم، مايهم فقط هو الهروب... هل تعلم! منذ سنتين لم تطأ قدم على هذه الأرض غير قدمي، اللهم إلا إذا كنت متغيّباً ولم ألحق بالقادم...

أحسّ منذر بشيء من الدفء والعذوبة في صوت الريس، وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد، فهو يندفع كسيل هادئ من الماء، لايمكنك إلا أن تتواصل معه وتشاركه فيه... ونهض عباس عندما رغب في إشعال سيگارة، واتجه إلى باب الغرفة وألقى البصر في الأفق ثم قال:

ـ وبداية نهار جديد، الآن نخرج من ضيق محدود إلى ضيق شاسع بشساعة البصر.

ـ تقصد شساعة البحر.

قال الريس وهو يرفع المصباح ولمّا وصل إلى باب الغرفة أضاف.

ـ البحر أكثر شساعة من بصر الإنسان... من يستطيع النظر إلى كامل البحر بعينيه؟!

ـ فعلاً، يا ريّس.

ورفع ذراعيه خلف رأسه وشبك أصابعه ثم دخل وهو يقول:

ـ لست أدري، أهيّ الحرية، أهو الانفلات، أم هو النفي الآخر... والهروب!! الطبيعة البكر، العجوز، تحيط بنا يا منذر، بحرنا، غابتنا، شمسنا تعود إلينا بعد طول انقطاع، أليست هذه هي الحرية، الحضارة قيد، قيد. قيد يا منذر قيد. ونحن نسعى من أجل إبقائها ماسكة بمعاصمنا...

وضع راحته على ركبة منذر فوجده يتثاءب. ودون أن يبدي أي ملاحظة حول ذلك جلس في المكان الذي كان فيه ثم وجد نفسه يضيف.

ـ إنه الفجر، ومع الفجر تبدأ الحياة ورحلة أخرى في قلب الزمن... الفجر يجيء ومعه شيء لايحصى من الرغبة، والطموح، والأمل، أما نحن الآن فهو موعدنا إلى النوم. إلى السباة، إلى الموت المؤقت...

نهض منذر واقفاً وألقى بصره ناحية الشرق لحظة ثم عاد وهو يقول:

ـ أفضل من منزل أمبرتو على العموم... هنا العزلة والصمت الكثير... وهناك ضيق الأفق، والرغبة الملحّة... أليس كذلك؟!

خرج الريّس من الغرفة، غسل وجهه بحفنتين من الماء البارد، ثم مسحه بمنشفة معلقة خلف الباب الخشبي، وعاد فخرج مرّة أخرى. وبنهض الفجر لاهثاً في الأفق ككل يوم جديد، حدّث نفسه وراحتاه تمسحان شعر رأسه الكثيف، الأشيب وبعد لحظات وهو يحدق في الأفق مسبل اليدين أضاف: «إنه الأربعاء. انكسار الموج وشرشرة الماء على الصخر تقع على المسامع حادة متدفقة أحياناً، متضخمة كضربات متفرقة على طبل أفريقي أحيانا أخرى...».

لم يسيطر النوم بعد على أجفان منذر وعباس، كانا يتساءلان عن ردة فعل أمبرتو ساعة ينهض ولايجد أيّا منهما، ومع دخول الريس إلى الغرفة من جديد توقفا عن سرد الاحتمالات، اقترب من موقد طين لايكاد يميز عن غيره من الأثاث وقال مشيراً بيده:

ـ هناك ماء عذب، وسكر، وبنّ، ثم هناك حليب لطبخ قهوة... إذا لم يكن كافياً بإمكانكما حلب العنزة... حلّا وثاقها إثر ذلك وحوّلاها إلى الناحية الغربية مع صغيرها. الحبل موجود قربها، إذا أقلقتكما يمكن شدّها من رقبتها بذلك الحبل الطويل... اليوم أربعاء موعد قضاء حاجياتي من البلد...

وابتسم وهو يقبل نحوهما. ثم دمج ضحكة خفيفة مع كلمات قليلة:

ـ حاجتنا جميعاً الآن، وحاجتكما أنتما خصوصاً، ألستما حرفاء..والحرفاء يتطلبون الاعتناء بهم...

واستدار نحو الباب وماكاد يبلغه حتى أضاف.

ـ يا عمال النزل هبّوا وساعدوني.

هما عمال النزل الآن وضيفاه، وصاحباه أيضاً، فلا فرق بين الريس وبينهما غير «شعيطة»[1] السنّ التي يتميز بها.

وهبّا معاً، وساعداه على دفع القارب إلى الماء، كانا في الحقيقة يضعان كل جهديهما

(1) شعيطة: تسلق غير ارادي.

من أجل زحزحته حتى عرقت إبطهما، وما إن وصلا به نصف المسافة، حتى قال وقد أوقفهما عن الدفع:

- لايصلح عمل دون حكمة، وممارسة، انظرا. هكذا فقط يستطيع شخص، وإن كان شاباً مثلي أن يحوّله إلى الماء دون أن ترتفع حرارة إبطيه لا أن تعرق.

وأخرج ثلاث قطع من الخشب المستدير وضعها بالتوازي على الرمل وأمال عليها القارب ثم كادت أصواتهم تغمر أصوات الأمواج المتكسرة على الصخر بالناحية الأخرى...

* * *

لمّا تيقن أمبرتو أنه فعلاً قد استيقظ متأخراً، لطم جبهته براحة يده بشدّة، وجلس على حافة السرير مدلياً بساقيه نحو الأرض. كان هذا أول يوم ينهض فيه متأخراً منذ عادت صلته بأصدقائه إلى ماكانت عليه قبل مشكلة جليلة وأوّل يوم يخالف فيه وعداً يقطعه على أحد مؤجريه... فكر وهو ينظر بين قدميه، في الخروج إلى المقهى، ثم في مواصلة النوم مادام اليوم قد انصرم، واستقر رأيه أخيراً على اتمام قراءة كتاب «الأسرار والحلول، في السحر، والعقدة وما إليها من السطور» لاسرائيل شوده الافريقي، إذ لم يبق فيه الكثير، وما إن نهض واقفاً حتى عاد ليتكأ ونام...

عندما أفاق من جديد حوالي الساعة الواحدة ظهراً، تعجّب للهدوء المخيّم في أنحاء المنزل، ورفع الغطاء عن رأسه ثم رفع رأسه، ونصفه الأعلى أجال بصره في الغرفة، لاشيء غير السكون كأن لاأحد يوجد سواه، وأسرع في مغادرة سريره والبحث عن المتخفيين عنده، نادى بأصوات خفيضة على كليهما، مشى وسط الغرفة، ثم ولج الغرفتين الأخرتين، والمطبخ ودفع باب المرحاض فانفتح على فراغ... تساءل عن سبب مغادرتهما، وعن التوقيت، تساءل عمّا إذا كانا سيعودان أم لا، وعن وجهتهما... جلس على الكرسي أمام طاولة وحاول التخمين في كيفية ارتحالهما وإمكانية أن توقفهما الشرطة... لقد ألفهما... بل أضحيا كأخوين له أو أكثر، قاسماه الأكل والغطاء والحركة في هذا البيت قاسماه التفكير، والحزن والفرحة، وهما الآن يغادران دون أن يسألاه، أو يخبراه... أحس بكآبة ووحشة تخيم عليه وعلى كامل المنزل... حتى أنه عاد إلى ماقبل قدومهما من جمود وصمت. نهض واقفاً يبحث في الأوراق على الطاولة، ثم تحوّل إلى

المطبخ علّه يجد رسالة كتباها قبل المغادرة... ولكن دون جدوى، إذ لم يتركا أثراً في أي مكان من البيت. جلس على حافة السرير وعيناه ماتزال متفخة من أثر النوم، حدق في الجدران البيضاء، وفي السقف المرتفع في النافذة المطلة على وسط المنزل، أسند ذقنه إلى راحة يده ومرفقه إلى ركبته: أفزعاه عند القدوم في تلك الليلة الباردة وهما الآن يغادران تاركين الفزع والدهشة ذاتها... تثاءب نظر حوله كأنّما يريد الإتكاء، ثم وقف سار إلى المطبخ غسل وجهه من الماء المتدفق من الحنفيّة ومسحه بمنشفة معلقة على الباب، همس في أعماقه يعاتب نفسه، ويعاتبهما، فكر في البحث عنهما، «ولكن أين»! حاول دفع نفسه على الموقد، سكب فيهما حليباً، وما إنت قدح نار حتى تذكر أنهما أخبراه بنيتهما في الخروج ليلاً... كان غير قادر على الاستيعاب ساعة إخباره، فكأنه حلم حلم معتاد يتداول على مخيلته... غادر المطبخ تاركاً ما بدأ في فعله... «لعنة اليوم» قد أصابته ساعة الجدّ، والحاجة، وها أن المنزل الآن جرّاها يطفح كآبة ووحشة. وصمت... وكأن شيئاً نسل من حياته ميتاً. غادرت «سيرينا» وتبعتهما «جليلة» والآن عبّاس ومنذر يرحلان، ثم ماذا، وماذا؟!

نهض متثاقلاً من كرسيه... أشعل سيگارة، توقف أمام الغرفة. تذكر طارق. «وطارق ليس موجوداً في بيته ولافي المقهى، ولا في الحومة»، طارق يشتغل بسانية القرعي، وربّما الآن يتساءل عن سبب تخلفه عن العمل... «سحب نفساً جديداً. المرض عذر ـ وربّ عذر أقبح من ذنب... لاشيء يدلّ على ما يدّعيه، فقط تشتت الفكر، والسؤال المحير أين يمكن أن يذهبا، وهل يمكن أن يعودا؟! لقد تعلّق بهما. لقد أصبحا أكثر من أخوين بالنسبة إليه، ولكن لاشيء يدوم على حال واحدة، لاشيء. نفض ملابسه وخرج، لم يأكل شيئا، لم يشرب شيئا، دخن فقط... أضحت السيگارة بطعم نواة الليمون في فمه، مرّة حامضة، سار وعيناه تحدقان في الطريق أمامه، وبين الحين والحين يحدث نفسه أنه سيجدهما في مكان ما، وسيعودان معه، وسيعاتبهما... اعترضه محرز في العطفة فحياه بلغته الايطالية، لم يشعر أمبرتو بذلك إلا بعد أن ابتعد... ووقف محرز ينظر إليه. التفت أمبرتو وضحك في أعماقه... ضحك ونعت نفسه بالمجنون، ليس هوّ من أطلق النعت في حقيقة الأمر، إنها جليلة، جليلة التي اخترعته وأطلقته، «طلياني مجنون» جريئة صادقة، ولما لا. أشياء كثيرة في ذات الإنسان لايعلمها، ولايتفطن إليها إلا بإشارة الآخرين لها... ومرّة أخرى يجد نفسه أمام شبح جليلة، كأنها لم تمت، كأنها ماتزال

حيّة على وجه الأرض... كانت ستقبل به زوجاً، كان سيضمها إليه، وتتحد يد الشمال بيد الجنوب، ويمتد الجسر صلة لاتنقطع... ولكنه الموت وقف حاجزاً بحر ليس له شاطئ، امتداد لاينتهي، الموت انتحاراً، نهاية وبداية للمأساة، أو بداية ونهاية للوجود، للحياة... ولكنها غادرت الآن. غادرت غادرت بسرعة مذهلة دون أن تترك شيئاً. سوى ذكرى تآكلت أطرافها..

لماذا يتذكر هذا الماضي التعيس الآن؟ لماذا يذري رماده المالح؟ وأمامه ماض آخر يشرع في لفّ نفسه ليتم تشكّله، عبّاس منذر، والهروب من المنزل أحزان تشدّ بعضها البعض، وتطلق رائحة الذكرى.. فكر أنه سيسجل ما يشعر به، ومايفكر فيه وماحدث. وماقد يحدث بعد قليل، في دفتره سيسجله بالايطالية، سيذكر الأمن ويعيد تشريح وجوده في هذه البلاد... قد يجد نفسه في مأزق! لايهم، سيجد سبيلاً للخروج... نعم سيجد بعناده بإصراره سيجد، القليل من أصدقائه يعلم عنه ذلك وأغلبهم لايعلمون. يوم مليء بالهواجس، بالأحداث بالأفكار... ربما يلتقي صاحب السانية في طريقه. سيسأله عن سبب تخلفه... «لماذا لم تذهب إلى سانية القرعي؟» نعم سانية القرعي شجر البرتقال، والرمان، والزيتون، والخضر... بسباس وكرمب، وبطاطا.. أرض تؤتي ذهباً لاخضراً وغلالاً فقط... أشهر مليئة بالعمل رغم قلّة المطر:... ومع ذلك سيجد عذراً مناسباً يقنع به مؤجره...سيلتقى صاحب السانية، حتماً... إن لم يكن في طريقه الآن، يكون في آخر المساء في المقهى. سيلتقي أيضاً بطارق، سيعصر عقله عصراً حتى يصل إلى الحقيقة، ولكن أمبرتو لن يتجاوز قوله: «شعرت بالتعب، ونمت كقطعة من الخشب...».

لاأحد سأل عن عبّاس وهو يسير إلى المقهى. لا إشارة تدل على وقوع أمر جديد بالمدينة، الحياة رتيبة الآن حتى الجمود... فكر أنه لابدّ أن يبقى الأمر سرّاً وأن يجمع الأخبار لنفسه دون شوشرة...استمر الحديث عن عبّاس والشرطة لأكثر من ثلاثة أيام متتالية في المرّة السابقة... ترددت أخبار كثيرة، قالوا أنه يروّج مخدرات، قالوا أنه عميل لبلاد أجنبية، قالوا أيضاً أنه ارتكب جريمة قتل، وأنه يصنع أسلحة، وكلّ ذلك خطأ لاأحد يعلم الحقيقة غير الشرطة، وهو، وأمبرتو وأهله... الحقيقة الساخرة في هذا البلد حقيقة الانتماء إلى معارضة غير معترف بها من طرف الدولة... لاأحد يهتم بالسياسة في هذه المدينة، لاأحد يعرف اسم وزير صعد أو آخر نزل. مدينة منغلقة على معارفها السياسية... على جهلها السياسي، كأن لانفع لهم منها ولاضرر... كأن أدمغتهم لاتستوعب غير

أسعار الخضر والغلال والماشية، والأسماك... غير فضائح القتل والسرقة، والاغتصاب...
جلس على طاولة داخل المقهى وحملق حوله عدد قليل من الحرفاء أغلبهم يتنفس صمتاً، ويرتشف صمتاً، وينظر صمتاً.. قهقه في أعماقه ولم تبد على شفتيه إلا ابتسامة مسلولة الصدر، أسرع في كتمها، وضرب على صفحة الطاولة معلناً قلقه... وماكاد يرفع بصره حتى اصطدم بشيخ عجوز أشيب الشعر أشعثه، يتقدم نحو طاولته وبين إصبعيه سيگارة حلّوزي لايزيد طولها عن البوصتين، جلس الشيخ على الكرسي قبالته قال أمبرتو:

ـ أهلاً، ريس.

أشعل الريس السيگارة، نفث دخاناً أزرقاً بلون السماء، ثم أجاب:

ـ أهلاً بالسي الطلياني.

ـ هل تشرب شيئاً.

ـ شكراً... يقولون لمن لايعجبه شيء ما، يشرب من ماء البحر. أنا جئت من البحر أنا عصارة البحر. هل تعرف عصارة، أنا عصارة.

ـ «اكس براس» مارأيك في «اكس براس».

ـ لاحاجة، مرّة أخرى.

وابتسم أمبرتو وطلب من النادل أن يحضر «اكس براس» للريس ثم قال:

ـ هل مايزال البحر يكرمك.

ابتسم الريس ثم قهقه، بان نصف طاقم أسنانه العلوية، والبقية ارتحلت من مكانها، تاركة لغباً بنياً وكأنه قطعة من الحديد الصدئ...

ـ البحر: يا طلياني، قديماً عندما كنت شاباً، كانت زوارقي تصل شواطئ بلادكم، وترسو قرب مراسيكم، لاكما أنت الآن تفلت قحبة من بين أصابعك وتنتحر. البحر، نقطة ماء في كفّي، كهذه القطعة النقدية، لا أغازله هل تعلم، ولا أهادنه، هو من كان يفعل ذلك، وهو من يرسل خيراته إليّ، وأنا آخذ ما أشاء وأترك ماأشاء.

جفّ حلق أمبرتو لمّا سمع كلمة «القحبة»، فالريس على علم بكلّ شيء، ولايتوانى في احتقار من يعتبرهم ضعفاء وهو لاشك يقصد ذاك من خلال كلماته الجارحة... ضاقت مساحة المقهى بأمبرتو، وفكر في المغادرة ولكنه مع ذلك سيثبت التهمة على

نفسه أمام الجميع فلا هروب من البقاء، ولاسبيل لدفع المسألة إلا بالحديث والمناقشة أو طرح موضوع آخر... فسأل من جديد الريس دون تحديد فأجاب الريس وهو يسوي غطاء رأسه:

ـ يقلّ الجديد، أو تقلّ أهميته أحياناً، لايهم فلا فرق شاسع، عندما يسير الرجل في خط الزمن لاينتهي مادام حيّا بكلمة، يقيم الأرض على اصبع ولايقعدها، ولكن الحكاية تفقد بريقها بكثير من التزويق.. والكذب والتكرار، فبعض الحكايات تفقد أصالتها وطرافتها، لأن حسّ البطولة يسيل عنها... أنت تحكي ماتسمع، لاتخترع، مرة أولى وثانية تصبح مثل ذلك الجهاز. أما أنا وأمثالي، لانكرر، نحيا، نخترع الحدث، وبعده يكون دور أمثالك في الإعادة، والتكرار...

ـ مع أني لاأفهم الكثير مما تريد ابلاغه فأنا أستمع إليك... قد أقبل النادل بالقهوة، فاشرب أوّلا...

وضع النادل الكأس على الطاولة وانصرف. وقام الريس بإذابة السكر. كانت عيناه ضيقتين حادتين لاأثر عليهما، وكأن العمر الذي طواه خلفه لم يمرّ بهما... ومال عليه أمبرتو وسأل بهدوء.

ـ مضت عدّة أشهر لم نرك فيها، ولم نسمع عنك.

ابتسم الريس ورفع الكأس وشرب مرتشفاً. ثم أجاب وبصره كالسهام على وجه سائله.

ـ إني لم أتغيب قط عن موعد الأربعاء. تسأل عني وأنا إلى جانبك... وبعد لحظات من الصمت أضاف.

ـ يبدو أنك لاتنوي العودة إلى بلدك...

ـ الآن لا... ربما في السنوات القادمة، لست أدري...

أقبل عزوز أطلق السلام وجلس، وواصل أمبرتو.

ـ قلت قبل قليل يا ريس أنك كنت ترسو بزوارقك على شواطئ بلادي كان ذلك في السنوات البعيدة، كنت تغامر، تقودك شجاعتك، قوتك سيطرتك على البحر العصيب، فصنعت البطولة، وصنعت الخبر... وأنا مثلك. الحق لست بحاراً وليس لي زوارق... إنما ما لدي خيالي، وحبي، ورغبتي... أصنع حياتي كما صنعت أنت، وأصنع

تاريخي كما فعلت أنت... رغبة في توسيع التجربة والوصول إلى المتعة... أنت من كان يقول مثل هذا الكلام الحياة متعة... وإن لم تكن كذلك فلا حياة يا ريس.. ومتعتي في تغيير موطني، وهذا موطني الجديد سبع سنوات في هذه البلاد... ربما تعادل عمراً كاملاً، وكنوزاً لاتفنى...

كان الريس بحديثه الأوّل ينوي التمهيد لما سيخبر به أمبرتو... ولكن هذا لم يفهم إشاراته، وانطلق في حديث آخر لايكفل لأحد منهما أن يلتقي بغيره في نقطة يريدها، ومع ذلك حاول الريس تغير مسار الحديث جملة، ولكنه لم يفلح. وقد انضاف إلى المجلس محرز ليصبحوا أربعة وكلّ منهما ينشر أذنيه كأوراق التين ليلتقط كلّ كبيرة وصغيرة، ولم يتزحزح أحد منهما حتى ساد الصمت فقال محرز:

ـ رأيتك هائماً قبل قليل وعندما حييتك أجبتني بلغة بلدك هل وصلك خبر من عائلتك؟

ـ لا. أبداً.

ـ الجميع في السانية، طارق، حسان، محرز، عطية... إلا أنت!!

أزاح أمبرتو بوجهه إلى الخلف كأنّما يترقب أحداً، ولا أحد خلفه ثم أعاد التحديق في وجه محرز، وعزوز، وأعاد محرز حديثه، فأجاب أمبرتو على مضض:

ـ الواقع أني سهرت ليلة الأمس، أطالع كتاباً ولم أتفطن إلى مرور الوقت... ولما نهضت في الصباح وجدت رأسي يؤلمني، فعدت ونمت من جديد.

ـ عائلتك بخير، الحمد للّه.

ـ الحمد لله.

ـ ولكن؟..

وانتفض الريّس محتجاً في وجه محرز.

ـ تحقق معه؟ اشتغل في سلك الأمن إذاً! وكفى... ماهذا يا محرز.

وصمت محرز وكأنّما سكب عليه ماء بارد وبعد لحظات اعتذر من الاثنين معاً وانصرف.

* * *

يعلم الريس جميع تفاصيل مهمّته ويتقن الطرق الناجعة لتخطي العوارض. كما يعلم تفاصيل نشأة هذه المدينة الصغيرة، وتوالي استقرار العائلات فيها وأصولهم العرقية، وميزة كل واحدة منها، إنها الحياة، تفرض الاختلاط، والحكي، والنبش وقبضة من الحديد في وجه من يغريه التطفل ابتسم وهو يسير منتصب القامة ملقياً البصر على الواجهات... يتأمّل الدور ويأرجح رأسه، توقف لحظة أمام أحد أبواب المنازل ضحك كالمتهكم وقال في نفسه: «كانت، ثم أصبحت. على السطح مزقت اللحم. طرية بضّة ملساء، لو تعودين وأعود ساعة كما كنت، ويصفرّ وجهك. ويحمرّ» ماذا فعلت لك؟ قلت لك لاتتعجرف، ماذا سأفعل الآن، وماذا لي أن أفعل، أنا أيضاً أمام ذلك اللحم، الحبق، والعلم منتصب كالرمح لاينثني، العهر، كان... كان... والآن لم يعد، تحوّل أصلاً. وكم يكثر الحديث عن الأصول... «كان يتجه إلى حي الحسيني لينهي جولته، بالقاء نظرة على الحيّ ومايجري فيه قبل العودة إلى الزورق، وغرفته الوحيدة، المنعزلة على حافة البحر. اشترى الخيط لترقيع الشبكة، والنفط، والزيت، ولم يتمكن من محادثة أمبرتو على انفراد ليبلغ ماكلف به، وقد وجده من الصنف الذي يتحمل أداء المهمّات، وإن كان غير قادر تماماً على الإطاحة بخصمه أخيراً... الحسيني. الحيّ الأحمر زمن الاستعمار حيث السهر إلى مطلع الفجر سكر، وقمار، وعربدة... وحشيش... صار الآن خاو من الذين أقاموه، ارتحلوا... اختلطوا بالتراب، وقليل منهم ابتلعه البحر. الرسّاج، وعمراني، والجبّاسي... يا حسيني. أعود إليك وقد تبدّل وجهك... أعود إليك لأخدم أحداً من سلالتك الصافية وأنت على أعراشك خاو... وإن سكنك من سكنك... وألبسوك ما ألبسوك... ليست بدلتك... لباسك لايلائم أحداً غيرك، ولباسهم لايلائمك كجبة قصيرة... أفهمت كجبّة قصيرة يا حسيني. ناجاه في أعماقه. كأنّما لم يزره منذ عقود. كأنّما هاجر المدينة بأسرها، وعاد ليبحث عن أثر تركه.. مرّ قريباً من منزل عباس ترحم على روح والده...وجلس بمقهى النفاجي في آخر الشارع، طلب كأساً من الشاي، فجيء به، وأشعل سكّارة ودخن... كان يودّ لو مرّت والدته أمّا أخويه الصغيرين فلا يعرفهما، ولا داعي لجلب الانتباه بالسؤال عنهما...مرّ عدد من الشباب، والكهول وبعض الشيوخ، بعضهم ألقى عليه التحية من بعيد، وبعضهم الآخر صافحه وسأله عن صحته... ومن يعرفه من الشيوخ يجلس إلى جانبه... ويتبادل معه بعض النكت، والشتائم، سأله بنعيسى القباجي حال اقترابه:

ـ ومازلت تذكر الحسيني! وتقبل إليه!!

ـ أنعش الذاكرة... من يدري علي أموت هنا، ومن يدري ربما أبتسم وأنا أمرّ إلى «الجبّانة» على النعش.

ضحكوا... قهقهوا والريس معهم، واصل وعيناه تحرسان الطريق.

ـ ليس غريباً...

شبّه بنعيسى القباجي مازحاً، فرد الشتيمة، وعاد القباجي يسأل:

ـ لايشاء البحر إقالتك.

ـ لست أنت يا قبّاجي، أنا أمتصّ روح البحر إلى آخر لحظة في حياتي أقاومه. أكثر سلاطته على وجهه إن أفصح عمّا تقول، لست من يرضى بالراحة ويقبل الإقالة منكساً رأسه. فهمت يا قبّاج! فهمت؟! بعد العصر عاد إلى مركبه وجذف باتجاه الغرفة الراسية بين البرّ والبحر دون أن يحقق الكثير ممّا خرج من أجله...

ooo

الفصل الثالث عشر

جالسة على كرسي، خلف طارمة قديمة بمحل آسيا للكتب القديمة تحدق في الطريق بعين زائغة من خلال زجاج العرض. لاحريف في الداخل لاصوت ينبح من مذياع أو شريط... هي من أخمد نفسيهما، وبقيت تنقل بصرها بين بلاط الرصيف. الكتب المستعملة والمرصوفة على الرفوف وعلى الأرض، تستنشق رائحة ورقها الرطب... تنظر في الأقدام المتسابقة أمام المحلّ... وتسمع الوشوشات، والكلمات المنقوصة. فلا يبلغ المعنى منتهاه...

استوت نافلة واقفة وفمها مَفْغُورٌ، وعيناها تحدقان في المدخل... ارتعدت، صرخت، غطت فمها المفغور براحة يدها. تراجعت خطوة فاعترضها الجدار. صرخت من جديد:

- بسّام!؟!!!

- ......

- بسام... أنت حي... ألم توارى تحت التراب؟! أنت حي؟؟!

- ....

واستدارت لتخرج من وراء الطارمة... أسرعت لتلحق به... لتسأله إن كان حيّا... لتقبله... لتحضنه... وقفت أمام المحلّ حدقت في اتجاهي الطريق «بسام كان هنا... لايوجد بسام... خيال... شبح... وهم الفقدان... بسام قد مات... وأسند إلى التراب لن يعود بسام... لن يعود...» وعادت بعد لحظات لتجلس مكانها... قد رأته بعينيها... ولكنه الآن غير موجود... لعبة قذف بها الوهم والتقطها سريعاً... شربت كأساً من الماء... مسحت وجهها براحتيها... أعادت التحديق من خلال الزجاج في الطريق. ولكنها رأته، بسترة وسروال من الدجين واقفاً هناك ويداه مسبلتان... أيخطئ بصرها وقد التقط كلّ هذه الأشياء!! أيخطئ حقّاً؟! تعطلت آلة عقلها... ثويت

حواسها..صارت على أبواب الجنون... ستحكي، ستؤكد... هذه أوّل مرّة ترى فيها شخصاً قد مات وبعث حيّاً... ولكنهم لن يصدقوها... بسام مات ودخل صدر التراب.. مات وانتهى.. شربت كأساً آخر من الماء لطمت وجنتيها لترى إن كانت تحلم أم لا... أزاحت بصرها عن الطريق أثبتته على أحد الرفوف البعيدة في الداخل ولكنها لم تستطع البقاء طويلاً كذلك فأعادت النظر من جديد إلى الخارج... وسألت نفسها: هل تصدق ماشاهدت أم أنه فعلاً ضرب من الوهم دفعت به الوحدة، والفقدان، والتعب؟! لن تصدّق... بل تصدق... قدماه كانتا تطآن البلاطتين هناك... ثم تبخّر لن تصدق... ولن يصدقها أحد إذا روت له...».

دخلت آسيا المحلّ ومعها حريف التقت به في مكتب البريد عندما كانت تتسلم رسالة مضمونة الوصول، الحريف قال إنّه يسمى محي الدين. قدمته آسيا إلى نافلة وذكرت لها طلبه قالت إنّه يريد كتاباً لابن عربي والتفتت إليه وأضافت:

ـ قلت إن عنوان الكتاب هوّ «الفتحات المكيّة».

ـ فعلاً «الفتحات المكية».

ـ ستحضر لك نافلة هذا الكتاب سي محي الدين، بإمكانك أيضاً أن تلقي نظرة على مالدينا، لك الحرية التامة في التصفح، والقراءة... ونهضت نافلة بعد أن رحبت بالحريف، واتجهت إلى آخر رفّ بالمكتبة، سحبت منه أربعة مجلدات ضخمة. وضعتها على الطارمة، فأقبل سي محي الدين على تصفحها وقراءة عناوينها المرصوفة بالفهرست. ثم ابتسم في وجه آسيا وقال باقتضاب:

ـ ممتع جدّاً...

وعاد للتحديق فيها من جديد، صرخت نافلة وجرت مرة أخرى إلى الخارج إنه هو... هو ذاته قد عاد..

ولم تجد شيئاً. فغر الحريف فاه، ولم يفهم شيئاً مما يحصل ونهضت آسيا سائلة:

ـ من؟ ماذا؟ كيف؟!!

دخلت نافلة حانية الرأس، صامتة... لاتشاء الحديث عمّا رأته... وجلست على كرسيها مصفّرة الوجه من أثر الذعر...

ـ إنه هو... بسام عاشور يظهر ويختفي.

ـ بسّام عاشور؟! بسام

ـ أجل هو، هو ذاته بعيني هاتين رأيته، لم يمت.

ـ اهدئي، اهدئي... بسام قد مات ودخل التراب... ربّما ما رأيته شبيه له... ربما وهم جرّاء التعب.

ـ ولكني رأيته للمرّة الثانية هذا اليوم. قد رأيته قبل مجيئك لن تصدقيني أنا أعلم ذلك..

ونظرت إلى محي الدين كأنما تريد تأكيداً فقال:

ـ الحقيقة لم أر أحداً...

ـ حاولي أن تتماسكي.

ـ فعلاً، أنا أيضاً أنصحك بقراءة القرآن... اقرئي سورة الجنّ واستعيذي بالله. بسام كما تقول صديقتك قد توفي، ومن توفي لايظهر من جديد حياً على وجه الأرض... استعيذي بالله.

ـ فعلاً. صحيح.

قالت نافلة كأنما ترغب في وضع حدّ لهذا الموضوع... ثم بعد قليل وهي تسير خلف الطارمة، وتبدأ في النقر على أزرار آلة حاسبة.

ـ ينبغي أن يخلص الإنسان من الأوهام...

وعاد محي الدين إلى الحديث عن الكتاب، طلب من آسيا أن تخبره عن سعره دون شطط... الكتاب قديم، الكثير من أوراقه أصبحت صفراء ثم بالإمكان إذا عاملته، أن يصبح حريفاً مخلصاً. ابتسمت آسيا، وقالت:

ـ إذا كان ذلك كذلك فسأعاملك. سأخصم خمسين بالمائة من الأرباح المقررة، وأكتفي بالخمسين الباقية.

ونقرت نافلة على الآلة لتعرف ما سيدفع الرجل من أموال... ثم خرجت للطريق لتتنفس هواء أقل رطوبة وأكثر نقاء...

* * *

عدلت آسيا عن فكرة السفر إلى كندا، وعملت بالمجلة ثم توقفت، وها هي الآن قد

أقامت مشروعها التجاري بالاشتراك مع نافلة في أحد شوارع العاصمة. لايزال مشروعها هذا غضاً لايسمح بكثير من المجازفة. ويحتاج إلى تمتين الصلة بين المحلّ والحرفاء... اقترحت آسيا على شريكتها أن تستريح لبعض الوقت في بيتها لتهدئة أعصابها وذهنها تماماً.. ولكن نافلة رفضت هذا الاقتراح معللة ذلك بأنها لاتستطيع أن تكون مرتاحة إلا بين الناس... في لقياهم ومحادثتهم، في رؤيتهم وهم يسيرون، ويضحكون، ويتحدثون ويتخاصمون في سرعتهم وبطئهم... ففي ذلك راحتها وفي غيره تعبها، ومرضها... البيت أشبه بزنزانة، أو بغرفة في مستشفى لايؤمها إلا مريض أو زائر، ثم إن هذا البيت أضحى ركاماً من الفوضى واللامبالاة... ولايمكن أن تشعر فيه بالراحة في أي حال من الأحوال.

اقتنعت آسيا بحجج نافلة منذ البداية، ولكن بما أن موضوع البيت قد طرح فلتبد رأيها فيه، ولتحرص على إقناع نافلة بتغير موقفها منه وتغيير سلوكها فيه، فهي امرأة على أية حال، والمرأة سيدة البيت ثم هي صاحبته ولاشريك لها فيه هي المسؤولة عنه وهو مرآة لها... وطال الحديث وتوالت الحجج من الطرفين وبدأت نافلة تغير موقفها، ووجدت نفسها تتحدث لآسيا عن صديقها رجل الأمن القومي، أمين. كانت البداية دون شعور منها، فهي حريصة على عدم الكشف عنه... واستغربت آسيا لما سمعته، كانت مفاجأة غير متوقعة من طرفها حتى أنها لم تجد ماتقول إلا كلمة عتاب وحيدة.

- إني حزينة لاخفائك عني هذه المشاعر.

وقالت نافلة بعد لحظات من الصمت.

- وجدت نفسي على نار الوحدة، والأسى، واليأس... ماكنت أنوي مواصلة علاقتي به في الحقيقة، وماشئت إخفاء شيء عنك... وددت إمضاء ليلة أو ليلتين لسدّ جوعي، لتخطي أحزاني وألمي لنسيان الجرح النازف بصدري... صدقيني أني ماعرفت اسمه إلا أخيراً... وأنا إلى الآن أجهل اسم عائلته... لم أعرف إلا القليل القليل عمّا يتعلق به من معلومات وأسرار... لأني ماكنت أحب المواصلة معه ولايزال بسام عاشور بقلبي ساكناً... في كل مرة أقول إني سأقطع علاقتي به.وفي كل مرّة تقاومني الرغبة... ويشدني النهم إليه... كان معطاء... وطيباً رغم مايقال عن رجال الأمن، من قسوة في السلوك، وقسوة في الملامح... أخيراً وجدت نفسي أتعلق به... حوالي الشهرين، أو الشهر والنصف الآن، كان يناقضني إلى حد الانسجام، إني أجد نفسي متعلقة به...

نعم متعلقة به... ولكني خائفة!! ليس منه، فهو لم يسألني يوماً من أكون؟! ولكن بسام. أخشى أن يكون حياً فأخسر الاثنين معاً. أخشى أن يكون متخفياً، وكذب عني وعن الجميع بتمثيلية الموت التي صنع، لو اكتشفت وتيقنت أنه حي فعلاً كيف سيكون وقع الصدمة علي... إني أحببته فعلاً بكلّ جوارحي أحببته وهو حي أحببته وهو ميت، وما أنا فيه ليس لأجل أحد آخر غير...

- ستتيقن من كل شيء، الصبر فقط. على أعصابك أن تكون من حديد، قادرة على مقاومة مايصادفك من عوارض. أعدك أني سأكون إلى جانبك ولن أتخلى عنك... خديجة هي الأخرى ستكون إلى جانبك، هي أيضاً تحبك ولن تتخلى عنك.

- كما ترين لوح ينكشف إليك من أسراري، أسرارك... دأبت على إخفائه لأكثر من شهرين بقليل... ولكن لم أستطع تحمله أكثر... كشفته دون إلحاح دون طلب، بتلقائية، والحديث الآن يأخذ مجراه، كما الأحداث، كما المواقف التي تصنع من لاشيء أو من شيء بسيط، أو من أحداث أخرى ذات عمق وأهمية أكبر...

- إني أقدّر فيك هذا الاحساس. قولي لي هل أنت متأكدة فعلاً من مشاهدتك لبسام وليس شخصاً آخر سواه.

- كلّ التأكد... كان واقفاً هنا. نعم في المرة الأولى، ومتجه إلى الداخل، وفي المرة الثانية، كان أيضاً واقفا في نفس المكان ولكنه متجه إلى هذه الناحية من الطريق، كان يلبس «دجين» أزرق..

- هل كنت تفكرين فيه قبل رؤيتك، أقصد هل كنت تفكرين بعمق؟؟

- تعرفين؟! اسمعي أعتقد أن التيار لم يقتله، وظل مختفياً طوال هذه المدة.

ابتسمت آسيا - كأنها تشاء أن تضحك، وتضغط على نفسها، حتى لاتثير نافلة وخرجت هذه إلى الطريق من جديد وقفت لحظة ثم عادت وهي تقول:

- الحقيقة أنه يتوارى بسرعة، هذا ما يرعبني...

ألم يدفن ألم يشاهده الناس يسجى في الحوض، ألم يتم تشريحه بالمستشفى قبل ذلك. وإن لم يكن قد مات فلماذا يترك مشغله، ومشروعه الفني طوال هذه المدة ومن أين يصرف على نفسه... لماذا لم يره أحد غيرك... وأين يختفي... يا عزيزتي الأفضل أن تقلعي عن هذه التصوّرات... تتعبك ليس أكثر... فكري في حياتك، في شبابك،

في صديقك الذي حدثتني عنه.. فكري في منزلك وعملك، اشغلي نفسك بغيره... ودعيه ينم بسلام...

- صحيح... فعلاً.

- إذاً. ليس من الحكمة أن تعيدي هذا الوهم بين الحين والآخر... افعلي مثلي عندما بلغ بي اليأس أقصاه، ماعدت أفكر في عباس أحسبه مات، وأحسب نفسي لم تلتق به، لم تعرفه... على الإنسان أن يعيش واقعه، أن يبصر أمامه لاخلفه، أن يخطط... ويعمل، ويبحث عن مواطن الجمال، والمتعة الصافية في الوجود، الوهم لايجدي نفعاً... هذه حقيقة..

أقبل عجوز إلى المحلّ، كان يرتدي معطفاً طويلا، وشارباه أبيضان بنيان، وعلى عينيه نظارة سميكة بعض الشيء، يبدو أنه كان معلماً، أو أستاذاً بأحد المعاهد وتقاعد الآن. ألقى التحية باحترام فارتعش شاربه، سأل نافلة وهي جالسة على كرسي قبالة الباب، عن كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». نظرت نافلة إلى شريكتها، ثم أجابت أن ليس لديهما هذا الكتاب والحقيقة أنهما لم يسمعا بهذا العنوان من قبل، وعرضت نافلة على السائل عنوان كتاب آخر، قالت إنّ محتواه لايقل أهمية عن الكتاب المذكور، ولمّا أعرض الشيخ عنه واستدار خارجاً، نادته آسيا:

- بإمكانك يا سيدي أن تدع لنا العنوان كاملاً، واسم المؤلف، وعنوانك الشخصي، أو رقم هاتفك، وحالما يتوفر لدينا نتصل بك...

ابتسم الرجل وعاد إليها.

- هذا جميل، مثلك تماماً يا بنتي. العنوان. عنوان الكتاب: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي (شمس الدين) رقم الهاتف من اليسار إلى اليمين أربع مائة واثنان وثلاثون، تسع مائة واحدى عشر.

وشكرته على ثقته وشكرها على جدّها، ولطف أخلاقها ومضى... وضعت آسيا الجذاذة داخل دفتر صغير، ونهضت نافلة تراجع عناوين المؤلفات المرصوفة... مئات، مئات، بعضها يسند بعض من الأرض إلى السقف، ومن الباب إلى الجدار الداخلي، ووسط المحل رفوف أخرى ترتفع إلى السقف بينها معابر تكاد تكون ضيقة... قالت نافلة وهي تخطو إلى الداخل ببطء.

- لم أسمع بهذا الكتاب من قبل...

- أنا أيضاً لم أسمع به، ولكنه ليس الوحيد على أية حال فهناك آلاف من الكتب الأخرى لم نسمع بها، ومئات من المؤلفين ولدوا مغمورين وعاشوا مغمورين وتوفوا كذلك.

- فعلاً.

* * *

مرت آسيا بمنزل نافلة للذهاب إلى المكتبة، في صباح اليوم الموالي، كان رذاذ خفيف يبلل الطريق والسيارات الراسية على جنباته، الحركة عادية إلى أقصى الحدود. وريح باردة تحتك بالجلد فيقشعر، أو ترفع تنورة امرأة أو فتاة فتنحني لانخفاضه بحركة آلية...

عند الوصول إلى المكتبة أدلت كل منهما حقيبة كتفها على جانب من ظهر الكرسي... وبينما اتجهت نافلة إلى الداخل جلست آسيا وأخرجت بعض الأوراق من حقيبتها جعلت تنظر فيها. وقعت يد نافلة على بضع نسخ مختلفة من رسالة الغفران فاتجهت إلى آسيا وسألتها عن ثمن كلّ واحدة منها وما إن أتمت عرض الأسوام حتى تذكرت الرسالة مضمونة الوصول التي سحبتها بالأمس من مكتب البريد... لم تكن قد فتحتها ساعتها بسبب التقائها بالحريف الذي لازمها لأكثر من ساعة، ثم ماحدث لنافلة أثناء ذلك وبعده من توهم لوجود بسام على قيد الحياة... كلّ ذلك أنساها معرفة محتوى الرسالة إلى حدّ الآن، قلّبت وجهيها. قرأت المصدر «صنعاء اليمن» لاتعرف أحداً بهذه الناحية من الأرض، هذا غريب، افتضت ختمها بسرعة، فانتبهت نافلة لحركتها، اقتربت منها وقالت:

- من أين؟

- هذه التي تسلمتها أمس.

- ذكرتني، ماذا تقول؟!

ورقة كبيرة يبدو أنها كتبت من الوجه والقفى... بسطتها أمامها، وقرأت:

23 كانون الثاني 1990

صنعاء. الجمهورية اليمنية

الآنسة آسيا صرّاف.

تحية عطرة، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أمّا بعد، آنسة آسيا، فإنني عبد الله أحمد صالح المختار، يمني طبعاً، قد تعرفت على البلاد التونسية، على جمالها، ورحابة صدور أهلها من خلال زميلي وصديقي العزيز عباس منصور. فقد درسنا معاً بدمشق، وتخرجنا معاً في نفس الدفعة، واشتغلنا مراسلين إخباريين بمديرية الأخبار لاذاعة الجمهورية السورية من دمشق. الحقيقة كان لطيفاً، وطيباً وجادّاً في عمله إلى أقصى الحدود... لقد كان يذكرك دوماً، وكأنه لم يترك سواك في بلاده رَحِمَهُ الله، سواء في دمشق أثناء سنوات الدراسة، أو في اليمن، أو في وسط آسيا، كان يقول: «قلوبكم أبناء القارة تتمرّغ على آسيا واحدة، وقلبي يتمرّغ على اثنين معاً». لقد انفصل عن العمل كمراسل قبل سنة أو أقل بقليل، عندما كان يمسح شرق أفريقيا وجنوب الجزيرة مقراً العزم على زيارة جميع مناطق التوتر في العالم وجمع تحقيقات، ولقاءات ونشرها في كتاب إلى جانب أفكاره وتحاليله الخاصة، قبل العودة نهائياً إلى بلاده لاتمام فرحته وبناء الأسرة التي يحلم بها. يد القدر كانت قاسية عليه، فلم تمهله، والحرب لاتفرق بين مشاهد ومشارك. أنت آسيا أعتقد أنك فهمت المعنى، وأرجو أن تتقبليه بصبر، يد المنون الآن أخذته ولاشيء يمكن أن يعيده من جديد كما كان، فليكن الصبر، وليتغمده الله تعالى برحمته.

أقول في آخر هذه الرسالة، إن يد المنون أخذته، وهو على أرض الصومال عندما كان يحاور أحد الجنود، وغير بعيد عن زعماء القبائل، ودوّى الرصاص... سقط عباس منصور رحمه الله، وبقي محدثه والزعيم على قيد الحياة... وقد دفن غير بعيد عن مكان وفاته..

كانت العبرة تخنق آسيا وهي تقرأ ماجاء في الرسالة... والدمع يتقاطر على وجنتيها ثم على الورقة حتى سال حبر بعض الكلمات، لقد مضت لاعادة الرسائل إلى أماكنها، ونفض الغبار عن كتب أخرى منتظرة أن تخبرها آسيا إثر إتمام قراءتها، فلم تشعر بشيء ممّا اعتراها من حزن... لما التفتت رأتها تجفف الدمع من عينيها فتساءلت واتجهت إليها:

ـ ماذا؟ ماذا حدث، لماذا تبكين؟

ـ.........

- ماذا أثارك... أيوجد في الرسالة مايكيك؟!!

والتفتت آسيا إليها، وألقت بالرسالة أمامها.

- اقرئي.

- أخبريني، أوّلاً.

ورفعت الرسالة وقرأت الكلمات الأولى منها.

- رسالة... أتبكين لأن رسالة وصلتك من صنعاء؟!

- من صديق عباس.

- أي عباس.

- خطيبي الذي هاجر للدراسة بسوريا.

- هذا جميل ثم...

- عباس مات.

- مات؟! كيف؟! أين؟! ومتى؟!

- نعم مات، مات بالصومال.

- الصومال بشرق أفريقيا، وسوريا بالشام، ثم الرسالة من اليمن؟ أنا لاأفهم شيئاً الآن. ماحمله على الانتقال من سوريا إلى الصومال؟!

- رغبته، طموحه، حبه الشديد لـ...

- أي شديد وأي حبّ؟!... ماذا تقولين... أليس بسوريا... ألم يكن كاتماً لأنفاسه طوال السنوات الماضية...

- اقرئي... اقرئي سترين... لاأستطيع قول شيء... قد ظلمته، ليتني لم أحثه على الرحيل، ليته بقي هنا... قد توفي، توفي وأنا السبب. اقرئي وستعرفين اقرئي.

وقرأت نافلة بصوت مرتفع، وبسرعة وكأنها تسابق الزمن والكلام، وأنفاسها المتأرجحة بين أرنبة أنفها وحلقها... كلام على غاية من الأدب... خبر شؤم يبلغ أجزاء حبّ يتدفق ولايصل منتهاه... ورغبات، وإرادة... ورصاص يدوي ودماء تسيل وتراب... و

وانتهت الرسالة وليتها لم تبدأ... ونسيت صديقها وليتها لم تتعرف عليه أبداً... وضعت نافلة الورقة على وجه «الطارمة» وكأنها غير مصدقة لما قرأت... تراجعت إلى الخلف... نضب معين الكلمات، جف لسانها وتقلص حلقها... وبعد وقت قصير قالت:

ـ بدأنا النسيان، ولكن الدنيا لم تشأ أن تنسانا. لم تشأ، لم تشأ... ماذا نفعل يا إلهي... أكلّ هذا مقدّر... أكل هذا مكتوب علينا أن نراه، واحد يظهر بعد أن ثقب الثرى قفاه، وآخر يموت بعد سنوات من الفقدان والغياب ويقبل خبره من شرق الأرض...

بقي الدمع يتقاطر من عيني آسيا، والحيرة تسدّ حلقها ولاتشاء العبور، ويضيق تنفسها حتى تكاد تختنق ولاتختنق... فتقول:

ـ أنا السبب، أنا التي شجعته على السفر... ليتني لم أفعل... أنا السبب..

* * *

أقفلت آسيا ونافلة المكتبة بقية ذلك اليوم واليومين المواليين حداداً على عباس منصور، ولزمتا البيت. فعلم بعض أعضاء الحركة والجيران بما حبست آسيا نفسها من أجله، وأقبل بعضهم إليها للتعزية، حتى ضاق منزلها بهم... وفتحت مواضيع، وأغلقت مواضيع أخرى، فتحوّل البيت إلى دار ندوة، وضاق صدر آسيا بهم، وأعلنت انتهاء فترة التعزية قبل الموعد الذي حددته في السابق... وفي مساء اليوم الموالي، وهو اليوم الثالث لتقبل التعازي، وبينما كانت جالسة في غرفة الجلوس لوحدها ووالدتها ونافلة تعدّان شيئاً من الطعام في المطبخ، سمعت طرقاً عنيفاً على الباب، ارتعدت آسيا وظلت جالسة في مكانها، في حين أسرعت والدتها لفتح الباب، وأطلت نافلة برأسها من المطبخ، كان مختار واقفاً، دون أن ينبس بكلمة، ثم إلى جانبه خديجة، وخلفهما ربيبة. خرجت نافلة من المطبخ وضعت يديها على خصرها وقالت:

ـ أنتم؟!

وأجابت خديجة باقتضاب مماثل.

ـ نعم.

خرجت آسيا من غرفة الجلوس، ونظرت في القادمين إليها، ثم التفتت إلى نافلة، وقالت:

- أغلق موعد قبول التعزية.

- ماجئنا من أجل التعزية.

- إذاً؟!

- اسمحي لنا بالدخول على الأقل.

- تفضلوا...

ودخل ثلاثتهم، كان مختار مشوش الشعر، غير حليق الذقن، ويبدو أنه شرع في السكر، ولم ينته منه، في حين بدت كلّ من خديجة وربيبة مرهقة. جلسوا، وجلست آسيا، ثم نافلة، وطلب منهم شرح ماجاؤوا من أجله...

قالت ربيبة:

- ماجئنا من أجل التعزية كما ذكرنا. الحقيقة أني ماعلمت إلا هذا المساء ومع ذلك وأثناء قيامي بجولة في شوارع العاصمة، اعترضتني خديجة، قد جاءت للتعزية والمواساة منذ اليوم الأول أليس كذلك... قلت اعترضتني في الطريق فطلبت منها مرافقتي، فوافقت مشكورة وأثناء سيرنا مررنا بشارع ابن خلدون، وماكدنا نسير فيه خطوات حتى سمعنا من ينادينا..ماشئنا التوقف في البداية... لأنه صوت رجالي فيه الكثير من الصفاقة، وواصلنا السير...

- وبعد ذلك.

قالت نافلة.

- طبعاً بعد عدة خطوات صمت المنادي ولكنه أسرع يجري خلفنا، قالت خديجة، هل تعلمون؟! ماتخيلت أنه سيكون هذا الشخص الجالس معنا.

- ثم...

- مسك ذراعي وذراع ربيبة، وكاد يشتمنا.

قالت آسيا:

- أنا متعبة، هل تعرفين معنى أن يكون المرء متعباً خديجة، معناه أن روحه معلقة في أرنبة أنفه... فاختصري وأسرعي.

التفتت ربيبة إلى مختار وهو جالس صامت. ورائحة الخمر تفوح منه لكزته في

جنبه وقالت كالموشوشة:

ـ ألم أقل لك أنها لن تسمعك اليوم، ها أنت أمامها، ها أنت ترى.

ـ لم أفهم.

قالت آسيا، فعضت ربيبة شفتها، وقالت.

ـ الحقيقة أنّ مختار عندما لحق بنا في الطريق، طلب منّا أن نتوسط له عندك باعتبار أننا أصدقاء وأكثر قرباً منك من غيرنا، فطلب وألحّ إلى حدود التهديد بأن نطلب يدك للزواج منه.

ـ أنا؟!

وانفجرت مقهقهة. في حين لزم البقية الصمت، وزاد حذرهم.

ـ يا أم... قالت آسيا منادية والدتها، تعالي واسمعي، مهزلة القرن، بؤس التاريخ، سقوط الحضارة، هذا... الكائن، يطلب الزواج مني.

أقبلت والدتها فزعة، وقفت خلفها.

ـ ماذا... ماذا؟

ـ هذا المختار يطلب يدي، هل تتصورين؟!

وظلت المرأة تحملق في الاثنين معاً لاتدري ماتقول، كما خشيت نافلة وخديجة وربيبة من تعقد الموقف، فارتفع الحذر لديهن إلى أقصاه في حين أحنى مختار رأسه وغرق في سكون عميق، وهبّ هواء فانغلق أحد الأبواب المفتوحة ثم انفتح بقوّة، احتارت آسيا في إيجاد إجابة ملائمة تردّ بها على طالبها، نهضت واقفة، نظرت إلى الوجوه، مشت خطوات داخل الغرفة ثم عادت إليهم، نظرت فيهم جميعاً وجلست دون أن تقول حرفاً واحداً...

ووقع طرق رتيب على الباب، فخرجت نافلة لتنظر من يكون، وما إن عرفت القادمة، حتى أصابها الذعر ودون أن تشعر قالت:

ـ انتهت التعزية يا مدام. شكراً.

وهمت بغلق الباب، وسألت آسيا من مكانها عمن يكون، فأجابت نافلة بشيء من الكره والضيق:

- زوجة حسني عامر.

- أهلاً. عاد أعداء الأمس للتلاقي اليوم. أخبريها أن موعد تقبل التعازي ولى. وأن سعيها مشكور على أية حال.

سمعت المرأة كل كلمة قالتها آسيا، وظلت واقفة مع ذلك في مكانها. ولما حدقت فيها نافلة محتجة قالت:

- الحقيقة ماجئت للتعزية.

- جئت تخطبين إذاً.

- ولاهذا أيضاً.

- إذاً؟

- الحقيقة أن زوجي دعي للتحقيق معه، ليلة أمس.

- نعم؟!؟

- هذا ماوقع فعلاً...

- اشتدي أزمة، اشتدي، اشتدي...

- تعلمان أنه زعيم الحركة، وأنه لابدّ من مساعدته للخروج...

وأقبلت آسيا إلى الباب وسألت عن سبب البقاء في هذا الموضع... فأخبرتها نافلة، وهي لاتدري فعلاً ماتجيب به، وبعد لحظات قالت آسيا:

- يا مدام أمّا كوننا نعرف أن حسني عامر زعيم الحركة فهذا صحيح، وأما أن نساعدك فهذا مالانقدر عليه، لسبب بسيط وهو أننا تخلينا عن الانتماء إلى حركته منذ حوالي السنة، وأفضل سند تبحثين عنه هو محام ممتاز أما نحن فلا شيء...

مضت المرأة، وأغلق الباب وعاد كلاهما إلى غرفة الجلوس، وهي واحدة من أربع غرف متشابهة المساحة والهندسة تشكل منزلاً في «المدينة العربي» إلى جانب مطبخ ومرحاض من الطراز التركي القديم.

جلسا أمام البقية، وقالت آسيا وهي تمعن البصر في جه مختار:

- الطارقة كانت زوجة زعيم الحركة التي تنتمي إليها سي مختار، والخبر الأخضر:

اعتقال هذا الزعيم، وسبب المجيء: طلب المساعدة، والإجابة أن لامساعدة من طرفنا.

ـ قلت اعتقال حسني عامر.

قالت ربيبة، وشهقت خديجة غير مصدقة، وظل مختار جامداً في مكانه لايدري مايفعل ومايقول.

ـ هذا ماقالته زوجته وليس أحداً آخر سواها.

ـ طيب والآن؟!

قالت ربيبة.

ـ والآن، والآن، والآن؟ هل مازلت على صلة بالحركة، وأنت خديجة.

ـ لست أدري، قالت ربيبة.

ـ لا. قالت خديجة.

ـ كيف لست تدرين؟! كيف أريد أن أفهم.

ـ الحقيقة أني منذ ماقبل الاجتماع الواقع بورشة بسام عاشور لم أحضر ولم أدل بصوت...

ـ وأنت سي مختار؟!

رفع حاجبيه وأبقى على سكونه.

ـ اسمع! أعلم أنك مازلت متعلقاً بالحركة، وأعلم أشياء أخرى.

ـ ماذا؟!

قال صارخاً، مهتاجاً.

ـ قد تسوءك إن ذكرتها أمام الجميع الآن.

ـ أجيبي ماذا؟!

ـ لعلك لاتودّ السماع؟!

ـ ماذا تعرفين؟ قالت نافلة متسائلة.

والتفتت خديجة وربيبة إلى بعضهما البعض. فقالت آسيا تحث والدتها على النظر في الطبيخ.

ـ انظري أرجوك فيما تركت على النار.

وخرجت الوالدة، وقالت آسيا تخبر بما لديها الحاضرين.

ـ هل تذكرين يا نافلة يوم جئتني إلى المجلة وقلت إنّ أحداً ما يدبّر خطة لقتل بسام.

ـ أذكر.

ـ هل تعرفين ذلك الشخص.

ـ أهوّ أنت؟! أنت؟ من يدبر؟! أنت من قتله؟ أنت! أنت!

ـ الحقيقة يا جماعة أنه هوّ من كان يدبر لقتله.

ـ ولكني لم أقتله.

ـ فعلاً لم تقتله. يد القدر كانت أسرع من يدك أنت.

ـ خسئت، قالت خديجة.

ـ كأنك قتلت. قالت ربيبة.

ـ لم أقتله، أقسم أني لم أقتله، وحزنت أكثر من أي شخص آخر لمّا علمت بوفاته.

انخرطت نافلة في بكاء هادئ بينما واصلت آسيا حديثها.

ـ الحقيقة أني لن أحاكمك على شيء نويت فعله، ولكن اقول فقط وبكلمات تراها الآن صريحة، ولكن قد تستفيد منها في مستقبل الأيام لن أوافقك على طلبك، لأنك لست بالشخص الذي يؤتمن لديه، ثم احذر من نفسك... انفضت الجلسة.

هكذا وضعت حداً لحديثها وللجلسة التي فرضت عليها فرضاً، فخرج مختار ذليلاً محطّم النفس، غير قادر على التفكير في شيء غير الاتجاه مباشرة إلى بار «أدورنو».

وطلبت كلّ من خديجة وربيبة، العفو، والصفح من آسيا، ومن نافلة أيضاً... كما سألت نافلة عن مصدر هذه المعلومات وعن سبب كتمانها عنها طوال هذه المدة، فقالت آسيا:

ـ الحقيقة أنّ أوّل مصدر، أو رأس الفتيل كما يقال هو مختار ذاته فقد أشار إلى ذلك وهو في غمرة سكره وربّما لم يشعر بما تفوه ولم يعد يذكره، ثم بمواصلة التحري

توصلت إلى ماذكرت، ولكن الكتم لايعني غير المحافظة عليك أنت أوّلاً وأخيراً، فأنا أعلم أنك ستغتاظين كثيراً وربما تبادرين إلى أعمال لايحمد عقباها، فتخسرين نفسك ونخسرك جميعاً.

ـ أكثر من هذه الخسارة.

كانت الخامسة مساء تقترب بسرعة مهولة عندما انتفضت آسيا واقفة، واضعة حداً لهذا الحوار ونهضت خديجة خلفها ثم ربيبة، فأسرعت بإجالسهما طالبة منهما البقاء عندها هذه الليلة، ولكنهما اعتذرتا باعتبار أن أهليهما لايعلمان شيئاً عن هذه الزيارة.

ooo

الفصل الرابع عشر

تماماً مثل نار تشتعل بهدوء، وهي جالسة على تلك الربوة الغربية، تماماً مثل هرم من الصخر الأحمر وهو جالس قبالتها على دكة غرفته الوحيدة، تحدق الشمس في وجهه المكمش، ويحدق في مرآتها الملساء الساطعة، دون أن يعكس أحدهما الآخر... فقط تبتلع صورته داخل حمرتها الدموية فقط يبتلع صورتها داخل تجاعيد وجهه الحادة.

الأفق غير بعيد والشمس تدق الأرض يبطنها للانسلال رويداً... رويداً. إلى المغيب. اقترب منذر من الريس بهدوء وبصوت خافت قال:

ـ طالعك الشمس، ريس... لعلي لست مخطئاً!

ـ لا أدري ماتقصده، ولكن، أعشق الشمس... انظر حتى وهي تنحني إلى المغيب شابة... هل أنا مخطئ؟!

وأمال رأسه قليلاً باتجاه منذر. فبدت على عينيه الضيقتين ابتسامة مليحة، مفعمة إشراقاً، وبعد برهة قصيرة لم يسمع فيها رداً منه قال مضيفاً:

ـ ربّما لأني ولدت في العراء ساعة مغيب... لاتتساءل كيف عرفت. فوالدتي من أخبرتني. قالت ولدت وهي في طريقها لسانية الرفاع، قد أصبحت تسمى الآن سانية القرعي، خرجت تبحث عن والدي الذي لم يعد منذ الليلة السابقة، كان صاحب النصف في السانية، ولم يعتد التأخر أبداً عن بيته.. قالت ترقبته طويلاً ولم يعد، الرفاع في تونس ساعتها كان ينوي مقابلة الباي، وأحست والدتي بقلبها ينهش إثر العصر، ما استطاعت الانتظار أكثر... وقبل الوصول إلى السانية ولدتني، كان أبي قد مات منذ الصباح، لم أره، ولم يرني، قالت ولدت وشعري طويل كأنني «الزازية»[1] ما استطاعت الوصول، بقيت على حاشية الطريق، جففتني أشعة الشمس ولربما منها كانت رضاعتي

(1) الزازية: الجازية الهلالية.

الأولى... أسمر. لوني أسمر أليس كذلك؟ أعتقد أنّي ولدت وبشرتي بيضاء ثم تلك الأشعة هي التي شاءت تحويلي إلى السمرة، لست حانقاً بالعكس أنا سعيد جدّاً بها طوال حياتي... بقيت وبقيت والدتي على جانب الطريق، إلى أن مرّ رجل ليس من البلد، قالت يركب بغلة رمادية، الرجل من البلاد المجاور، الكبار يعرفونه، أتى مرتين أو ثلاثا بعد ذلك هوّ من نقلني ووالدتي إلى البيت، أنا حقاً أحبّ الشمس، وكثيراً ما أبقى أمامها هكذا. لقد مات والدي صباح اليوم الذي ولدت فيه، وطوال حياتي إلى الآن لم أشعر أني بحاجة لرؤيته، أو معرفته، كفتني والدتي عنه، الرجل الذي نقل والدتي إلى المنزل تزوّج مرتين وفي المرتين حضرت والدتي زواجه، كابن قد ألفنا وألفناه، المرأة الأولى انفجر قربها لغم، والمرأة الثانية أنجبت له ذكوراً. أين عبّاس، مابه؟ أنت أيضاً صرت تحب الشمس؟!

ـ كنت أستمع إليك، عباس تركته خلف الغرفة... سأناديه.

أقبل عبّاس، جلس على الدكة وتربّع، استدار الريس قليلاً حتى تقابل الاثنان تماماً. وقرفص منذر إلى جانبهما، رمى لكلّ منهما علبة سگائر كريستال. وسحب من جيبه علبة بوستة أخرج منها واحدة وضعها بين شفتيه، ووضع العلبة بما بقي فيها تحت ركبته.

ـ هل كانت الزيارة ناجحة هذه المرّة. قال عباس وهو يحدق في شفتيه.

أشعل الريس السيگارة، نفث دخانها، ثم أجاب بتأنّ:

ـ بعض الشيء، ليس تماماً... التقيت هشام بن خالتك في المحلّ، طمأنته أنك بخير. هذه المرة، كان المحلّ خال من الجالسين... طلبت منه أن يبلّغ والدتك لتطمئن، فأنا لم ألتق بشقيقك هذه المرة أيضاً، ولابوالدتك... حاول هشام أن يعرف أشياء كثيرة عنك، لم أخبره، قال إن كنت بحاجة إلى محام سيكلف صديقاً له، قال إنه محام بارع... بصراحة لم يعجبني أسلوبه في طرح هذه الخدمة، أحسست وكأنه يتهكم... لست أدري إن كان كذلك حقاً، ولكني أعتقد أن المال أفسد ضميره... لم أجبه، فكرت: أنتما ضدّ الحكومة، والمحامي ابن الحكومة، فهل يتخلّى عن أمّه ويقف إلى جانبكما... ثم ما تقومان به ليس جريمة قتل، أو اختلاس... أنتما معارضان كما قلتما لي، والمعارضة ليست جريمة، إنما هي حقّ، صحيح أنها حق قميء، ولكنها تبقى حقّا مع ذلك... هكذا فكرت:

ابتسم الاثنان وهما يستمعان إلى تحليله، جذب نفساً من سيگارته ونهض واقفاً، بدا طويلاً شامخاً، ورأسه مرفوع إلى السماء، تقدم خطوات مخلّفاً وراءه حفراً كانت مواضع قدميه... ثم التفت إليهما كما يفعل شيخ مسنّ وقال:

ـ انغمست الشمس وراء الجبل... انتهى نهار، وفي انتظار نهار آخر هل أعددتما العشاء.

ـ ما اصطدنا سمكاً... جلسنا منذ الظهر ملقين بالصّنّارة فلم تعلق واحدةبها.

ـ ابتسم، ناج البحر، تودد إليه ولاتعطه شيئاً، سيقدم لك سمكاً...

ـ أقف، وأسير خطوات في الماء أنظر إن كان مايزال به سمك فلا أرى شيئاً... كأنه أخلى حمولته.

ـ حسناً.

عاد إليهما، بنفس الخطوات التي ابتعد بها، سحب نفساً أخيراً من السيگارة. وألقى بالعقب تحت قدمه.

ـ حسناً، لنعدّ العشاء الآن... جلبت معي بعض مايلزم.

أعدّ الطعام، وجلس ثلاثتهم حوله، وقبل أن يرفع أي منهم لقمته الأُولى سأل الريس عن العنزة، فقال منذر:

ـ مشدودة الوثاق في مكانها، لم نشأ حلبها في المساء، قلنا لينعم صغارها عوضاً عنا هذا اليوم... هل التقيت بأمبرتو؟

وشرع الجميع في الأكل، كانت شعلة المصباح تبصبص بهدوء فتتبدل الانارة وتتحرّك الظلال بعنف في أماكنها... وخيم الصمت لفترة غير شقشقة المعالق بالآنية. ومع رفع عباس لآنية الماء ليشرب قال الريس:

ـ حقاً قد حزن أمبرتو... شاهدت ذلك على ملامحه وفي لهجته.

وضع منذر الملعقة في الآنية وأسرع بسؤال الريس عن السبب فأجاب:

ـ قال أنه عاملكما كشقيقين له طوال الفترة التي قضيتماها بمنزله، حتى نشأت بينه وبينكما ألفة وودّ، ثم غادرتماه كأن شيئاً لم يقع بينكم... كنتما قاسيين معه... بقي المنزل خالياً موحشاً، كأن لاحياة فيه..

ـ هو من قال ذلك؟!

ـ ولكنك لم تستطع إخباره في المرّة السابقة، أليس كذلك؟

ـ فعلاً. قد عاتبني، أنا أيضاً، بصراحة لم أجد ما أقوله له...

ـ أنت؟!

ـ ساعات الصدق الخالص، والمشاعر الفياضة، يغيب اللسان، ويخرس المرء.

ـ أنت!!

ـ مثل أي بشر آخر،ألم تصادفكما هذه الحالة.

خرس الاثنان، نظرا إلى بعضهما البعض، الظلال تتراقص على الجدران... وهدير الموج يقبل متأنّ... قالا بعد لحظة.

ـ ربّما!

ـ ليس مهماً الآن... قلت سأل إن كنتما بخير... وإذا ما تنويان العودة إليه قلت هذا أمر مستبعد... فنكّس رأسه.. ما كنت أحسست أنه بمثل تلك الطيبة والصدق.. ظننت أنه مثل أبناء جلدته، متعجرفٌ، وقحٌ... ولكن ظني خاب سأل إن كنتما تحتاجان لشيء فشكرته، أعتقد أنه سيسافر في الأسبوع القادم إلى العاصمة... ليس متأكداً على أية حال. قال إنه يريد شراء بعض الكتب ومؤجره لم يؤدّه أجره بعد.

أبعد منذر الآنية عن فمه وقد كان يشرب، كأنما بغت بشيء لم يتوقعه، قال وعيناه تحدقان في عيني الريس وشفتيه.

ـ قلت قبل قليل، إنّ الشخص الذي نقل ولدتك كان يعمل بائعاً متجولاً وأنه تزوج مرتين، وأن زوجته الأولى أصيبت بلغم، أليس كذلك.

ـ نعم هذا صحيح.

ورفع الريس رأسه مستغرباً، والتفت منذر إلى عباس وقد انقطع هو الآخر عن الأكل.

ـ أسمعت؟! ألا يذكرك هذا بشيء!!

ـ لا...

- ألم يسرد على مسامعنا، قصة مشابهة؟!

- من؟

- أمبرتو... أمبرتو. من؟!

- ذكّرني

- ألم يقل إن جدّ جليلة كان يعمل بائعاً متجوّلاً وأنه تزوّج امرأة وقد أصيبت بلغم؟

- آه.. فعلاً، فعلاً... تذكرت، الآن تذكرت.

- الحكاية التي أوردها أمبرتو صحيحة مائة بالمائة إذاً.

- وماذكّرك فيها الآن؟!

- لم أفهم؟ الحقيقة أني لم أفهم...

قال الريس، ونهض واقفاً تاركاً الأكل، والأدوات، في أماكنها واتجه نحو صندوق وضعه خلف الباب لما عاد من سفرته. أخرج زجاجتين من الخمر التونسي، وبعض الزجاجات الأخرى من الجعة، وضعها جميعها على الأرض، ثم أخرج خيوطاً للصنارة، شُصُوصاً وخيوطاً للترقيع... اتجه بها إلى عبّاس وهو يقول:

- هذه خيوط جديدة لهذا الأسبوع...

- حسناً.

- ابن خالتك طلب ضعف ثمنها، قال إنّها غير موجودة هذه الأيام في السوق.

- حقاً؟ وكيف تحصل عليها؟

- لست أدري!.. المهم أنه تمسّك بعرضه، وتناول في الأخير زيادة عن السعر الأصلي ثلاثة دنانير... قلت لك إن الفلوس أفسدت ضميره.

- كلب... لاتشتري منه في المستقبل.

- ومن أين؟ أنزل إلى بنزرت! إلى العاصمة! سنوات طويلة لم أضع قدمي في إحداها.

- الكلب.. أنا أكرهه منذ الصغر.. ولكن أجدني في كل مرة مجبوراً على التعامل معه.

رفع الاثنان مواعين الأكل وجمعوا الفتاة في صطل يوضع في الخارج ثم أعادوا فرش البساط، وأقبلوا بالزجاجات التي أخرجها الريس. كان لابد من الانتظار قليلاً قبل الشروع في الشرب، فالمعدة ماتزال تعاني حمولة الأكل وكي تستطيع استيعاب أكثر مايمكن من الشراب الأحمر لابد من الانتظار... وهي الآن بينهم جميعاً حتى لاينهض أحد منهم عند البدء... هكذا وجدوا أنفسهم متفقين على هذا الرأي في المرات السابقة، وهكذا يسلكون الآن بآلية خالصة... ومع ذلك كأن النهوض قبل الشروع سنة لابدّ منها، فنسيان المفتاح بعيداً لابدّ من أن يحصُل، والبحث عنه كذلك، ومحاولة إخراج السدادات من أماكنها لازم الوقوع وبأشياء أخرى حادة، وقوية، وغير صالحة. المهم أن تحدث حركية، وجلبة، وشتم، وسب للشيطان الذي أنساهما موضع المفتاح.

كان الريس وهو يسحب سيگارة من علبة بوستة، وقد اتكأ على جانبه مسنداً مرفقه إلى الأرض ساعة الانتظار، قد تذكر من جديد صاحب البغلة الرمادية، فسأل منذر عن سبب طرحه للموضوع سابقاً، وأخرج منذر سيگارة من علبته وكأن عدوى التدخين أصابتهم جميعاً وقال:

ـ حقاً كنت سأسألك... وقد ذكرتني الآن، المرأة التي تزوّجها الرجل... المرأة الأولى هل عملت سحراً لأبناء المرأة الثانية...

استقام الريس جالساً، ثم استند إلى حافة السرير سحب نفساً أو اثنين من السيگارة حتى جحظت عيناه ثم أجاب وكأنه اصطاد الإجابة صيداً...

ـ أذكر أني سمعت ذلك مرة أو اثنين لست متأكداً على أية حال، ثم إن هذه المرأة لم تبق معه طويلاً... سنتين فقط على ما أعتقد وطلقها بعد ذلك قيل أنها تعذبت كثيراً بعد طلاقها منه.

ـ أنت تذكر اسم عائلة الرجل.

ـ ابن الحسين، أعتقدْ

ـ بن محسن.

ـ فعلاً بن محسن... أذكر أنه أنجب ولدان..

ـ طيب هل سمعت أن هذه العائلة قد أصابها شيء بعد وفاته؟

قال عباس لأوّل مرة بعد انضمامه إلى الحوار.

ـ لاأذكر.. الحقيقة لاأذكر كلّ مالدي من أخبار هو ماجاء على ألسنة الناس ساعتها...

كان الريس لايعرف أحداً من نسل ذلك الرجل معرفة جادة، فقد انقطع عنه مع توالي السنين ووفاة والدته، وانسحابه إلى البحر أغلب الأوقات، كان يقضي أكثر من أسبوعين لايتخطى فيها المناء إلى البلد، ولايعلم من مصيره إلا مايحمله التجار من أخبار مشوّهة، أو ناقصة، وإذا نزل البلد ينصرف إلى مايعتقد أنه في حاجة إليه... كانت السنوات تسرع إلى الانسحاب خلفه وكان يسرع في تثبيت قدم له في ميدان الكسب والاسراف معاً... ماكان يعتقد في جدية الحياة، وماكان يعتقد في ركونها، هي كالبحر المتموّج دائماً حتى وإن لم توجد عواصف، حتى وإن هدأت شروات العالم جميعاً، فلا بدّ من أمواج «تمخذ» الماء «مخذاً».

سعل مرتين أو ثلاثا بهدوء ثم سأل:

ـ وهل يعرف أحدكما نفراً من نسله؟

قال منذر:

ـ أنا. لا!

وقال عباس بحذر شديد:

ـ ليس تماماً... ولكن بعض أهل البلد يعرفون... الحقيقة أن.. أن أمبرتو، أمبرتو الإيطالي الذي كنا نتحدث عنه أحبّ امرأة هي في الحقيقة كانت ماتزال شابة.

ـ جليلة، التي تحدثوا عنها؟! قال الريس.

ـ نعم هي ذاتها.

ـ شنقت نفسها. أليس كذلك؟!

ـ فعلاً هذا صحيح.

ـ إذ؟!

ـ قال أحد الشيوخ محدثاً أمبرتو أنها من نسل ذلك الرجل.

ـ ولكنها كانت عاهرة!!

ـ هذا صحيح أيضاً؟!

ـ لم أعد أفهم شيئاً، دعني أفهم...

وطرح الريس أسئلة بتفصيل شديد واستمع إلى الإجابة من الطرفين، وقبل أن يصدّق كلّ ماذكر له، دعا منذر لفتح زجاجة الجعة، فبادر هذا إلى فتح اثنتين، رفع الريس الأولى وسكبها دفعة واحدة في بطنه ثم رفع الثانية، وفعل بها مافعل بالأولى وكأنه مايزال شاباً صغيراً، وحدق الاثنان فيه، فهو لم يعتد القيام بمثل هذا العرض أمامهما، كما لم يشاهدا مسناً في حياتهما، يفعل مافعل هذا الريس... وخشي الاثنين عليه من أي إصابة، وظلا يراقبانه لأكثر من ساعة من الزمن، ولمّا تيقنا أن شيئاً لم يصبه، بل وكأنه لم يشرب قطرة واحدة... سمحا له بمواصلة الشرب وشربا على نخبه مراراً... وأعلن أخيراً أنه صدّق ماسمع منهما، بل وأنه لايستغرب أي شيء يمكن أن يقع في الوجود.

حوالي التاسعة صباحاً من اليوم الموالي، وبينما كان الريس ينظف مقدمة مركبه، شاهد شخصين يقبلان من وسط الغابة. لم يعتد رؤية هذا المشهد منذ سنوات عدّة.. ولذلك رمى بالخيشة على المجذاف وسار إلى الغرفة وهو ينظر إليهما، وما إن وقفا أمام الباب حتى نادى نزيليه آمراً إياهما بالاختفاء وراء السرير أو تحته، أو وراء الباب... ولبث يترقب القادمين إليه، كانا يلبسان زياً موحّداً، هو أشبه بلباس الجند لولا طابع كبير على الذراعين، هما من حرّاس الغابات إذاً، لم يتفوه بحرف واحد، وقد وقفا أمامه. قال أحدهما:

ـ أنت الريس، أليس كذلك؟!

وبعد برهة قال الثاني:

ـ نحن حارسان جديدان من حرّاس الغابات.

ـ طيّب... قال الريس وعيناه تقدحان شرراً.

ـ علمنا أنك تسكن هنا منذ بضع سنوات.

ـ قولا قبل ولادة أبويكما. ماذا تريدان.

ـ الحقيقة أن أشياء كثيرة قد تغيّرت...

ـ اسمعا. لاتضيّعا وقتاً، أنا هنا منذ خمسين سنة، ولا أنتما ولاغيركما قادر على تغيير موقعي، أفهمتما... لن أضيف كلاماً آخر فقط، ابتعدا عني سيكون ذلك أفضل لكما،

لاتقولا هذا شيخ ولايستطيع شيئا، لأني إذا تكعلصتما[1] سأجعلكما قديداً تتغذى منه الطيور، حاولا الحياد عن موقعي، لاتقرباني، لاأريد زيارة منكما ولا من أحد سواكما، تجنباني والآن إرحلا دون فضائح...

كانا ينويان الاستراحة، وتدخين بعض السكائر بعيداً عن الأشجار، ولكنه لم يدع لهما مجالاً لفعل ذلك، فقد كان قاسياً في رده، جاداً في فعل مايقول، ولذلك انسحبا عائدين تاركين الموقع ومافيه، لقد ظهر أمامهما كنسر أصلع خفيف الحركة، حادّ النظر شديد التحفز سريع الانقضاض وظلا طوال سيرهما عائدين إلى الإدارة يرددان ماسمعاه وماشهداه بشكل أسطوري خارق للعادة.

* * *

التقى عدد من الأصدقاء في الحانوت بعد آذان المغرب، كان مطر شهر مارس يتساقط رذاذاً بعد انقطاع دام أربعين يوماً... سأل طارق وهو يداول بصره بين الطريق المبلل ووجه أمبرتو:

ـ هذا اليوم ترقبك الرجل أيضاً ولعن العمال وأصولهم... هل أنت مريض.

ـ أبداً، ولكني أحسست «ببعض» الإرهاق... ثلاثة أسابيع من العمل المتواصل امتصت نخاعي.

ـ أنت مريض إذاً؟!

ـ قلت إرهاق بسيط، وقد زال الآن، وسأعود غداً...

ـ لاتتركه يغضب... أنت ترى سنة جافة تمضي كالشبح، والعمل مفقود والأسعار في صعود دائم... إذا تراخيت نادى لغيرك، وتمضي عليك شهور وأنت... عاطل...

اكتفى أمبرتو بهمهمة تدلّ على الموافقة... واستقرت الجلسة.. وسأل أحد الجالسين البقية عن رغبتهم في السكر فوافقوا، وجمعت الأموال وماهي إلا ساعة من الزمن حتى انتصبت القوارير، والكؤوس... وقبل البدء في تداولها صرّح طارق أنه لن يشرب كثيراً ولذلك لاينبغي الإلحاح عليه وسأل منذر شاهين وهو صديق جديد ينظم إلى المجموعة عن السبب فأجاب خميس جاموس بسرعة البرق، لأنه سيخطب وكل

(1) اللفظة تعني الاحتقار، وفي الأصل شكل تكون عليه فضلات الإنسان.

ملّيم سيصبح في حاجة إليه.. التفت إليه طارق وسأل متعجباً:

ـ من أخبرك؟!

ـ هذه الأخبار لاتختفي أبداً.

ـ حسناً، ومع ذلك ليس هذا هو السبب.

واستوضح سليم القابسي الخبر.

ـ يعني أنك ستخطب فعلاً؟

ـ نعم سأخطب وفي الأسبوع القادم بالتحديد.

وقال عبّاس بو عينين.

ـ ستكون أوّل المخرطفين منّا إذاً؟!

ودارت الكؤوس وشرب الجميع، وما إن اقتربت الساعة من العاشرة حتى دفع رجال الأمن الباب ودخلوا. فوجدوا القوارير منصوبة وسطهم وكأسين مليئين، وآخر بيد أمبرتو يترشفه جرعة، جرعة... وحاولوا منعهم في البداية ومصادرة مالديهم، ولكنهم عادوا فتركوهم بعد التحذير من إثارة الشغب. وفحص أوراقهم الشخصية. كانت هذه، غير المرّة السابقة بالنسبة لأمبرتو فقد كانت بطاقة هويته معه، وجواز سفره، ومع أنهم سألوه عن الحياة عامة ورغبته في البقاء هنا كما في المرّة السابقة إلا أنهم لم ينقلوه معهم إلى مركز الشرطة، وتداولوا النظر في أوراقه وتصفح جواز سفره وطرح بعض الأسئلة حول مايتعلق به من أمور، وتسرب بعض الأعوان إلى الخارج وماهي إلا لحظات حتى عادوا من جديد سائلين عمّا إذا كان أحد الموجودين يعلم مكان تواجد عبّاس أو اختفائه. ارتعد أمبرتو في مكانه وجحظت عيناه، قال في نفسه وهو يبتلع آخر جرعة بقيت في الكأس: «ها قد بدأ التنقيب والتحقيق... بدأ الضغط، والخنق... إني أتوسل إليك يا سيدي المسيح أن تنقذنا» وعاود أحدهم الاقتراب أكثر ناشراً بصره على الجميع، كأنما يسعى لاصطياد شيء ما. حدق في عيني أمبرتو للحظة طويلة، فوجد هذا نفسه يهمس لهما» يراقب مرورهما في عينيّ لاقتناصهما. اطمئن ليْسا عندي قد طارا إلى السماء. هبّا، فرّا... لن تجدهما. سأصلي لهما... سأدعو الربّ يسوع، لن تمسك أحداً اطمئن، سأفعل، ورفع العون رأسه وقال:

ـ نودّ التعاون، إن كان لديكم معلومة ما أخبرونا بها سيكون ذلك في صالحكم...

ونفى الجميع أن تكون لديهم أي معرفة... فواصل العون.

ـ نحن لانشاء تحميلكم أي مسؤولية ها أنتم تشاهدون، ولكن حذاري. ألقى آخر من نظر في جواز أمبرتو به إليه وهمّ وبقية الأعوام خلفه بالخروج... كان بعضهم يلقي نظراته الأخيرة إلى المجلس. وبعضهم يربت على مقبض مسدّسه... إلى أن دخل السيّارة واستقرّ فيها. تنفس أمبرتو الصعداء كغيره من الجالسين، وحمد ربّه على أن شيئاً لم يقع. همّ واقفاً وطلب كأساً أخيرة من الخمر، فدلقها جملة في بطنه واستشار طارقا إن كان ينوي العودة الآن هو الآخر، فنهض دون أن ينبس بشيء. هكذا فسدت نشوة السهر، ونشوة السكر معاً... ولاشيء ينفع لإعادتهما...

في الطريق، وقبل الوصول إلى منزل طارق، تذكر أمبرتو جليلة، وعائلتها... فألقى السؤال دون أي تأثيث له:

ـ هل لجليلة أخوات؟!

ـ (فاجأ السؤال طارقا، فثبت واقفاً مكانه، وسأل) أيّ! جليلة؟!

ـ جليلة... جليلة، أي جليلة؟! هل هناك ألف؟!

ـ لم أفهم. من تقصد؟

ـ التي شنقت نفسها!

ـ مالها؟

ـ هل لها أخوات؟

ـ عدنا إلى جليلة وأصل جليلة، ونسل جليلة...

ـ إني أسأل ليس أكثر، إذا كنت لاترغب في الإجابة، فلا داعي.

والتفت إليه دون أن يستطيع رؤية ملامح وجهه بجلاء، وظلّا صامتين طوال المسافة الفاصلة بين عمودي كهرباء قال طارق:

ـ كانت تقول أن لها شقيقة.

ـ تسكن مع والدها، أم هي مثلها عاهرة؟!

ـ لاأدري، لاأعرف.

كان أميرتو قد أنهى قراءة مالديه من كتب السحر والطالع، سواء المكتوبة بالعربية، أو الإيطالية أو الانكليزية، ومع أنه تعرّف على أشياء كثيرة تخص المجالين إلا أنها كانت بعيدة عمّا يريد الوصول إليه، فهي لاتتجاوز التعاويذ وأسماء بعض المستحضرات بشكل عمومي، دون الغوص في التأثيرات التي يمكن أن تؤديها، والمدى الزمني لفاعليتها، وهكذا كانت المسوّدة الأولى التي أعدها من مؤلّفه خالية من أي معلومات، أو استنتاجات مهمّة، ووجد نفسه يلقي بها إلى النار، ويفكر في الاطلاع على كلّ ما ألف حديثاً وقديماً في المجال ذاته، وما عليه إلا أن يبادر بالسفر إلى العاصمة والبحث عن المؤلفات التي لايملك منها نسخاً، وربما يفكر في السفر إلى بلدان أخرى من العالم لجمع مادته اللازمة.

لقد أضحت هذه الخواطر تلازمه بصورة مستمرة، وتوجه مقرراته، سواء منها الفعلية، أو القولية، وما سؤاله لطارق أثناء العودة، حول وجود شقيقة لجليلة أم لا، إلا شيء من نتائج تلك الخواطر. فهو لم يسأل شخصاً آخر عن صحة ما ذكره له علي الناصر قبل الشروع في البحث وأثناءه، ولم يضع سؤال الشك أمام أي خطوة يخطوها. والآن مع قحالة النتائج التي توصّل إليها عليه أن يغيّر منطلقات البحث ومنهجه.

قد كانت إجابة طارق نقطة إجابية في مساره الجديد، وأما النقطة الموالية فهي توفير مانقص من المعدّات، والبحث عن الشقيقة، ومحاولة المعرفة منها... قد يكون ذلك مكلّفاً أكثر ممّا يتصور... ولكن لايهم. سيسعى.

* * *

لاأحد يجرأ.

لاأحد يستنكر، لاأحد يبارك، الجميع يثبتون القناع، ويخفون الحقيقة وأية حقيقة، شيء ليس له وجه، ليس له أطراف، وسط حفلة تنكرية، دون ترتيب مسبق، ولكنها تبدو ناجحة إلى أقصى الحدود، الكلّ يتركون أدوارهم ويمارسون أدوار غيرهم، دون ذهول، دون ارتباك... دور الشاهد الغائب، والمتأسف السعيد... والخاسر الرابح... تعازي، دموع من شمع أو ثلج.. والنتيجة لاتهم أحداً، ولاتعني شيئاً... فقط أنا حي وبعدي، وقبلي الطوفان، لايهم، لايهم، المدينة، الحيّ، المنزل، تهتز ارتجاجاً بطلق الرصاص... يرمي السهام... ثم يخرس الجميع فجأة... ويكتم البعض أنفاسه ويرتفع

الصدى متأنياً.. الناس يمرون بلا وجوه أمام الجثة، وأية جثة، جثة لاتحتوي على رأس... رأسها قدم، طويلة... تنزل من العمارة وتغرق في غدير من الدم الأزرق... تسبح تنتفض، تقفز على قدم واحدة وترتج الساحة، الناس يرقصون، يهللون، يغنون... «الشتاء، تصب، والعزوزة ماتت، والشايب رحل» ينتفض القطار، والمحتفلون يتزاحمون من ثقب التنفس، صفارته تدوي، ثم ارتطام صاعق.

انتفض سليم القابسي جالساً، ووجهه يتصبب عرقاً، أحد ما في المطبخ أوقع قصعة الغسيل... نهض متثاقلاً، ومشى إلى المطبخ، والدته تقف قريبة من النافذة، ولابدّ أنها عثرت بالقصعة فوقعت وأحدثت قرقعتها المدوّية.

ـ أما زلت مستيقظة.

ـ اعذرني يا ابني، لم أدر كيف.

ـ لاعليك أريد أن أشرب فقط.

ملأت له دورقاً من الحنفية، وقدمته له... شرب منه وأعاده إليها... كانت تنظر إليه بشيء من الحب والفخار والعطف في آن وعندما استدار ليخرج نادته بصوت حنون. وقالت:

ـ لعلّه ليس الوقت المناسب للحديث في هذا الموضوع ولكن...

والتفت إليها متعجباً، فوضعت الدورق على الدكة، وتعجلت الخوض في الموضوع مباشرة.

ـ افكر في البحث لك عن عروس.

ـ الآن؟ طيب. ولكن الآن؟

ـ لاتصرخ هكذا... ليس الآن، ولكن منذ أسابيع.

ـ وهل اخترت؟ الحقيقة طرأ ببالي عدة فتيات ولابدّ أن أعرضهن عليك لتختاري.

ـ هذا جميل، أسمعني... أريد أن أعرف.

ـ ليس الآن، غداً، غداً سأخبرك.

وأسرع خارجاً، كان يرغب في التملّص من هذا المأزق أولاً، والنوم ثانياً وتأجيل فكرة الزواج أكثر فأكثر ثالثاً. أسرعت خلفه، حتى الباب، وهي تعلن له عن شوقها لمعرفة

اللائحة التي أعدها. ولما دخل الغرفة ولم يجبها سألت إن كان يود أن توقظه باكراً، فأجابها ولم تتبين إجابته ومع تمدده على السرير لم يحاول استجلاب النوم، إذ بقي يتذكر الحلم ويحاول فهمه وتفسيره بما استطاع من جهد، فهو لم يسكر في بداية الليل، فقط، ثلاثة أو أربعة كؤوس متباعدة... لماذا لاتحوي الجثة رأساً، وإنما قدماً طويلة، لماذا كلّ ذلك التحوّل من منزل إلى شقة بعمارة، إلى ساحة في الطريق، ثم وسط القطار، ولماذا التنكر وهو لايعرفه إلا على شاشات التلفزة... والأغنية أغنية الأطفال الأشقياء... الحلم غريب، والأمن أضحى يَتَدَلَّفُ كل لحظة بدعوة، ودون دعوة والرغبات تتزاحم، والمشاكل تتزاحم... ولا أحد يعلم ماستكون عليه الدنيا في أقرب الآجال... وقبل أن يطفئ النور أشعل سيگارة دخنها، مذاقها مرّ... سعل... أطفأ النور، تمدد، ثم نام...

* * *

نهض سليم من تلقائه باكراً، أعد نفسه وخرج وفي طريقه عرّج على منزل ابن العربي ثم طارق، وقرّروا جميعاً المرور إلى أمبرتو، كانت المسافة بين منزل طارق وأمبرتو متوسطة ولذلك طرح سليم موضوعه الجديد وهو الزواج وما إن سمعه طارق حتى قهقه، وقال:

ـ هه قد بدأتم تتقاطرون في نفس الآنية...

ـ لست أنا من طرح المشروع، لو بقى الأمر لي لأجلت التفكير فيه لعشر سنوات أخرى ولكن والدتي سامحها الله...

ـ والدتك؟! هذا جميل... هكذا تبدأ مشاريع الزواج وإنشاء البيوت.

قال طارق، وكأنه يؤكد في نفس الوقت أن الخطبة التي تحدث عنها بالأمس ماكانت بمبادرته هوّ، وإنما جرّاء مبادرة الوالدة.

وقال ابن العربي:

ـ لو بقيت الفتيات تحت رحمة مبادرة الرجال ماكانت واحدة منهنّ لتحظى برجل ولو بقيت العمر كلّه.

ـ ربّما...

قال سليم وهم يقتربون من منزل أمبرتو، فأكد ابن العربي بقول وحركة من يده مطبقة:

ـ هذا أكيد يا فالح، ولا ربّما فيه، أكيد إلى آخر الدنيا.

تقدّم سليم إلى الباب وطرق طرقات خفيفة براحة يده، ثم نادى بصوتين أو ثلاثة، ومشى إلى حيث خميس وطارق قرب الجدار المقابل، لم يسمع أمبرتو الطرق ولا النداء إذ مايزال نائماً. فتقدّم طارق وصبّ على الباب وابلاً من الضربات جعلت أمبرتو في الداخل يقفز واقفاً ويتجه لفتحه، كان عليه خلعه فقط، شعره مشوش وعيناه منتفختان من أثر النوم أطلّ برأسه فلم ير منهم أحداً. كانوا ينظرون إليه صامتين لاكتشاف ردة فعله، ولكنه لم يقل شيئاً، وشرع في غلق الباب، فناداه طارق وأمره بالاسراع في إعداد نفسه، فأعاد أمبرتو الاطلال برأسه من جديد، ولمّا شاهدهم وضع راحته على عينيه، وبصوت خافت مبحوح، قال إنه لايستطيع العمل هذا اليوم أيضاً. وفاجأ هذا الردّ ثلاثتهم، إذ كان ينتظر منه أن يقول أي شيء آخر غير ماسمعوه، فهو بالأمس أكد أنه بخير، وشرب بعض الكؤوس، ووعد بالانصراف إلى السانية ثم يعلن هذا الصباح أنه مريض، ولاشيء يبدو عليه من علامات المرض!.. اقترب منه طارق وسأل عن السبب الفعلي غير المرض، ولكن أمبرتو لم يضف شيئاً غير ذلك...

انسحب الجميع وواصلوا سيرهم باتجاه سانية القرعي ـ دون أن يقول أحد منهم حرفاً إلى أن أمضوا نصف المسافة، حيث سأل خميس عن إمكانية توفر الكبريت لديهما إذ نسي شراء علبة بعد خروجه من بيته، فانهدم جدار الصمت، وتوالت الأحاديث والأسئلة، والاستشارات دون أن تتجاوز مواضيع الخطبة، والزواج، والفتيات الصالحات لذلك من أهل البلد...

كان أمبرتو قد ارتدى ثياباً أنيقة وباشر بحلاقة لحيته، والحقيقة أنه مافكّر فيما سيقوم به هذا اليوم منذ وضع رأسه على المخدّة ليلة أمس، وما إن أتمّ جميع تفاصيل إعداد نفسه حتى اتجه إلى محطة الحافلة، وهناك قرر السفر إلى العاصمة، الطقس بارد، والريح هادئة، وفي النصف الثاني من الطريق أمطرت السماء بغزارة ثم انقطعت فجأة، كانت الحافلة ترتج طوال الطريق وكأنها علبة سردين يسحبها طفل صغير بخيط ومع أن المسافة الفاصلة بين البلد والعاصمة لاتزيد عن الساعة من السير المعتدل، فقد توقفت الحافلة مالايحصى من المرات حتى أقلق سلوكها هذا أمبرتو، وتسرّب هواء بارد إلى الداخل فغمس يديه في جيبه وأمعن النظر من خلال الزجاج. بعض المسافرين أعلنوا ضجرهم من هذه الرحلة، ومن الحافلة التي تنقلهم، بعض الشتائم الخافتة تتسرب بين الفينة والأخرى،

ولم يلتفت أميرتو إلى أي شخص ممن حوله وكأن مايشاهده من وراء الزجاج قد سلب لبه وعزله عنهم جميعاً...

دار في شوارع العاصمة، توقف أمام المغازات، وقاعات السينما، قرأ عناوين الكتب على الواجهات الزجاجية، ومعلقات الحفلات... لاشيء يسيطر على هذه المدينة غير التعب البادي على أهلها وتكلّح الوجوه... الأكيد أنها ماكانت هكذا في يوم من الأيام، ولكنها قد صارت الآن كذلك... كانت ساعات اليوم تمضي بسرعة دون أن يحقق شيئاً... كلّ الأشياء بدت له بخسة تافهة، فاقدة للمعنى والقيمة... ومع استمرار سيره أحس بشوق لريح بلاده لضحكات أهلها، لواجهات مبانيها العظيمة... هل تراه يعود إليها يوماً، ويذكر من ترك من الأصدقاء والأقارب... عجعجت الفكرة في دماغه كبخور الشمّاسة في الكنائس... وواصل السير، السياح يملؤون ساحة باب البحر وشارع فرنسا وبدايات الأنهج المتفرّعة عنها، ألمان، انكليز، زنوج أفارقة وإيطاليون... وربما بينهم قطعان من جنسيات أخرى من اقاصي العالم... كم مضى عليه من الزمن لم تطأ فيه قدمه هذه المدينة! وها قد عاد، وتنفّس في واجهات مبانيها... أمام واجهة إحدى المكتبات القريبة من جامع الزيتونة، توقف، وقرأ ماجلب انتباهه من العناوين، اقترب منه كهل نحيف طويل:

ـ تفضل سيدي، أهلاً بك.

ـ أهلاً.

ـ هل تبحث عن كتاب محدّد؟

ـ أتفرّج، فقط أتفرّج.

ـ أساعدك إن شئت؟ لدينا عناوين قيمة.

أحس أميرتو بارتياح لهذا الذي يخاطبه، فالتفت إليه حتى أضحى الاثنان وجهاً لوجه ثم سأل وهو يبتسم:

ـ هل أجد لديكم كتباً عن السحر؟

ـ لا. ليس لدينا، المعذرة، مالدينا هي كتب دينية، وعلمية، وأدبية. فقط. بعد لحظة وقد عاد لقراءة واجهة أخرى من الكتب، قال أميرتو:

هل تعلم مكاناً لبيعها يكون قريباً من هنا؟

ـ الحقيقة لا، لاأعرف! (ثم بعد لحظات)، هناك مكتبة بباب الجديد أعتقد أنك تجد فيها ماتريد.

ـ باب الجديد.

ـ اذهب أنت إليها على أية حال، وستعرف...

ـ شكراً جزيلاً...

لم يتحوّل إلى باب الجديد، ولم يفكر في الذهاب إليه فقط، تقدم بضع خطوات حتى وجد نفسه أمام جامع الزيتونة، ألقى عليه نظرة من الخارج، ثم واصل مسيرته وعرج على المكتبة الوطنية، توقف أمامها لحظات ثم سار في المنحدر إلى أن وصل إلى ساحة باب البحر من جديد. جلس أمام أحد مقاهيها، دخن سيگارة... وضع ساقه على الساق الأخرى أبدل الوضعية بعد ذلك ثم نهض دون أن يشرب شيئاً... سار في أحد الأنهج الملاصقة للمقهى، وعيناه مغمستان في الرصيف... لقد تذكر طارق والقرعي، كما تذكر جليلة، لقد كانت واثقة من نفسها وفعلها كأشدّ مايكون الوثوق... مابدا عليها شيء من الرهبة والخوف كما عرفها، وكما تحدثت عن نفسها في رسالتها الطويلة... وقبل أن يسير في أحد المنعرجات رفع بصره ليقع على لافتة مكتوبة بخطّ كوفي، تهجّى حروفها من مكانه: «مكتبة آسيا للمؤلفات القديمة» اقترب منها، أعاد التأمل في اللافتة، نظر من خلال زجاج الواجهة، همّ بالدخول، نظر يميناً ثم شمالاً، تقدم خطوة، ثم أخرى، وأخرى... دخل، وضع راحتيه على الطارمة وسأل بأدب جمّ عن صحة العنوان المكتوب في اللافتة...

ooo

الفصل الخامس عشر

عظم بطنه، وضلت عجيزته صغيرة، فبان عدم التناسق في الشكل الذي أضفى عليه.
إقترب من أحد الكراسي المرصوفة أمام الحانة المقهى، بشارع بورفييه سعبه قليط وجلس.
طلب من النادل أن يحضر له «اكس براس». كان حجم بطنه قد ازداد بسبب اقباله الشديد على شرب البيرة، وفقدانه للعمل جعله يجلس طوال اليوم في مكان واحد يتخطاه سواء، حانة رونالدو. أو مقهى باريس، أو هذه الحانة التي يجلس أمامها الآن، ويضل يشرب ويشرب إلى أن يفقد القدرة على الوقوف في آخر المساء... والحقيقة أنه ما كان يسرف، كما يسرف الأن، قبل أن يطلب يد آسيا، فهذه كشفت سرّه الذي ضل يعذبه طوال الوقت رغم أنه سعى للتكفير عن ذنبه، ثم رفضته رفضا تاما، وبعد ذلك وجد نفسه عاطل عن العمل، ومع الأيام يعرض أجزاء من ممتلكاته للبيع... ليستطيع توفير ثمن الزجاجات التي يشربها...

لقد خطط لقتل بسام. ولكنه لم يقتله، يد عزرائيل كانت أسرع، نوى وما فعل، ومن نوى كمن فعل... قد انتشرت صورته القبيحة، إنتشرت دون أن تضع شيئا... زفرانكا على ظهر الكرسي ومدّ قدميه إلى الأمام حدق في وجوه المارين أمامه، حدق في أقدامهم، حدق في بطونهم... مختلفون كلهم مختلفون عن بعضهم البعض، سحنات جافة، وأخرى نحاسية لامعة بعضها بشوارب كأنها مكاسح، وبعضها أمره ككف اليد، بعضها ليّن وآخر جلد لا يفل فيه الرصاص، منها الابيض ومنها الأسود... وأقدام تطأ الأرض في اتجاهات مختلفة، متوازية، منفرجة، منغلقة، تكاد تقع على بعضها البعض فكر مختار في أن بعضهم يخطط لعمليات اغتيال ساعتها... فكر في امكانية عدول بعضهم عن ذلك وشتمهم... وضع النادل الكأس على الطاولة وإناء من الماء وانصرف، السيارات تمرّ أمام مختار دون كلل... وأعاد على نفسه: ماذا لو قام بعملية الاغتيال قبل أن يقبض عزرائيل روح بسام؟!! سيكون ذلك عمل شنيع فعلا.. يراقبه من سيارته أنه

ذهب وحال إرتكاب أوّل خطأ بسرع إلى دعسه بسيارته «الشيفت»... قد كانت الشيفت له ذات مرة، ولكنها الأن!! ليست طريقة... أو خطة ناجحة، لو قدّر لها أن تطبق، ولكن! سعى إلى التفكير في غير ما مع أعضاء اللجنة ذات مرّة، وتم الاتفاق ولكن ما نفذت أيضا هذه الخطة الجديدة... لو قتل بسام بين يديه.. وسالت دماه بين أصابعه... أوه... شنيع عمل شنيع فعلا... وماذا سيكون عليه هوّ؟ أيفكر في عمله الاجرامي... أيجد من الوقت ما يكفي للتفكير فيما فعل؟! قد لا يجد لحظة واحدة، وقد يجد الساعات الطوال وهو قابع في السجن بين عشرات السجناء...

تزاحمت عليه الخواطر، والاستفهامات ككل مرّة يجلس فيها لوحده. حتى يضغط على صدغَيه براحتيه، وفي بعض الأحيان ينخرط في بكاء لا يعلم أحد من مجاوريه سببه.

بعد حوالي ربع ساعة أفاق من نوبة البكاء هذه، مزّ من القهوة رشفة ورفع بصره محدقا في رؤوس الأشجار أمامه، وأسراب العصافير... الموت شيء شنيع... الحريّة أبهى... أسراب العصافير تعلق فتضع أشكالا ومناظر بديعة... بعض العجائز من السوّاح يحاولون إلتقاط صور لها وهي في الغطاء... تهتز الأشكال فيهتز معها السائحون مشيرين إليها بأصابعهم... أتراهم ينسون كل ما عرفوه طيلة حياتهم، أثناء الخرّوج في رحلة سياحية ليصبح كلّ شيء غريب، وغير مألوف... أحنى رأسه وأشعل سفارة وهو يفكر في ذلك بردت «ألاكس براس» تماما، رفعها بين أصابعه ووضعها على حافة الطاولة، قطع من الغمام الأبيض في السماء المرتفعة تسير بشكل غريب وتعكس أشعة الشمس بهدوء، وتطل على الناس حتى وهم في أعماق بيوتهم... القتل حقير، بشع...

ولا ينفك عقله يطحن الفكرة، ويعيد، ويعيد... دون طائل، ثم يدفع ثمن ما شربه ولا يمضي...

كانت خديجة قد تمكنت من ايجاد عمل في إحدى المؤسسات التجارية الصغرى بالعاصمة، وقد علقت أسيا، وخديجة، وغيرهما من صديقاتها... بهذا النبأ ولكن أحدا لم يستطع تهنأتها مباشرة، لمضي أغلب ساعات اليوم وهي في مقرّ العمل أو لا ولعدم إكتمال أسبوع إلى حدود هذا اليوم السبت إذ لم يمضي على تسلمها الشغل غير خمسة أيام فقط.. كانت خديجة بوراوي قد نزلت العاصمة وسط الأسبوع لقضاء حاجة،

وقبل أن تركب القطار عائدة إلى حمام الأنف فكرت في زيارتها في بيتها. ومع سؤال والدتها عنها عملت أنها تشتغل... واتصلت خديجة بوراوي بنافلة موأسيا بالمكتبة حيث أمضت معها بعض الوقت وأخبرتهما. ما صدّقت نافلة أوّل الأمر، ولا آسيا أيضا ولا حتى ربيبة عندما علمت... وسعى البعض إلى والدتها لسؤالها، والفرحة تخفق في صدور الجميع، وكأنهن هنّ من اشتغلن... لا هيّ، فهذه أوّل مرّة تشتغل فيها خديجة بعد سنوات من التخرج... وهذه أوّل مرة يكون لها فيها أجر شهري معلوم... وعلمت خديجة بوصول النبأ إلى صديقاتها، وما وجدت فرصة لشكر من غير ما يسمح به مساء السبت هذا وها هيّ تتجه إلى المكتبة من أجل ذلك.

عندما وصلت إلى المقهى، الحانة وسط شارع بورقيبة، وقع بصرها على مختار اقتربت منه وسألت عن حاله، بدا حزينا، كثير الاكتراث بما حوله أو غير مكترث تماما إلى الحدّ الذي جعله يبدو ثملا، ردّ عليها التحية، وغمش بصره في وجه الطاولة. شيء آخر من حمل الماضي ينقذف أمامه، ولا يستطيع له ردا... ما العمل؟ الخبر وقد علموه، وضغطو به عليه حتى خرجت أحشاوه مع أنفاسه... نظر إليها بعد برهة من الصمت، وقال:

- كأني أرى من ما يزال يذكرني، ويسأل عن حالي!!

- لا تقل هذا سي مختار... عيب...

ومع ذلك تتبدل المسالك، ويهوى الانسان من مكانه، يهوي إلى غير قرار... يكضم سره... يكشف! سواء. ما دامت محتوياته تسري، أزاح بصره عنها، وهو يتابع إمراة تسير الهوينى. أمامه بطرفه... كأنه يعرف هذه المرأة، كأنه قعد معها ذات يوم، ولا يذكر الأن شيئا من ذلك، أعاد النظر إليها من جديد وقال:

- الانسان عدو نفسه، قبل كل شيء. يا خديجة، قبل الأن ما كنت أصدق مثل هذا الكلام ولكني الأن أؤمن به تماما.

- حقا؟!

- أكيد.

قال وهو يستند على كفّيه لينهض، وما إن وقف على قدميه حتى أخرج ساعة إلكترونية من جيبه، حدق فيها، ثم أعادها، كانت الساعة لا تغادر معصمه قبل أيام

قلائل ولكنها الآن أضحت كثيرة الضياع حتى وهي في جيبه يبحث عنها في كل الجيوب الأخرى قبل أن يخرجها من مكانها...

إبتسم بعد أن أعادها، وقال ساخرا:

- نحن مشكلة الزمن، فهو لا يستطيع أن يتخلص منا ونحن أبرياء مع أنه يود ذلك، هل تتصورين؟!

إبتسمت، ولم تجب بحرف واحد.

مضى، ومضت خلفه، بعد أن ابتعد بضع خطوات، كان كأنه عجوز في الثمانين رغم البطن العظيمة، والكتفين المرتفعين. فهو لا يستطيع حمل نفسه بسهولة راقية لبعض الوقت، ثم تركته وواصلت سيرها إلى محل آسيا.

لمّا دخلت خديجة المحل، وجدت آسيا فقط جالسة خلف الطاولة... فصرخت فرحة «آسيا». ورفعت آسيا رأسها لتجدها أمامها، كان وقع المفاجأة عليها كبيرا، إذا ما كانت تتخيل أنها ستراها بمثل هذه السرعة، وفي هذا المكان بالتحديد، ولذلك انعقد لسانها، وظلت واقفة دون حراك إلى أن إقتربت منها فقبلتها، وطبطبت على كتفيها، ثم سحبت نفسا عميقا وقالت:

- وأخيرا.

- من كان يصدق أني سأجد عملا كهذا، وبراتب خيالي!

- ومنبسطة كلّ هذا الانبساط.

- سكرتيرة أولى لدى صاحب المؤسسة...

- حقا من كان يتصور ذلك.

وعادت آسيا للجلوس في حين بقيت خديجة واقفة بمكانها، ولمّا تفطّنت لهذا الوضع هبت آسيا واقفة تاركة مكانها لها، فهي ضيفتها الآن، قبل كل شيء ورفضت خديجة بل حرصت عليها أن تبقى في مكانها... إذ أنها لا تشعر بالتعب كما ترغب في البقاء حرّة لبعض الوقت على الأقل... وسألت عن نافلة، وعلمت أنها عادت إلى بيتها باكرا لعمل ستقوم به هناك... كانت تتصور أنها ستجدها في المحل ولكن تصوّرها خاب... بعد حوالي ساعة طرحت على آسيا أن تقوم وإياها بزيارة لنافلة في

بيتها، فرحبت بالفكرة، وأسرعت إلى إغلاق المحلّ للذهاب فورا.

قد كانت آسيا تفكر في جلب رفاة عباس إلى تونس، قبل أن تدخل عليها خديجة، وفيما ينبغي أن تقوم به من أجل ذلك... فعباس في نهاية الأمر خطيبها رغم سنوات البعد والنهاية المؤلمة التي آل إليها، ثم ليس له أهل يسهرون على جلب جثمانه غيرها، وليس من الانسانية في شيء أن تدير له ظهرها الآن. فإن لم يكن كرامة لوفائه لها، فهي كرامة لعمله الذي لم يكمله، ولاجتهاده الذي لم تشهد مثله في حياتها... وأثناء سيرها لنافلة مع خديجة عادت إلى التفكير في نفس الموضوع دون أن تكشف عنه.

كان أمين في زيارة لنافلة ساعة وصولهما. ومع أن الطرفان لا يعرفان بعضهما البعض فقد سلّم كلّ منهما على الآخر بتلقائية تامة... ثم انخرطوا في مناقشة عدد من المواضيع البسيطة. كانت نافلة سعيدة إلى حدّ كبير بهاتين الزيارتين رغم عدم ملاءمة الوضع لهما وهو ما جعلها تخفي ما كانت تقوم به عنهم ووقوعها في السهو لتقديم كلّ طرف منهم للآخر... ولم تتفطن إلى بعد مرور فترة طويلة نسبيًا...

صباح الأحد نهضت نافلة في ساعة مبكرة، ولاحظت أن عدد الخنافس التي عملت بعد ظهر الأمس على مقاومتها قد تضاعف عشرات المرّات، وانتشرت على أرضية الغرف والممر المؤدي إليها كسرب من الجراد... كانت سوداء لامعة تسير نحو الباب والنوافذ، ببطء شديد، دون أن تكف عن قضم أي شيء يعترضها حتى وإن كان من الزجاج... راقبت نافلة هذا الزحف المخيف بشيء من الريبة والخوف معا، فهي لم تشهد مثل هذا في كامل حياتها المنصرمة، ولم تسمع عن شبيه له أبدا حتى في الخرافات، والقصص الخيالية... إنتقلت عبر الغرف الثلاث، والمطبخ، والمرحاض، فتحت جميع أبوابها، الخنافس تخرج من تحت الأثاث ومن خلفه وكأنها عيون قد انفجرت بها... حاولت تجميع المبيدات التي إستعملت بعضها أمس ولكنها لم تجد منها شيئا... ورفعت صوتها للصراخ ولكن أحدا لم يسمعها، ولم يهبّ لانقاذها فهي وحيدة في دوامة الخنافس هذه، وحتى الندم الذي شعرت به أخيرا لاستقبالها الضيوف بالأمس، وتوقفها عن رش المبيدات لم ينفعها في شيء بل وتواصل الزحف على نسق واحد...

* * *

علم مختار وهو في طريقه إلى بيته بعد مقابلة خديجة مساء السبت أن الحركة

ستعقد إجتماعا في حوالي الساعة الثانية صباحا من يوم الأحد بمخازن الناعوري، ومع أنه أعلن انسحابه من الحركة منذ مدة، ورغم سكره الذي يجعله ساخرا حتى أمام أكثر الأمور جدية، فإنه لم ينس أي حرف قيل له، ولا أي كلمة ردّ بها... بل سعى جاهدا للافاقة في الوقت المحدد فعدّل منبّة الساعة عند الواحدة والربع صباحا، وترك أحد مصراعي النافذة شبه مغلق... ولكن شيئا من ذلك لم يسعفه للنهوض، وحظور الجلسة. فاضطر للاتصال بصلاح الدين في بيته مساء الأحد، لمعرفة وقائع الجلسة وكم كانت دهشته كبيرة لمّا علم بأن الأمين العام المساعد ارتقى إلى منصب أمين عام في تلك الجلسة لا في واحدة من الجلسات السابقة كما أشيع... وهذا لا يدلّ على الضعف الذي يخيم على قانون الحركة فحسب، وإنما أيضا على أنانية الأفراد المنضمّين إليها، كما أعلن بسام عاشور في جلسة التصدع والانهيار... وازداد تأكد مختار من صحّة هذا الاستنتاج لمّا علم أيضا أن هذا الأمين الجديد تلا في نهاية الجلسة بيان حلّ الحركة، وجميع أجهزتها... وتخليها، وقد انعدم وجودها المعنوي عن أي مسؤولية يمكن أن توجه إليها، أو إلى أي عضو كان فيها، مهما كانت مسؤوليته السابقة... وقد فهم مختار من خلال هذه النقطة الأخيرة أن الكلام موجه إلى الأمين العام السابق حسني عامر باعتبار أنه ما يزال موقوفا، وإليه هو بالذات باعتبار أنه كان مسؤولا عن محاولة إغتيال بسام عاشور... وعموما أهمّ نقطة خرج بها من هذا اللقاء هي إنحلال الحركة فقد أعلن في السابق أنها حلت ولكن تبين أنها مجرّد إشاعات وأن الحقيقة الخالصة هي ما وقع اليوم فقط...

انصرف مختار من عند صلاح الدين عرّاف، بعد نصف ساعة، من تواتر الأسئلة والأجوبة عليها، والحقيقة أنه بقدر ماكان يشعر بالسعادة في تلك الأثناء، كان يشعر بالحزن أيضا... فالحركة كانت أشبه ما تكون بالعلقة ولكنها في الآن ذاته دفعت به للشعور والتفكير في المعاني الانسانية الحقة. «فالانسان لا معنى له إذا لم يكن بجانبه انسان آخر بغض النظر عمّا يكنّه له من خير وشر رفع رأسه إلى السماء وقد علت على شفتيه إبتسامة رضى وكرر لنفسه ما حسب مهمّا من الأفكار. وواصل سيره إلى أن وجد نفسه أمام مكتبة آسيا، كان الباب مغلقا كجميع أبواب المحلات التجارية بالعاصمة يوم الأحد... توقف لحظة من الزمن، كان يود إخبارها بما جد هذا اليوم وتكرار طلبه منها من جديد، ولكنها غير موجودة... عض شفته السفلى وواصل المشي غير آبه لما

يمكن أن يتعرّض له، بسام توفي دون سبب منه هوّ سواء كان مباشر أو غير مباشر، والحركة حلّت وطورّ مسؤولياتها تحت إبطها وبدأت في المضيّ إلى خندق النسيان، وهكذا تسقط جميع محاولات التوقيف المستقبلية له وإلى الأبد إذ لم يعد مسؤالا، عن أي شيء، حتى على نفسه... وقهقه، قهقه... وكأن أحدا يضع يده تحت إبطيه...

لقد قادته قدماه إلى مقهى باريس بالشارع الرئيسي للعاصمة... جميع الأماكن خاليه من روّادها عدى المقاهي والحانات... بحث عن مكان شاغر فيها، جلس، وطلب كأسا من «المارتني»...

* * *

في الزيارة الأولى ما التفت امبرتو إلى الجالسة خلف الكارمة وقد كانت آسيا ولا سأل عن شيء، لقد ألقى نظرة على عناوين الكتب من بعيد، وخرج كما دخل حاول حفظ الشارع الذي تقع فيه، ومكان تواجدها ضمنه، فالأبواب متراصة حتى لا تكاد ترى بينها جدران، ولا تكاد تفرز محلاً من آخر إلا بما علا بابه من لافتات: «مكتبة آسيا لل...»«التجارة السعيدة» «ملابس الزمان...» «حلاقة عصرية عند...» «مكتبة النو...». كان أمبرتو قد سعد باكتشافه هذا ومنى نفسه بزيارة قادمة ومدروسة... وحان وقت الزيارة الجديدة وأعدّ لها ما ينبغي... قوائم لكتب السحر... أموال لازمة لدفع الأثمان... كلام مقنع يردّ به على سائليه... ودخل المكتبة. كانت آسيا تجلس خلف الطارمة هذه المرّة أيضا، كما كان لديها حريفان... ألقى نظرة فاحصة على العناوين بعضها قد تغير، وبعضها الآخر ما يزال جاثما في مكانه... إقترب من الطارمة وقد غادرها الحريفان الأخران، عرضت آسيا عليه الخدمة، وأجاب وهو يمعن النظر فيها.

- أريد كتبا عن السحر، وعلم التنجيم،

ابتسمت وابتسم إثرها، ثم أضاف:

- ليس لديكم منها؟!

نهضت واقفة، ابتعدت قليلا ونادت نافلة ثم أجابت:

- لدينا. ستكون بين يديه.

حول النظر إلى الطريق، ناس يمرون مسرعين، ثم أعاد النظر من جديد إلى وجه آسيا وقال:

ـ الحقيقة أني دخلت هذه المكتبة سابقا.

ـ ربّما... نافلة أحظري الكتب الموضوعة يمينا في درج المختلفات السفلي...

ـ كتب التنجيم؟!

قالت لآسيا وهي تتراجع إلى الخلف...

ـ السحر والتنجيم معا.

قالت آسيا. وقد إنصرفت نافلة إلى حيث وجهت. ثم أضافت:

ـ حظرته عرّاف؟!

ـ لا أبدا.

وصمتت آسيا، إلى حين أقبلت نافلة بالكتب ووضعتها أمام أمبرتو. ثم انسحبت لتقف خلف الواجهة الزجاجية متأملة الحركة في الطريق، لم يكن أمبرتو قد رفع بصره لرؤية وجهها... إلى حدود تلك اللحظة. كما لم ينطق بحرف واحد موجه لها. وجعل يقلب صفحات هذه المجموعة من الكتب. كانت صفراء برتقالية بعضها تمزقت حواشيه وبعضها الأخر ما يزال سليما كأنه لم يفتح من قبل... وبقيت آسيا تنظر إليه وإلى الأوراق التي يقلّبها... وما كان يضع الكتاب الرابع منها إلى جانب آخر حتى قالت:

ـ جميعها كامل الصفحات، الحقيقة أننا لا نعرف ما هوّ مسطور بداخلها ولكن...

إبتسم من جديد وقد رفع بصره إليها ثم إلى نافلة، وقال وكأنه يوجه كلامه إليها مباشرة...

ـ كنز...

إلتفتت إليه نافلة وابتسمت هي الأخرى ثم قالت:

ـ حقا؟!

فغابت إبتسامة أمبرتو، وجمدت حركة عينيه، فجأة... فكان مثل ذلك قد طرأ على ملامح نافلة مع شيء من الانزعاج. وضع أمبرتو الكتاب الذي بين يديه على الطارمة. وأشار إليها بإصبع.

ـ كأني رأيته سابقا، كأني أعرفه جيدا، لا أعرف أين، ولا كيف، ولكن..

ارتجفت نافلة وأحست بالخوف يسري إلى مفاصلها. فقالت آسيا،

ـ قلت أنك جئتنا سابقا. ربما رأيتها في هذا المكان.

ـ لا. لا... لا.

ـ أنا لم أرك ولست دائمة التواجد هنا كما هيَ...

ـ أنا لم أره أبدا.

قالت نافلة كأنما تدفع عنها تهمة قاسية.

خفض بصره، وأعاد النظر في الكتب، ولكن ذاكرته تعمل بشدة من أجل تذكرها. ولمّا عجزت، دفع ثمن ما اختاره، وانصرف، وانصرف خارجا من المحلّ كانت الساعة تقترب من منتصف النهار، والشوارع بدأت تكتض أكثر بالمنصرفين من أماكن عملهم...

تنفست آسيا وكأن شيئا كان يضغط على صدرها، كما تنفست نافلة واستدرات لتعيد ما أبقى من الكتب إلى أماكنها. قالت آسيا:

ـ هذا المحلّ يعمل لنا طالعا؟..

مضت نافلة إلى الداخل وكأنها غير مكترثة بما تسمع، ثم وهي عائدة إلى حيث كانت واقفة تذكرت جحافل الخنافس المتدفقة بيتها... إلى حدّ الآن.

قالت آسيا:

ـ أتذكرين ؟ منذ فتحت المكتبة أبوابها وقع مايلي: رؤياه لبسّام فجاة، بلوغ خبر وفاة عباس إلينا، إشغال خديجة، ليست شريكة لنا صحيح ولكنها بمثابة الشفقة...

ماكانت نافلة تستمع لكلمات آسيا، اذ راحت تفكر في أمر الخنافس وكيفية القضاء عليها، ولكن الغريب فعلا أنها ما إن تتجاوز عتبة الباب أو نافذتيه الخلفيتين حتى ينعدم وجودها فعلا.... وكلّ شي قضم في الداخل مواعين الأكل، أخشاب الأبواب والستائر والصوّر... شيء لايكاد يصدق حتىالمبيدات قضت عليها دون أن يفعل أي شيء.

قالت آسيا:

ـ إذا كان هذا المحل طالع خير فمعناه نهاية بؤسنا وشقائنا... أما إذا كان عكس ذلك فليس أقل من دمارنا تماما.

نظرت نافلة إلى ساعة يدها وقالت:

- منتصف النهار الآن....

وسحبت الدرج أخرجت منه المفاتيح، حملت حقيبة الكتف وسارت إلى الخارج... وانطلقت آسيا خلفها، أنزلت العارضة الزجاجية... أغلقت الباب...

* * *

بعد تلك الأمسية لم يحدث أي لقاء أخر بين آسيا وأمين، صديق نافلة، إلا صباح هذا اليوم، فقد دخل المكتبة وهو مرتد لزيّه الرسمي وتحت إبطه قباعته، حيّاها ووضع القبعة على الطارمة، ثم سأل عن نافلة. كانت آسيا سعيدة بقدومه ومع أنها لم تجد ماتقوله له فقد حاولت أن تعرف رأيه في هذا المشروع بإجالة بصرها في سلعة المحل.... فتبعها وأجال بصره هو الآخر. وابتسم ولم يقل حرفا وبعد برهة من الزمن سأل إن كانت نافلة ستأتي ام لا... فقالت آسيا:

- في الواقع لا أدري، ولكن أعتقد أنها ستأتي... لاأظن أنها ستتغيب...

إن كان لديك ماتوصي به اليها، فسأبلغها، أنت تعلم أنها شريكتي، وكلانا مستودع أسرار الأخر.

رفع القبعة عن الطارمة ومشى نحو الباب وهو يقول دون أن يحول نظره عنها.

- سأعود بعد ساعة، أعتقد أني سأجدها، أليس كذلك؟!

- ممكن. بالتأكيد ستأتي. سأخبرها أنك بحثت عنها.

شعرت آسيا بأن هذه الزيارةغريبة، فقدمه ما وطأت هذا المحل أبدا ولكنه يعرف تمام المعرفة كما يبدو... ثم ينصرف دون أن يطرح ماجاء من أجله... وفي تلك الأثناء تذكرت عبّاس وأخر لقاء لها معه، كان قبل يوم واحد من مغادرة البلاد. لقد أعدّ كلّ شيء دون أن يخبرها، كان كتوم، كتوم ويتمنى العمل بالصحافة..! وضع يده على باب الغرفة حتى بدا وكأنه يتكتل... ثم تقلصت عضلات وجهه فجأة بعد أن كان يضحك وقال بأسلوب تقريري:

- «سأغادر تونس، سأحاول تكوين ذاتي من البداية.

- تغادر؟! الجميع يغادر حتى أنت، ومن سيبقى هنا؟!..

- إلى أين؟!

- إلى «ديمشق»؟!

بكت كما لم تبك أبدا، فقد تساقط الدمع غزيرا. عبّاس يغادر، ثم من لها في هذه البلاد، من؟! عبّاس يغادر... يغادر ولاتستطيع إثناءه... يغادر عبّاس ولاتعلم إلا في الساعات الأخيرة...

قد مضى الآن، ولم يعد. مضى كما تمضي سحابة صيف».

عاد أمين الى المكتبة بعد مايزيد عن الساعة بقليل، وسأل عن نافلة إن كانت قد جاءت، فأجابت بالنفي، وترقب لبعض الوقت من جديد ثم قرر الذهاب، تاركا لها الوصية.

جاءت نافلة الى المحل بعد حوالي الحادية عشر صباحا، وما إن دخلت وأنزلت الحقيبة عن كتفها حتى بادرتها آسيا بالخبر.

- قد جاء أمين إلى هنا وسأل عنك.

- عني أنا؟!

- قال أنه سيسافر إلى الكاف. والدته قد وافاها الأجل.

- ثم ماذا؟.

- قال أن المفاتيح ستجينها في مكانها، إن شئت البقاء في بيته إلى أن يعود. وإن لم تشائي فضعيها معك ولاتتركيها هناك.

- ثم ماذا؟!

- فقط. هذا كل ماقال... قال أنه سيركب الحافلة، ولابد أنها خرجت. الآن.

عضت نافلة على طرف شفتها، ومضت غير آبهة، فنادتها آسيا. وسألت.

- هل نمت معه الليلة الماضية؟

- نعم.

- ولماذا بحث عنك الآن؟

- لأني غير موجودة.

ـ أقصد لماذا؟ لم يخبرك؟

ـ يا آسيا... يا آسيا... إفهمي. لقد علم وهو في مقرّ عمله، لا في البيت ألم يأتك من عمله؟

ـ فعلا أتى. ولكن أريد أن أسأل... هل...

ـ نعم... ليست هذه الليلة الأولى. منذ الليلة التي سهرنا فيها جميعنا في بيتي وأنا أنام في بيته.

ـ ولم تخبريني؟ لو وقع...

ـ الخنافس غزت بيتي ولم تترك به شيئا... لاأريدك أن تعرفي هذا...

إنها أكثر من الجراد... حتى الزجاج لم تتركه...

إندهشت آسيا لهذا الذي تسمعه، وتبادر الى ذهنها ماكانت قد ذكرته عن طالع المحل عليهما وودت مع ذلك لو تعيده على مسامعها، ولكنها لاتستطيع بسبب نرفزتها... لمّا وصلت إلى الباب سألتها آسيا إن كانت ستعود ولم تستطع أن تتبين ردّها. إذ كانت تجيبها وهي تبتعد بسرعة.

في المساء ولما كانت نافلة تسير بالقرب من قوس «باب الخضراء» بالعاصمة صادفت أمبرتو. كان يسير بهدوء شديد... دون أن يرها ولما اقتربت منه نادت...

ـ ياسيد... ياسيد...

ـ نعم...

ورفع بصره في وجهها. كانت هي ذاتها تلك التي احضرت له الكتب بمكتبة آسيا اقترب منها أكثر وقال:

ـ أنت!!.. ألا تعملين هذا المساء؟!

ـ قضيت شأنا هنا وهاأني متجهة إلى المكتبة.

ـ لنذهب معا. مارأيك... عليّ أن أجد مؤلفات أخرى.

وفي الطريق وهما يسيران معا قال:

ـ هل أنت من العاصمة؟!

ابتسمت. والتفتت إليه كأنما تحتج على هذا السؤال، وقبل أن تجيب أعادت عليه السؤال ذاته. فأجاب.

ـ ربّما لاتصدقين إن قلت لك.

ـ لماذا؟.

ـ لأني لست تونسيا. ولاعربيا.

ـ ولامن كوكب الأرض.

ـ لا، أنا من الأرض. وبالتحديد من إيطاليا، المنزل المجاور بالناحية الأخرى من الطريق المائي.

ـ «ابتسمت» وأنا من الفلبين الحي الآخر من المدينة.

ـ قلت لك أنك لن تصدقين. إسمعي. أنا من إيطاليا ومن «سولفرينو» بالتحديد والآن مستقر بجهة بنزرت، اسمي أمبرتو، هذا هو جواز سفري.

جمدت في مكانها. ورفعت إصبعها مشيرة به إليه.

ـ أنت؟!

ـ نعم. غريب ولكن هناك العشرات أمثالي.

ـ وماذا تفعل بكتب السحر والتنجيم.

ـ لاحظي يا أنسة أنك ما أجبتني على سؤالي.

ـ حسناً. أنا من جهة بنزرت أيضاً.

ـ حقاً، ماتقولين.

ولطم على جبهته براحة يده وكأنما تذكر شيئاً مهماً. ثم قال:

ـ تذكرت، تصوري أنني أمضيت يومين كاملين وأنا أتذكر إن كنت قد شاهدتك فعلاً وأين كان ذلك، ولم أستطع التذكر... الآن فقط أدركت أني مارأيتك قبل ولكن كانت فتاة أخرى شبيهة لك، تكاد تكونين أنت.

ـ حقاً؟!

ـ نعم، تقريباً كان لها نفس لون شعرك. هكذا، ونفس الطول.

ابتسمت. وبعد برهة قالت:

- اسمي نافلة أستقر بالعاصمة منذ بضع سنوات أقصد منذ أن وقع ترسيمي بالجامعة.

- ولم تعود إلى الجهة أبداً؟!

- مرّة أو مرتين.

- أنت!... أنت! أقسم أنك أنت، صدفة غريبة. شيء لايصدقه العقل.. تقلصت عضلات وجهها وشحبت ابتسامتها.. لم تفهم مايريده هذه المرّة، مايقصده، مايعتمل بدماغه... بقيت صامتة إلى حين. ندمت لأنها نادته وودت لو تجد الوسيلة لابعاده عنها... حاولت السير بخطوة أسرع، ولكن خطوته كانت أكثر اتساعاً، وقدرته على المشي أكبر... وظل هو الآخر صامتاً، دون أن يبتعد عنها قيد أنملة حتى وصلا المكتبة. حاولت آسيا أن تسأل نافلة عن بعض الأشياء ومع رؤيتها لأمبرتو صمتت. اقترب من الطارمة وقال يخاطب نافلة.

- ربّ صدفة.. أيفعل القدر كلّ هذا.. هل أنا أحلم؟! إني مازلت غير مصدق.

- لاأفهمك. ماذا تريد أن تقول؟!

- لو كنت أتصوّر أني سألتقي بك لجئت منذ زمن بعيد..

- قلت أنك ماشاهدتني قبل والآن تقول أنك تبحث عني، أنت تخيفني، وتربكني بصراحة.

- أنت نافلة. نافلة هكذا! لديك أو بالأحرى كان لديك أخت تسمى جليلة!

تقلص وجه نافلة أكثر. نهضت واقفة وقالت محتجة:

- لماذا تسأل؟

- لأنك تشبيهنها جداً.

- أريد الصدق والصراحة.

- حسناً، حسناً. قد سألت إن كان للمرحومة أخوات فقيل لي أن لديها أختاً ولكن لاأحد يعلم إن كانت ماتزال على قيد الحياة، ولا أحد يعرف مكانها.

- مرحومة؟! جليلة أضحت مرحومة؟! ماهذا القدر يا ربي؟!

ـ ألا تعلمين!... لم يخبرك أحد؟!

ـ ....

ـ مع أن كل سكان الجهة قد علموا تقريباً.

واقتربت آسيا منهما وقالت:

ـ ألم أقل لك أن هذا المحلّ طالع سوء علينا..

ولم تتركها نافلة تتم جملتها. إذ مسكت أمبرتو من طوقه. وهي تقول بشيء من التحذير:

ـ ومن أخبرك؟!

ـ قلت أن الجميع قد علموا تقريباً.

ـ لماذا؟!

ـ لأنها وضعت حداً لحياتها بنفسها.

ـ انتحرت؟!.. شقيقتي انتحرت؟!

ـ ألم أقل لك... قالت آسيا.

ـ أرجوك آسيا.. هل أنت متأكد مما تقول.

ـ نعم. كنت أنوي الزواج بها، ولكنها انتحرت.

ـ أنت تنوي الزواج بها؟ ولكن ما الدافع، أريد أن أفهم؟ مارضيت بك زوجاً. وهو من فرضك عليها؟!

ـ لا، لا، لا، لا... سأخبرك.

ـ الآن، أخبرني الآن.

ـ حسناً. قالت إنها إذا وجدت من تحسّ بأنه يحبّها بصدق ستنتحر، وقد انتحرت.

ـ هذا جنون، قمة الجنون.

ـ ....

ـ وكيف علمت منها ذلك؟ أقصد من أخبرك.

ـ أخبرني ماذا؟

- أنها ستنتحر كما قلت.

- هي ذاتها.

- ليس صحيح.

- صحيح. نعم صحيح، سلمتني رسالة طويلة، لم يطّلع عليهاأحد غيري، أردتها أن تبقى سراً بيني وبينها. سرّاً يخصني ويخصها إن شئت.

- لاأصدق.

- بل هي الحقيقة بعينها أقسم لك.

- وكيف تعرفت عليها.

- قلت لك أني مستقر بالجهة، ثم أني صادفتها بالحافلة وهي متجهة إلى بنزرت. شدّت انتباهي، أعجبتني فاقتربت منها...

- يال الصدف التي تدفعك!!

- قالت بسخرية غير واضحة، والتفتت إلى آسيا كأنها يئست من مواصلة هذا الحوار. فقال أمبرتو بهدوء.

- ربّما قدري وقدر من أحبّ.

إيطاليا، تونس، شقيقتي، العاصمة، أنا، كل هذا صدف؟!

والتفتت آسيا لمّا سمعت لفظة «إيطاليا»، ولم تفهم محلّها في حياة الرجل ولافي سلسلة الصدف التي تتحدّث عنها نافلة، فحاولت التركيز أكثر ومتابعة مايقال، فالرجل يبدو من ملامحه ولون بشرته، وعينيه أنه عربي، وغير عربي، ولكن اللكنة التي تتضمنها كلماته لاتبعد كثيراً عن لكنة نافلة. وقال أمبرتو في رده على أقوالها الأخيرة.

- وليس هذا فقط... فتاتي التي كنت أنوي الزواج بها في بلدي كانت نسخة منك أنت، كل شيء فيك يشبهها، حتى عصبيتك وإمالة فمك عندما تتحدثين.. قد ماتت فتاتي هناك... ونزلت أنا هذه البلاد لأجد لها مثيلاً بعد أكثر من خمس أو ست سنوات.

لست تونسياً إذاً؟

قالت آسيا دون أن تشعر، فالتفت إليها وكأنما قوّة أمالت جمجمته، أنا، طلياني، خذي هذا جواز سفري انظري فيه.

وسحب الجواز من جيبه وقدّمه لها، فتسلمته وعيناها جاحظة بفعل المفاجأة، قرأت اسمه بصوت مرتفع، وبعض التهجية.

أمـ. برتو. مارسلّو. بلانكي.

أمبرتو مارسيلو بلانكي.

ولماذا تبحث عن كتب السّحر؟ ماذا تصنع بها؟

قالت آسيا غير مكترثة بالحوار الجاري بين نافلة وبينه.. إن كل مايحوط الآن غريب ماسألت عنه هو أكثر غرابة من الباقي الآن في نظرها.. هذا موضوع آخر، قال وهو يراقب الوجهين معاً وأضاف: ومتصل بجليلة وبعائلتها... ربما بك أنت أيضاً. وأشار برأسه إلى نافلة التي تراقبه هي الأخرى.

- بي أنا؟! من بلادك إلى هذه البلاد. إلى هذه المكتبة، إلى كتب التخلّف والجهل تسعى لتقول أنها تخصّني أنا. أو تخصّ عائلتي!! لو لم تكن داخل محلّي، لقلت وبصوت مرتفع أنك نصّاب، مجنون، ولجمعت حولك الناس، تفضل غادر... وأشارت بذراعها في اتجاه الباب ليخرج، ولكن آسيا نهضت بسرعة من مكانها واقتربت منه، وطلبت من نافلة أن تهدأ قليلاً، وتتماسك أعصابها...

بعد فترة قصيرة من الهدوء، شرع أمبرتو في افهامها كامل عناصر القضية التي يبحث فيها وبهدوء، والمسالك التي يسير فيها الآن، وماتوصل إليه من نتائج واستنتاجات.

○ ○ ○

الفصل السادس عشر

وقف الريس وسط زورقه المتأرجح على الموجات الهادئة، والمتقدم بتأن نحو الحوض الصخري الصغير، كانت الشمس ما تزال خامدة خلف الأفق الشرقي. ومنذر وعباس نائمان داخل الغرفة. أجال البصر من مكانه ونادى عبّاس بضع مرّات إلى أن أفاق وأجاب عن النداء، كانت الشبكة مكوّمة يتمرها إلى جانب الريس والمجدافان مسبولان على حافتي الزورق... كما كان إلى جانبه لباس بلاستيكي أصفر ومصباح نفطي يتدلى من خشبته في المقدمة. أقبل الاثنان ووقفا على حافة هذا المناء الطبيعي الصغير... كانت علامات النصر، والسعادة واضحة على ملامح الريس. وبعد أن أتم الإرساء. وصعد من الزورق طلب منهما النزول وافراغ الشبكة ممّا فيها من سمك قبل طلوع الشمس... ومع أن السعادة ما انفكت تغمرهما طيلة ذلك الوقت فقد ألقى عباس بلومه على الريس بكلمة واحدة «الحرس»، فللبحر قوة من الحرس تدافع عنه أيضا وتحرسه مثلما للبّر.

وقال منذر وهو يحاول تخليص سمكة يزيد وزنها عن رطلين، وما تزال تفرفط رغم ساعات الاحتجاز...

ـ كنا نودّ مساعدتها...

ـ ها أنتما تساعداني... ثم هذه السنوات المتسربلة، ساعدتنا، وعلّمتنا بما فيه الكفاية...

كان المحصول يزيد عن ثلاثين رطلا... وهو محصول وفير بالمقارنة مع الاسابيع المنصرمة، أخرجاه وسألاه إن كان سيوصله إلى الميناء أم لا. إستدار نحو الغرفة ومشى محتفظا لنفسه بالاجابة، أحس أنه منها أكثر من أي يوم مضى. غسل وجهه، وأطرافه وألقى بنفسه على السرير الخشبي، قبل أن يشعل سكارة كما اعتاد. ثلاث وثمانون سنة مضت، وكأنها سهم فرط من وتره ليستقر طرفه في قطعة من الخشب... تدافعت عشرات الصوّر والأحداث والمواقف إلى ذاكرته كعربات قطار بعضها يسحب بعضا

وهي تسير، بداية من النزول أوّل مرّة على سطح قارب سنة، إلى نزوله الأخير من الآن. أربع وسبعون سنة لم يحنى فيها عظم واحد من عظام ظهره ولا تغيب أسبوعا كاملا عن البحر، حتى أيام العواصف، يبسط الشبكة يلقى الصنارة، ينقل المجدافين في الهواء من الخلف إلى الأمام ويدفع يدفع، يدفع إلى الأعماق، إلى الأعماق أكثر وأكثر والسنوات تمضي، وتمضي وتمضي...

كان الطقس باردا في هذه الليلة، كما أغلب ليالي شهر أفريل، وقد أحس ذلك بخبرته قبل الخروج. ولكنه تحدى البرد والوحدة وخرج وألقى بشباكه وسحبها، غنى لنفسه وللبحر في البداية وأشعل السكائر ساعات الانتصار ودخن ورفع المصباح أكثر من مرة وحدق في الماء، وفي الأفق القريب، نادى من أعماقه وفيها عن التائهين، والضائعين، والعارفين، نادى عن حبّه المتحطم منذ الأزل... قال كلاما كأنه شعر، تذكر عباس ومنذر، وتساءل إن كان نائمان أم لا.. وتحسّر على ماضيه، لو تزوج لكان أصغر أبنائه بعمر أحدهما... وأطلت الشمس على رؤوس الأشجار فأقبلا إليه، وبلغه صوت منذر يسأله:

ـ يا ريس، هل ننقله كله إلى هنا؟!

ورفع الريس رأسه، وذمّ شفتيه كأنّما يزن ما سيقول قبل أن يصدح به ثم نهض ووقف أمام باب الغرفة ونظر إلى «التلار» الغير بعيد جدّا عنه وأصدر تقريره بكلمات رصينة وثابتة.

ـ لا ذهاب إلى الميناء اليوم، أعيدا الأسماك الحية إلى الماء وأتيا بالباقي بمعارضة، ولا وجهات نظر أخرى، أتجها إلى «التيلار» وفعلا ما أمر... أشرقت عيناه وكأنه عاد فتى سنة 1916 ابن السنوات التسع، الحالم بالقوة، والمغامرة لحالم بالحياة في الأفق وخلفه. عندما قفلا عائدين، سحب سكارة ودخل إلى الغرفة وضعا «التيلار» أمامه وقد نقص ما فيه إلى حدود النصف، إبتسم وهو ينظر إليهما وإلى ما رجعا به. وبعد برهة قال:

ـ صحيح، البحر يهب، هذه هبة، هبة غير يسيرة، هل تعلمان! هذا البحر جامح، يهب، ولكن. أقول أنه كفرس، أو كالحمار الجالي[1]، في البدايات يمنح صهوته بسهولة. ينتقض، وينكس[2] وربمّا يسقط راكبه ربّما يكون سببا في قتله، ثم ينقاد إذا كان الراكب

(1) الحمار الجالي: الحمار الوحشي، أو الذي لم يركب من قبل أبداً.

(2) ينكس: يرفس بخلفيتيه معاً.

ذكيا طبعا. هذا البحر رهيب... هل تعلمان ما أفكر فيه الأن! في الحقيقة لا أفكر في شي واحد...

ـ البحر، السمك، البحّارة...

ـ أعدتما نصف المحصول إلى البحر... شيء من هذا القبيل، أضمن في شراء كمية من الخمر تكفي إلى حدود شهر أكتوبر... سأبحث عن شخص يمرّ بمرناق سيكون حامض وحارق في الحلق ولكن سأجعله صالح للاستهلاك بألف وسيلة.

ـ والفلوس؟!

وابتسم ولم يجب بحرف واحد عن هذا السؤال بل إقترب من الجدار مسندا ظهره إليه وقال ممهّدا لموضوع أخر:

ـ هذه الأيام يكون قد مرّ على زواجي من البحر، أربع وسبعون سنة، في السنة القادمة يكون قد مضى ثلاثة أرباع القرن.

رفع عبّاس حاجبيه غير مصدق ما يسمعه من الريس، وسأل منذر بخبث محاولا إستدراج الريس للافصاح أكثر:

ـ كان التأريخ بالأحداث النوازل، عام الروز، عام مات فلان... عام التيفويد عام الكوليرة.. يبدأ الواحد في الحديث عن عام الروز يجد نفسه في الأخير يسبح خلف سفينة نوح وعام الطوفان... كفاش الواحد يفرق صحفات مذكراته بدقة..؟!

ـ أفهم ما يدور بدماغه، قال الريّس وأضاف، سأقول لها: كانت سنّي لا تتجاوز التسعة أعوام ساعتها. ما دخلت المدرسة، إذ ما كانت توجد مدارس... دخلت الكتاب ولا أعرف كيف، وجدت نفسي بين أطفال أعرف بعضهم وبعضهم الأخر ما رأيت في حياتي قبل، حفظت ربع القرآن ساعتها... وفررت. كانت رائحة الطمي الذي يمحي به الأطفال ألواحهم تنخر أنفي وما تزال إلى الأن... وقضيب الزيتون يرفرف بين عينيّ... الجالس حذوي بال في مكانه مرّات ومرّات... الأطفال يتماوجون أمامي برؤوسهم المدعوكة في الشواشي لازلت أذكر تلك المشاهد إلى الأن. وكأنها حدثت بالأمس فقط... قلت كنت أبلغ من العمر تسع سنين، وفررت من الكتاب فوجدت نفسي أرعى قطيع زوجة خالتي كانت شمطاء، هل تعلمان معنى شمطاء... إنها شمطاء وكان لا يقول... أو لا يقوى على قول ما يعارضها من الأراء... كان يخافها ينزل أذنيه أمامها،

كالحمار، أو يدخل ذيله بين فخذيه ويجري أمام مشائمها وقذفاتها. ما شاهدت طيلة عمري مثلها، كانت كالرجل صوتها... نبرة الكلام، ملامح وجهها... ولولا تلك الملابس التي تقتنيها من الاسبانيات عوضا عن ملابسنا ما كان ليستطيع أحد تميزها عن الرجال شمطاء... كانت شمطاء... قلت أضعت نعجتين في أحد الأيام ووبخني خالي أمامها لترضى: قال لي: أنت لا تصلح لشيء. الكلب يصلح وأنت لا تصلح... حمار، هل يوجد من هو أقل ذكاء منه؟ تقول لي لا يوجد... بل يوجد نعم يوجد... أنت هوّ... وكلام آخر... وهربت من جديد... سرت على قدميّ حتى الميناء. وجلست هناك باقي ساعات النهار... لقد إكتشفت البحر ساعتها فقط كان في السابق ماء هادئ، أو متلاطم، هائج. لا يمكن الاقتراب منه، كان بالنسبة لي ذلك السائل المالح الممتدّ إلى الأقاصي... ورأيت البحارة يتقدمون إليه البحارة ناس مثلنا، يتنفسون ويأكلون ويضحكون، ويشمون، ناس أحياء بشر... ذهلت لذلك الاكتشاف، سرى في نفسي سريان الدم، وجدتني أحبهم ما كان يوجد نفر واحد من عائلتي يعمل بحارا، ولا من حينا... كنت أجهل ذلك العالم أو أغلبه... أسمع عنه القليل ووالداتي لا تترك لي المجال، كانت تخاف عليّ منه، قلت اجبيت ذلك العالم ببحارته ولغتهم، وأمتعتهم، ورائحة الملح والسمك العالقة بهم... وانطلقت إلى أحدهم كان مايزال ينفض يديه مما علق بهما، قلت له: أريد أن أعمل معكم أنزل الماء وأخرج منه... معنا؟ قال الرجل وضحك، شعرت أنه كان سعيدا... قلت نعم معكم! أطبق أصابعه على شاشتي وقال: أنت؟! ثم سأل ابن من أكون. وأجبت... إبتعد عني إلى شخص آخر كان ريس المركب... لا أدري ما قال له ساعتها. ولمّا عاد ذلك البحار، قال لي أنه عليّ في الأوّل أن أخبر والدتي، وأحصل على موافقتها... هل أصف لكما سعادتي عندها؟! لا أستطيع. وأخبرت والداتي، فبكت، وأعرضت عن الاجابة، كانت قد حققت معي في أمر ترك العمل عند خالي، أو بالأحرى عند زوجته الشمطاء، وأجبتها بصراحة، ولم تقتنع... وبعد يومين من الإلحاح المتواصل إكتفيت بحركة من رأسها لتعلن عن موافقتها وخرجت البحر، كان شاسعا أكثر مما تصورت كأن لا حدود له غير المكان الذي انطلقنا منه سماء سوداء، أو زرقاء فوقنا وماء لا قاع له تحتنا... وعقد زواجي به منذ تلك اللحظة إلى الآن ليبلغ في السنة القادمة ثلاثة أرباع القرن...

وصمت رافعا بصره إلى السقف فقال منذر وهو يقترب للجلوس حذوه.

- والآن؟!

- الآن؟! عليكما برفع هذا السمك من هنا، وتنظيفه، وطبخه...

- أقصد... قال منذر ولم يتم إذ قاطعه عبّاس.

- كلّه؟! نطبخه كلّه؟!

- إفعلا ما شئتما... المهم أن ترفعاه من أمامي...

رفعاه صامتين إلى الخارج، وأحضرا ما لزم من أدوات التنظيف... كانت الشمس قد إرتفعت مقدار قامة ونصف على رؤوس الأشجار البعيدة... فانكسرت مرايا البرد... وراح الريس في نوم لا يؤكده إلا شخيره المرتفع ذلك أن أجفانه لا تنطبق على بعضها البعض أبدا.

• • •

إنتشر خبر وفاة عبّاس في أنحاء البلاد، ومع إقتراب العصر إمتلأت الدار بالمعزيات. ما كانت والدته تعلم بشيء، وما كانت أي من المقبلات للتعزية لتجرأ عن إخبارها، بدت الأم في البداية عادية السلوك ومع التدفق المتواصل لسيلهن الحزين إضطرت للسؤال عمّا يحدث، وعمّا إذا كانت آخر من يعلم. عاد الصغيران من المدرسة ولم يجدا موضع قدم لهما في هذا البيت المكتظ، فألقيا بمحفظتيهما في دار الجيران وخرجا للعب. وأقبل الشقيق الأكبر من السانية بعد أن أتصل به زبير زاده، وما إن دخل العمران حتى تباطأ خطوة، فما إن يعترضه نفر حتى يقبل إليه ناشرا تعازيه، لقد أثر الخبر فيه كما لم يؤثر أي خبر سابق، إذا اصفر وجهه، وتلاشت نظراته وغاص صوته في الأعماق حتى أنه لا يستطيع الردّ على أي كان ولو بحرف. لقد تخيل كل شيء كل شيء يمكن أن يحصل لأخيه إلا أن يكون قد مات. كيف مات، وأين مات، ومتى، ومن قتله، ولماذا أصحيح ما يسمع، وصحيح ما تقع عليه عيناه أم هو حلم بشع، كابوس مفزع... إمتدت الطريق أمامه وتضاعفت أطوالها. حتى لكأنه يسير مئات الكلومترات... عبارات الاشفاق تنفر أن فيه بتعب، بإرهاق، حتى لا يكاد يعي معناها.

مع إقتراب المغرب أصرت الوالدة على معرفة ما يدور حولها ولا تعلمه كانت الوجوه حولها تشيح، بخوفها، وجنها، وإشفاقها، ونقمتها، تمنت الولوج إلى هذه الأدمغة الفاجرة، لماذا تخفي عنها ما يمكن أن تعلمه وجوبا، الآن أو أي وقت آخر، أيخفن منها

أم عليها، ماذا حدث؟ وفاة!! وفاة من؟! ومتى خسارة؟! خسارة من وأين؟ ضياع؟ فساد! إنهيار! حتما ستعلم وتستثقب كل العيون المرائية. وقفت وسطهن جميعا وصرخت وهي تقبض أحد معصميها باليد الأخر على بطنها:

ـ أهلا بكنّ جميعا. ولكن لماذا أتيتنّ؟!

عمّ صمت مقيت وكأن حركة سحرية سلبتهم الكلام.

ـ لا واحدة منكنّ تودّ الاجابة!! قالت ثم وهي تلتفت إلى الباب الخارجي أضافت، ما كان بيتي «وكالة» أو ملجأ أبدا، من هذه الناحية يوجد الباب، دون طرد.

إلتفتت الوجوه إلى بعضها، إلتقت العيون، تغامزت، اعوجت الشفاه معلنة عدم الاكتراث بما تقول. وواصلن الجلوس. أو الوقوف في أماكنهنّ.

ـ كانكنّ لم تسمعن شيئا، حسنا هذا هو الباب ـ وهي تتجه نحوه ـ عليكن بالمغادرة فورا.

فتحت الباب، وأعادت نداءها بإلحاح، ثم نادت الأسماء التي استحضرتها أنئذ، فتوالى الخروج بشكل محتشم، ثم تكثف، حتى كادت الدار تفرغ من كلّ الزائرات.

كان الاصفرار قد علا وجه الابن الأكبر من أبناء أم عبّاس وهو يقبل إليها. وقفت منزعجة، لحظة من الزمن ثم أسرعت إليه، وراحتها تلطم صدرها.

ـ شبيك؟ شب ولدي، شبيك؟

وواصل السير نحوها. هي لا تعلم ما حدث، رغم هذه الموجات المتدفقة إلى الخارج الزنقة من النساء الملتحفات بالبياض.

ـ ألم يخبروك؟!.. ـ عن ماذا؟!

ـ لا تعلمين؟

ـ خيرا! مزقت قلبي.

ـ وقلبي انمحى أيضا حين علمت.

مرّر راحة يده على وجهه بتأن وكأنه يعصره، ثم رفع يده وأسدلها، وكما لو أنها ليست منه.

ـ ألم يكنّ هنا؟!

- من؟

- النسوة.

- رأسي سينفجر، سأخرج من عقلي.

- ابنك...

- أيهم؟ ماله؟

- لا شيء...

وتقدمت نحوه أكثر مسكته من طوقه، وقد انتفش شعرها، وعلا صوتها أكثر.

- ماله أخيك؟! ماله ولدي، ماذا جرى له، أمسكوه؟ ضربوه؟ أين هوّ الأن؟ أين..؟

- قالو مات.

- ابني؟! مات. ابني مات؟

مات، مات، مات.

- مات.

- يا ناري، ولدي، ولدي أنا مات، أين مات، أين ابني، من قتله؟ بماذا مات؟ أين ابني؟؟

- لا أعلم. لا أدري.

وسقطت مغشيا عليها في نفس مكان وقوفها.

* * *

خرج أميرتو من منزله بعد يوم كامل قضاه في مطالعة ما جلبه من كتب السحر والطالع، واتجه نحو مقهى الرحبة، كان الطريق شبه خال من الناس في البداية. ومع مواصلة السير فيه لاحظ أميرتو تواجد بعض المجموعات المنهكة في الحديث، والاستماع بنهم، ومع أنه لم يشأ الاقتراب منهم لمعرفة ما يدور فقد سمع طراطيش خبر لم يتبين محتواه جيدا، ولكنه يدّل على وفاة شخص ما. وأصل سيره غير مبال بذلك خوفا على فكرته التي يعالجها من التشويش...

وصل إلى المقهى ولم تبدأ في الإزدحام بعد. طلب قهوة مضغوطة. جلس حول

إحدى الطاولات الشاغرة، أشعل سكارة، أطلق بصره نحو الشارع وحاول الربط من جديد بين العناصر التي وصل إلى جمعها من كتب السحر. وماكاد يبدأ حتى ارتسمت بين عينيه صورة نافلة بن محسن، وما هي إلا بعض ثانية حتى إحتلت صورة آسيا صراف مكانها وهكذا وجد خط سيره يعرج على حياة هذه المرأة. ورغبتها في السفر إلى اليمن في أقرب الأوقات ومد يده لرفع القهوة، ولكنها لم تله بعد، فأعاد سحبها من الطاولة والتفت حوله ليرى إن كان أحد ما قد شاهده، ولما تأكد أن لا أحد رآه صرخ في العامل أن يسرع في إحضار ما طلب، ومن جديد عاد إلى التفكير في مشكلة السحر هذه.

كان طارق مارّا أمام المقهى اثناء عودته من سانية القرعي. كان يحث الخطى حتى يستطيع الذهاب إلى المنزل أم عباس قبل العشاء للتعزية ولكن أثناء إلتفاتة عفوية إلى داخل المقهى شاهد أمبرتو جالسا واضعا الساق على الساق وهو ينظر إلى العامل الذي يضع كأسا على الطاولة. فاتجه إليه. إبتسم أمبرتو لما رآه يقترب منه واستعدّ للوقوف ولكن طارق كان أسرع فضغط على كتفه ليبقيه جالسا، ثم سأله إن كان سيبقى هنا إلى ما بعد العشاء أم لا، ولمّا سأل عن السبب، قال طارق أنه يشاء الحديث معه في أمر خاص. وابتسم أمبرتو وكأنه يعلن موافقته على البقاء ثم سريعا ما سأل عن سبب تحديد الموعد بما بعد العشاء، إذ بدا له غريب نوعا ما. فجلس طارق، وأدنى رأسه من رأس أمبرتو وقال هامسا:

- ألا تعلم؟!

- لا. ماذا؟

- علمت وأنا في السانية، وأنت في البلاد ولا تعلم!

- ما علمت والله، أخبرني.

- قيل أن عباس قد مات.

- أيّ عبّاس؟!

- تي عبّاس. عباس ابن... ذاك الذي يبحث البوليس عنه.

- الله أكبر.

ارتجف قلب أمبرتو، وأحسّ بضيق في صدره، رفع يده وفتح الزرّ الأعلى من القميص، ثم واصل حديثه.

ـ مات، مات؟!؟

ـ مات لم يمت... مات معناها مات وليس شيئا آخر.

ـ متى؟ وأين، ومن قتله؟!

ـ لاأعلم، فقط سمعت أنه مات...

وازداد اضطرار أمبرتو أكثر، إذ احسّ وأن إصبع الاتهام يقترب من الإشارة إليه. ودون أن يشعر قال بلغته الإيطالية:

E'una nouvella molto stupida, molto brutta, come la tua faccia che e ancora brutta.

ـ ما فهمت شيئا ممّا قلت أمبرتو.

ـ وكيف علم الناس أنه مات؟!

ـ لا أعلم.

ـ لا أدري، لا أعلم، لماذا تحي إذا؟!

ـ وكيف لي أن اعرف. وهل من الضروري أن أعرف؟!

ونهض طارق لخروج... وما ان ابتعد خطوتين أو ثلاث حتى ناداه أمبرتو وسأله إن كان بإمكانه أن يذهب معه لتعزية آل عبّاس... فابتسم وأجاب بشيء من الحرج.

ـ أنت تعلم انك «رومي»...

ـ نعم... ولكن سأتكلم «بالعربي»...

ـ دعك من ذلك... «أخطالك».

ـ يا طارق. يا عزيزي، أما قلتم أنكم اهلي، وأني ابنكم..!!؟

ـ لكنك «رومي» كافر... والميت ماشي للسماء... ماشي إلى ربيّ...

ـ زمّر...

ـ زمّر أو ارقص... هل انت صاحبه... هل تعرفه...

ـ هكذا أنت دوما: معارض، أقسم لو قلت لك سأزور والدي لقلت لي دعك من زيارته... إذهب أنت سيدي سأبقى هنا.

ـ غضبت سريعا!!.. يا...

ـ إذهب أنت... اذهب إذهب...

وخرج طارق، كان سرواله ملطخا بالطّمى، ومثنيا إلى ما دون الركبتين بقليل، وقفة المؤونة بيده لا تكاد تغادرها.

وشرد هن أمبرتو من جديد، ولكن هذه المرّة في عباس... وتكاثرت التساؤلات المبهمة الاجابة: لماذا مات؟ وأين؟ وهل كان موته طبيعيا وعمّا إذا كان هو فقط أم أن منذر والريس معه، وإذا ما كان موته في البحر أم في الغابة بيد الحرس أو بيد اخرى...

أحسّ أنه ينبغي عليه ان يعلم بجميع هذه التفاصيل قبل غيره إن لم يكن ذلك وفاء له ولأيام الصداقة الماضية، فلنفسه، نعم، ليكون حذراً... ودون أي تفكير أو تروي نادى العامل ليسأله عمّ إذا كان الريس قد جاء إلى المقهى هذا المساء أم لا. واقترب العامل منه وترقب لحظة لسماعه، ولكنه لم يزه عن الاشارة إليه بيده للانصراف. «هكذا تتعقد الأمور بشكل غريب» ورفع كأس القهوة وسكبها دفعة واحدة في حلقه وكأنها ماء.

نهض من مكانه، ألقى نظرة في الطريق المضاء بمصابيح الكهرباء، وقف في الخارج لحظة ثم عاد إلى مكانه من جديد.

ـ إذا كان الريس قد أقبل هذا المساء، فمعنى ذلك أنه إما مات ميتة طبيعية، قال امبرتو يخاطب نفسه وأخاف، وإما انه مات بعد أن ابتعد عن الريس وبسلاح الحرس، ولكن إذا لم يقبل فمعنى ذلك ان موته كان غير طبيعي. ولابدّ أن الريس ومنذر قد قتلاهما ايضا إذا لم يكونا قد قبض عليهمّا.

ومرّة ثانية عاد لمناداة العامل من جديد فتباطئ في الاقبال إليه، وما إن سأله عن رغبته حتى إضطرب أمبرتو، وطلب قهوة أخرى. فابتعد العامل وهو يقول بصوت غاضب.

ـ لزم إنجيك حتى لهنا، ما تجمش تقول شحاشك وأنا إلغادي... كرب؟!

صمت أمبرتو وفكر في مغادرة المقهى والذهاب إلى أي مكان آخر.

وفجأة إلتمعت صورة آسيا صراف بين عينيه، أحنى زاوية فمه إلى أسفل الدنيا مسخوطة وانت تلوّج ع المشي لليمن.

ووضع رأسه بين يديه، وظل صامتا على حاله إلى أن أقبل العامل وبيده كأس القهوة،

وضعها على الطاولة وذهب، رفع أمبرتو رأسه، نظر في الكأس وشرب دون يحرك السكر الراكد في قاعه. فلم يستطع إستساغته، وأسرع إلى المرحاض ليبصق ما بفمه...

كانت المقهى تكتظ شيئا فشيئا، ويرتفع اللغط فيها بالتوازي... كما بدأت أجواؤها في التغير من كثرة التدخين... وأثناء عودته إلى مكانه لاحظ أمبرتو وجود عزوز جالسا قرب إحدى المجموعات يشاهد لعبة رمي. توقف لحظة مفكر في إمكانية طرح سؤاله عليه، وتقدم نحوه وضع يده على كتفه وأطلق التحية بصوت خافت، ثم سأله:

- أحقاً قد مات...؟!

- من... من تقصد.؟!

- تي ذاك... ذاك، الذي يبحث البوليس عنه.

- عبّاس؟ قيل أنه مات سمعت هذا الله يرحمو...

- هل دفن...

- لم يأتوا به بعد...

- ألم...

- ما زال... لا أحد يعلم إن مات ولا من قتله.

- غريب.!!

- لا غريب ولا قريب... تحصل أشياء كثيرة من هذا القبيل. وعاد عزوز لمشاهدة لعبة «رمي»... فانطلق أمبرتو إلى مكانه وما كاد يجلس حتى نبع استفهام غريب برأس عزوز، فترك اللعبة والشوق إلى نهايتها واتجه إلى أمبرتو ليزرع فيه استفهامه هذا.

- أما علمت أنت من قبل؟

- الآن فقط...

- غريب!..

- أنت قلت لا شيء غريب...

- نعم... ولكن الخبر انتشر منذ الصباح... وأنت لم تظهر إلى الآن... مع أنك عاطل.

ـ قابع في بيتي...

ـ ولماذا... ثم مرّة أسمع عنك أنك في تونس وقد تقضي هناك عدّة أيام ومرّة قابع في بيتك لا أحد يزورك ولا تزور أحداً... أليس هذا غريب.!؟

وشعر أمبرتو بالمأزق الذي يوجد فيه... فهو الآن أمام عزوز، عزوز راوي الحكايات، عزوز صياد الأخبار من قلوب الطير، عزوز الباحث، والمحقق مع الناس أكثر من أشهر قاضي تحقيق في العالم...

ـ لست أحقق معك... ولا أحسدك... ولكن اجابتك غريبة شوية...

ـ زعمة؟!...

ـ إذا كنت ترفض التصريح بذلك فلا داعي...

«هذا هو قلب المأزق، الشرك الجميل، القصر المفخخ» ردّد أمبرتو في نفسه ولم يجد غير كلمات قليلة يصدم بها هذا الثقل...

ـ أفكر بالرجوع...

ـ إلى أين؟ إلى المنزل... إلى تونس ها أنت فيها دائماً تقريباً...

ـ «نفس الأسلوب السابق». إلى بلدي... إيطاليا، أرجع إلى إيطاليا...

ـ هل أنت جادّ... مللت من وجوهنا... مللت سريعا.؟!

ـ أفكر في زيارة أهلي هناك...

ـ ربي يسهّل...

ونهض سريعا للمغادرة، ومع يقين أمبرتو أن هذا الذي ذكره لم ينطل على ذهن عزوز بسهولة رغم تظاهره بالاقتناع فإنه أحسّ بشيء من الراحة لشعوره بهامش أكبر من الزمن... قد توفر لديه للردّ عليه في المستقبل...

وظلّ أمبرتو في مكانه مستغرقا في التفكير دون أن يجد حلاً واحدا لأي مسألة من المسائل العالقة، حتى عاد طارق، وهشام ابن خالة عبّاس... كانت راحته على خدّه وبصره ثابت في الأرض، اقترب منه طارق ودفع يده، فرفع أمبرتو رأسه دون أن ينبس بحرف وقال طارق مبتسماً:

ـ ماذا وارءه؟

إلتفت أمبرتو خلفه فلم يجد شيئاً غير بضعة كراس شاغرة، وقال طارق:

ـ هذا ابن خالته قال أنه يريد الحديث معك.

وأرجع هشام رأسه بتأن، ثم قال وهو ينظر إلى طارق:

ـ ولكن ليس هنا. أريد أن نكون منفردين...

ـ أنا أيضاً أريد أن أتحدث معك. قال طارق، فردّ أمبرتو بسرعة...

ـ ولكن ليس هنا. في القمر منفردين.

ـ لا داعي من الذهاب إلى القمر... هنا أفضل... ومطط أمبرتو شفتيه مبتسماً... وكذلك فعل طارق وهشام، وبعد لحظة قال:

ـ لنبدأ إذا بمن هنا.

ـ لا. تذهب مع هشام أوّلا... إن له ما يفعل بعد ذلك...

ـ سرت معكما... « قال أمبرتو ممططا الأحرف وأضاف»... انهدّ العالم على رأسي... ومسكه هشام من معصمه وسحبه للنهوض... وجلس طارق في مكانه. كان المكان الذي سيتحدّثان فيه غير بعيد، ولذلك لم يتساءل أمبرتو كثيرا إذ سرعان ما عرف الموضوع... قال هشام.

ـ أنت تعلم، وأنا أعلم... خالتي أيضا تعلم.

ـ تعلم، وتعلم ماذا؟!

ـ أن عبّاس كان مختفيا في بيتك، وليس لوحده...

ـ نعم؟!

ـ لا ترفع صوتك، نحن لا نريد محاسبتك... لماذا أخفيته، أو لم تخفه...

ـ إذن!؟

ـ نحن نعلم كما تعلم أنت أيضا أنه الآن عند الريس.

ـ من أخبرك، وكيف تحدثني بهذا الأسلوب.

ـ لا يهم من أخبرني. المهم أن هذا صحيح، ولا أحد منّا يحقد عليك، بالعكس كلنا نحترمك. الجميع يعلم أنه مات. أو بالأحرى لا أحد يعلم إذا ما كان ميتاً أو حياً. أنا

أشك في موته الآن... وأريد التأكد... اشفاقاً على خالتي مما هيّ فيه على الأقل... ووضع حدّ لما يجري في بيتها...

ـ والآن ماذا تريد؟!.

ـ هل رأيت الرايس... هل أخبرك بشيء؟!

ـ من المفروض أن تسعى أنت إليه أو يأتيك قبل أن يقصدني أنا... إذا ظهر في البلاد.

ـ لم أفهم ما ترمي إليه.

ـ أي أنه يعرّج عليك قبل أن يأتي إلى أي شخص آخر، هل يحتاج هذا الكلام فلسفة لفهمه...

ـ أي أنك لم تر شيئا.

ـ فعلا...

ـ ما رأيك في الذهاب إليه غدا عند الرايس...

ـ لا يمكن... ستراني الناس، وسيفضح أمره، ونصبح نحن بدورنا في سين وجيم...

ـ نذهب الليلة...

تنهّد أمبرتو أشاح بوجهه يمينا وشمالا ثم وافق على الذهاب معه... وفي الطريق اتفقا على أن يأتيا بعد الساعة الواحدة، أو بالأحرى بعد منتصف الليل مباشرة الى شجرة الخرّوب في مدخل البلاد. ثم أقرّ أمبرتو أمرا آخر وهو أن يأتي هشام إلى منزله وسيجد الباب غير موصد، ومن هناك يكون انطلاقهما معا...

أتى طارق على نصف ما بقي في الكأس من قهوة، وأطل من الباب مرتين أو ثلاث علّه يرى أمبرتو عائدا، ولمّا أحس بالقلق سكب ما بقي في الكأس في جوفه وقرر الذهاب، وما إن وصل إلى الباب حتى وجد أمبرتو أمامه.

ـ ها قد أقبلت أخيرا...

ودخلا معا وجلس في نفس الطاولة، وأقبل العامل ليذكره بأنه لم يدفع بعد ثمن القهوتين، وردّ أمبرتو بغضب.

ـ ها أني موجود... هل تراني هربت!..

مضى العامل وقال طارق:

- إيه سيدي! « ملتي دفنوه ما زروه...» منذ تلك الليلة البائسة لم تعد... ساعة في تونس وأخرى في بيتك معتكفا، موصدا الباب دوننا... أي ليراك أحدنا عليه بكتابة مطلب مبدئي، وشوف وشوف...

استنشق أمبرتو، وأشاح بوجهه قليلا... فواصل طارق بعد توقف قصير:

- اقلقك الناس فعدت هارباً منهم، أم تراك عثرت على عمل، ومكان آخر ترتاح فيه أكثر... آه!... أخبرني هل وجدت طليانية مثلك... ودخلت «في حبّك درباني» فأمثالكم « الروامي» إذا أحبوا فقدوا الصواب... وماتوا فيها حبّاً...

- لحظة يا عزيزي، لحظة واحدة، أنظر... سأريحك تماما من كلّ اسئلتك «لا حبك درباني» و هم يحزنون... كم سألتك من مرّة عن جليلة... وعن آلها... خمس، ست، عشر مرات، هل تذكركم، أنا شخصيا لا أذكر...

ومع ذلك ماذا كنت تقول لي؟! لا أدري، لا أعلم، دعك منهم، وربّما تلقى محاضرة كاملة من أجل ترك هذه المسألة، أو تقفز في مكانك مثل ثور المصارعة، وكأن عالما آخر قد أحاط بك... من الجنون.

- غضبت أنت إذا... وخرجت تبحث عنها بنفسك، وتركت عملك، وحياتك...

- اسمعني، أو أتركني أذهب...

- حسنا واصل...

- قد وجدت شقيقتها.

- وأحببتها، و...

- لا فائدة هكذا أنت دوما. لا تحب أن تفهم، لا فائدة، سأنهض هذا أفضل، نعم أفضل.

واستعد للوقوف، ولكن طارق رفع راحتيه وأغلق فمه ثم قال:

- سكت ها أني سكت، أقسم أني سكت، ولن أقول حرفا آخر...

- قلت لك أني عثرت على شقيقتها صدفة، لن أقول كيف، ولكن كنت أبحث عن كتب السحر، والتنجيم. فوجدتها.

تغيرت ملامح طارق فجأة، وكان يسأل عن كتب التنجيم هذه، لولا توقف أمبرتو عن مواصلة الحديث والإشارة إليه بإصبعه، محذرا.

- علمت أن عائلتها تعيش تحت وطأة السحر منذ زمن بعيد...

- حقاً!

- وأحببت إنجاز بحث كبير حول هذه المسألة، أعتقد الآن أني في الخطوات الاخيرة منه... كانت نافلة شقيقة جليلة، تعمل بائعة للكتب القديمة في مكتبة بتونس، المرّة الأولى. شدني شبه بين الاثنتين، وفي المرة الثانية سألتها وما كنت في الواقع متيقنا من أي شيء، وأخبرتني أنها منذ خرجت من بلدتها للدراسة في الجامعة بالعاصمة، نسيت كلّ شيء عنها، كأنها ما نشأت فيها، وما درست، وما تركت عائلة، كانت تعلم أيضا بأن شقيقتها تمارس الجنس مع أناس مختلفين، ودون مقابل، أو حتى بمقابل، وما كانت هي تستطيع فعل شيء، كأن سيلا يجرف العائلة بأكملها نحو الهاوية... ما عادت إلى بلدتها، وانخرطت في السياسة، وأحبت شخصا يدعى بسام... أحبته بجنون، كانت مع ذلك تعلم معنى الحبّ، ومعنى الانسانية، تعلم أن من فقد هذه القيمة، فقد حتى دنياه، وكانت يد القدر عنيفة، أخذت منها حبيبها لتجد نفسها من جديد، على قارعة الاغتراب، في دنيا الاغتراب...

- ثم؟

- أخبرتها عن انتحار شقيقتها، بكت، كما تبكي السماء... بكت حتى ندمت أني أخبرتها... لأنها ما كانت تستحق التعذيب أكثر... ما كانت، نعم ما كانت تستحق كلّ ذلك...

- وحيدة هي الآن إذا!؟

- قالت أن لها صديق يعمل بسلك الأمن.

- هي الآن إذا مثل شقيقتها...

وأشار بإصبعه الأوسط إلى أسفل.

- قلت لك أن العائلة بكاملها تحت وطأة السحر، ولعلها ما تزال تعاني منه...

- وهل تعلم هي ذلك...

- أعتقد أنها لا تعلم إلى حدّ الآن. قلت لها أشياء أخرى تخصّ شقيقتها...

- كم أنت خبيث، تلطم على الوتر الحساس، تشعل الذاكرة ولا تشاء إطفائها.

- « ابتسم أمبرتو وهو يقول:» والآن. هل تراك اقتنعت. بما كنت تريد معرفته منذ زمن بعيد...

ولكن طارق قال دون أن يجيب عن سؤاله، وكأني ما كان يستمع إليه:

- كان عليك أن تخبرها بحكاية السحر هذه، علّها تجد حلاً ما.

- غدا أو بعد غد إن شاء اللّه. أنظر، وجدت في أحد الكتب ما ملخّص أن خليط مستحضر السحر المعدّ، يحتوي على رماد سنبلة من القمح، والسنبلة لا يعرف على كم من حبة تحتوي إلى الله. تأثير هذا المستحضر يستمر سنوات بعدد الحبّات التي وجدت بالسنبلة، فإن كانت تحتوي على ثلاثين، أو أربعين أو مائة كانت السنوات بنفس ذلك العدد. ولكن قبل إنتهاء ذلك المفعول بمدّة وجيزة، تبرز علامة، تشير لنهاية، شيء غريب، وغير معروف...

- وهل ظهر؟

- لا أعلم، اليوم فقط قرأت هذه المعلومة. ولكن كيف لي أن أعرف هذا الشيء الغريب؟

- إسألها. قد تجد الجواب. أنا معك. غداً تسافر إلى العاصمة وتسألها... إن كنت تخشى ذلك أسافر معك.

- اسمع، هل لديك فكرة عن عدد الحبّات التي تكون في السنبلة عادة؟

- أربعين، خمسين...

- ومنذ الحرب العالمية إلى الآن كم من السنين.

- الحرب الأولى أم الثانية؟

- الأولى طبعا، انتهت سنة ثمانية عشر...

- ولكن ما دخل هذه الحروب في سنابل القمح...

- سأخبرك فيما بعد.

ـ سبعين سنة أو أكثر بقليل.
ـ هذا يعني أن هناك إمكانية لقرب نهايته. هذا إن لم يكن قد انتهى.
ـ والله، ما فهمت شيئا...
ـ غدا ستفهم. عد إلى بيتك ولا تخبر أحداً.

* * *

وصل هشام وأمبرتو إلى غرفة الريس حوالي الثانية والنصف صباحا. نور خافت ينبعث من شقوق الباب، وشخير مرتفع... وقفا وجها لوجه أمام الباب وأشار كل منهما للآخر بالطرق، فرفضا معا، ثم طرقا معا سمعا حفيفا مرتفعا، ومتعددا، فكفّا وبعد لحظة إرتفع النور وتأرجح بتأرجح الشعلة، وسمعا الريس يسأل:
ـ من؟؟
ـ أنا أمبرتو، ومعي هشام.
ـ ومن أيضا.
ـ فقط.
وفتح الباب ودخل أمبرتو ثم تبعه هشام.
ـ ماذا أتاكما. هل أنتما مجانين لماذا جئتما؟
ـ مشكلة يا رايس.
ـ ألف مرّة قلت لك قل ريس، ريّس، وليس رايس...
ـ جئنا نسأل، قد ملأ الخبر كل البلاد.
ـ أي خبر.
ـ وفاة عبّاس.
ـ من عبّاس.
ـ أنت. هل متّ.
ـ نعم، وقد وقع دفني منذ أيام، ألم تحظر الجنازة. وموكب التعزية.
ـ ههها... تضحك.

ـ ما دمت أمامك وأنت تسألني إن كنت قد متّ أم لا.

ـ لنعد. قال أمبرتو ها هوّ أمامك حيّ.

ـ ترقبا لماذا تسرعان؟!

ـ غدا أنوي السفر إلى العاصمة...

نهض منذر واقفا. إقترب من الباب وطلب من أمبرتو أن يقبل إليه.

ليقول له كلمة على إنفراد. فقهقه أمبرتو وقال:

ـ جميعكم تريدونني على انفراد... ماذا يجري بأدمغتكم.

واقترب من منذر ثم خرجا معا ووقفا أمام الغرفة. قال منذر:

ـ أرجو منك أن تؤدي لنا آخر خدمة نطلبها، متى نزلت العاصمة اتصل بأحد معارفي هناك سأقدم لك عنوانه بعد قليل، أخبره أننا بخير ليطمئن عائلتي.

ـ فقط... بامكاني أن أذهب أنا مباشرة إليها...

ـ لا لا. لا إذهب إليه هوّ أولا. اعلمه أيضا أن الأجواء هادئة وأنه بإمكانه أن يتصل بنا مباشرة، وأخبره عن مكان تواجدنا بالضبط.

ـ ثم

ـ سيعرف هوّ كلّ شيء، سيقوم هوّ بتمريرنا إلى الضفة الأخرى، فهو بحار له مركب صيد ضخم...

ـ إلى أين.

ـ لا تسأل إلى أين، قل له ما ذكرت لك فقط.

ـ ثم.

ـ سيأتي الريس إلى البلاد، وعندما تلتقيا، أخبره بما لديك.

وعادا إلى بقية الأفراد، وكانو يتساءلون عن أحوال بعضهم البعض، وعمّا يجري هذه الأيام في أماكن مختلفة... وما إن جلس أمبرتو حتى قال عباس.

ـ لديك عندي خبر هام. تذكر حكاية السحر طبعا. هل تتصور، الريس يعرف بعض التفاصيل عنها. الرجل الذي تزوج مرتين مثلا كان قد أنقذه وهو ما يزال صغيرا...

- حقا؟! معنى ذلك أن القصة حقيقة مليون في المائة.

- إسأله، والتفت عباس وكذلك امبرتو ومنذر وحتى هشام إلى الريس مترفعين عن الاجابة. ولكنه ظل صامتا. فقال امبرتو.

- هل تعرف متى وقع الطلاق، أو السعر...؟؟

حاول الريس النبش في ذاكرته بضع لحظات ثم قال:

- تقريبا عام ثلاثين، أو كما أتصور في تلك الفترة لا أدري بالتحديد...

إبتسم أمبرتو وكأنه حضر بشيء، ثمين، ثم نهض ونهض إثره هشام للمغادرة.

O O O

الفصل السابع عشر

ما إن دخل أمبرتو وأغلق باب بيته خلفه حتى ارتفع أذان الفجر من أبواق المسجد صادحا، مسكرا طبقات الصمت المخيمة على البلاد... كان العرق يتصبب من جبينه ورقبته ومن أنحاء مختلفة من جسده، وكانت يداه ملطختان بالتراب المبلل وكذلك قدماه، وأطراف السروال. نزع الحذاء ورفع احدى فردتيه لينظر فيها ثم تركها تسقط أمامه، وجلس على حافة السرير برهة ثم استلقى على ظهره تاركا إحدى رجليه متدليه، وحدق في سماء الغرفة... بياض ناصع لا يشوبه شيء... كأنه قلب انسان طيّب، وبعد لحظة فكر أنه ما كان عليه أن يذهب إلى الشاطئ وأن يسأل عن عباس او غيره... كان يكفيه خوفه من البوليس... ويكفيه أن يكون هناك شخص رابع او خامس يعلم حكاية تستره عليهما. طوال عدّة أسابيع... ولكن ماذا لو وجد هناك حرس... أو وجده ميتا فعلا بجريمة أو غيرها... كيف يمكن أن يكون موقفه... ولكنّه الجبان هشام نعم هشام هوّ من دفعه، وكيف علم هشام بتلك الأشياء؟! أترى الريّس أخبره. إنه جبان، جبان، لماذا أخبرته ياريّس؟! زفر أمبرتو ما في صدره من هواء، واستقر جالسا. بحث عن سكارة، أشعلها. ثم أقر بأن ما فعله مفيد، مفيد لنفسه قبل كلّ شيء... سيكتب في دفتره كلّ ما سمع وشاهد منذ الأمس وإلى حدود اللحظة التي يعيشها... وانتصب واقفا...

يكاد الدفتر يمتلأ... أحرف عربية، وأخرى لاتينية، متراصة، وكأنها ما وجدت إلا لتكون كذلك... عناوين صغيرة، تتلوها أرقام عربية، من واحد إلى مائة وسبعة، قرأ العناوين، وعدّ الأرقام، سحب قلما وسجّل «التحقيق 108» وانسابت الأحرف بعد ذلك محوّلة بياض الورقة إلى سواد مخرّم... كانت الساعة تتقدّم باستمرار وكذلك بياض الفجر، وكأنه إنسان زنجيّ... أحس أمبرتو بالتعب أخيرا يدق وسطه وكتفيه، وبوخز لذيذ في بطن قدميه وكتفيه من الخلف، وأغمض عينيه: «ليس هناك سفر إلى العاصمة

اليوم...» وليس هوّ من شاء ذلك طبعا، وإنّما جسده المنهك وسريعا ما رحل به فلك النوم بعيدا!.

اشيظت البلاد، علت أصوات الأطفال، والبهائم، خرخرت محركات وسائل النقل... ونادى طارق على أمبرتو ونقر على الباب بأطراف أصابعه لقد تأهب جيدا للسفر إلى العاصمة لرؤية أبنيتها، وناسها، وما تبطنه محلاتها وهو الذي لا يعرف منها إلا مكانا واحدا: محطة الحافلات بباب سعدون، كانت فكرة السفر والإطلاع تكبر في دماغه منذ الأمس... تكبر وتكبر، العاصمة قلب البلاد الحيّ، شرفة العالم... أناس من كل العالم من أدناه إلى اقصاه، بيض، وصفر، وحمر... كأنهم النمل في مملكة الأرض... وبعد حين من الحلم نقر مرّة واحدة على صدر الباب، وابتسم، لماذا لا يعرفها والاجابة سهلة، وواضحة، لأنه لم يأتها أكثر من مرّات قليلة علّها لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولماذا هذا الشحّ المفرط. لأن لا شيء يدعوه للذهاب إليها... والأن. نافلة: ربّما تحمل نفس مواصفات شقيقتها... تأرجح قلبه في صدره كبندول الساعة... وأفاق من حلمه فجأة... وأعاد الطرق من جديد: ينبغي أن ينهض هذا الرومي، ماذا يضع على أذنيه؟! حديد؟! ونادى من جديد... أفاق أمبرتو وكاد يسقط من كرسيّه... وأجاب حين سماعه النداء... وأسرع إلى الباب ليفتحه. كان حافيا، وأرضية المنزل باردة... وما إن وصل إلى الباب حتى تفطن إلى ملابسه الملطخة بالطين... فاعتذر وعاد إلى الدخول من جديد لتغييرها بأخرى... كأن رأسه ثقيل، كأن دوارا يترجرج في قسماته... نزع الدجين وارتد آخر غيره... ولم يغلق أزراره... وهرول إلى الباب من جديد وهو يردد بصوت خفيض:

ـ ماذا يفعل هذا الأحمّق هذا الصباح!!!

وفتح الباب ليقع بصره على طارق... وصرخ:

ـ آأخطأت الطريق؟!

ـ أي طريق؟

ـ أكنت تنوي الذهاب إلى مكان معين وأخطأته؟!

ـ لا، نعم. أقصد. لقد اتفقنا ليلة أمس أنا وأنت أن ننزل العاصمة. و...

ـ آه. رأسي... أنا اتفقت معك!.. آأنت جاد؟! انك تفاجؤني.

- أمبرتو...

- آه... آه. تذكرت ولكني لم أعدك بذلك. أنت من اقترح وأنا لم أقرر. لم أقرر بعد أفهمت.

كان طارق قد أخبر مؤجره منذ الأمس أنه لا يستطيع مباشرة عمله اليوم، وأعلم والدته بنيته في السفر لمهمّة سيقضيها في العاصمة دون أن يحددها لها. وارتدى أحسن ما لديه من ثياب حتى الأكثر إلتصاقا بأعضائه، ونفضت ملابسه براحة يدها وهي تبسمل، ثم وهو يسير للخروج أرسلت سلسلة من الأدعية إلى السماء علّ واحدا منها يستجاب، وبقيت واقفة إلى ان توارى عن نظرها... تذكر طارق شيئا من ذلك وأحس بالحرج، أيعود إلى بيته دون أن يسافر... وماذا ستقول والدته وبقية العائلة... وحاول جاهدا أن يقنع أمبرتو وقلبه يخبط في مواقع شتى...

- نحن أخوة أمبرتو... اخوة أفهمت، رجال، وما الفرق أن تذهب اليوم أو غدا.

صحيح أني ماكنت راغبا في صداقتك الجليلة هذا صحيح... كنت أفكر بك أولا أفهمت، وقد ظهرت حكاية السفر هذه، صدقني ماكنت أعلم بها... ولو علمت بها ماكنت لأتصَرّف كما رأيت. ولكنه الشيطان إبليس عليه اللعنة... أنا إنسان... أفهمت أنا إنسان لي قلب وعقل ومشاعر... كان ينبغي أن أخاف وأرأف على هذه الأسرة. الله لا يحبّ القلوب المتحجّرة، الله رحيم، أفهمت رحيم...

وتوقف لحظة عن مواصلة حديثه. فاستدار أمبرتو ودخل تاركا الباب مفتوحا، فتبعه طارق. إتجه أمبرتو ليغسل وجهه فقال طارق...

- الرحمة الزامية في مثل هذه الظروف، ومن يدري علّ أمرها يصلح بعد اخبارها، من يدري.

- يصلح؟! ومن قال أنه غير صالح الأن؟!

قال وهو يطش وجهه بأطراف أصابعه.

- أقصد. أقصد...

- تقصد ماذا ياطارق ياعزيزي، تقصد إغناءها!! إدخالها إلى المسجد تزوجها، علك تقصد تزوجها!..

ـ أنت تسيء فهمي...

ـ أنا أسيء فهمك! يا سيدي المسيح أنظر هذا المخلوق. أتذكر ذلك الكلام الذي قلت لك عندما كانت شقيقتها على قيد الحياة، إنه مشابه لما قلت الآن. أما أنا كنت قد أحببتها فعلاً...

ـ وأنا أحببتها أيضاً.

والتفت أمبرتو إليه تماما.

ـ جليلة! أحببت جليلة، أم أحببت المسكينة نافلة.

ـ ... ...

ـ أحببت نافلة. ولكنك قد خطبت من بلدتكم هذه... بنت أصل كما تقول.

خطبت يا عزيزي من أطراف عائلك، وعمّا قريب سترفّ إليك... ثم أنت لا تعرف نافلة، ولاهيّ تعرفك أيضاً... كيف لك أن تحبّها...

ـ لست أدري.

ـ آه صحيح لاتدري... أنا من يدري إذا.

ـ أنت غريب... ماكنت أحسب أنك هكذا.

ـ وأنت مصلحي إلى أقصى الحدود... حتى النخاع ما سألت عني إلا الحاجة لديك عندي، وما نصحتني بشيء إلا ولك فيه غاية، ولك فيه منفعة...

ـ غريب...

ـ غريب أو معرفة ما عاد يهمّني هذا الكلام في شيء... فقط لن أنزل اليوم إلى العاصمة.

وذهب إلى غرفته بعد أن جفف وجهه ويديه، ومرّة أخرى تبعه طارق... وجلس أمبرتو على حافة السرير، وكان السروال ملقى على أرضية الغرفة غير بعيد عن الحذاء. وشاهده طارق وأمعن فيه لحظة، وتفطن إليه أمبرتو فقال محاولا اخفاء الحقيقة قبل أن يسأله عنها،

ـ أتعلم لماذا لا أرغب في النزول إلى العاصمة اليوم؟ لا تعلم، حسنا سأقول لك:

لأني متعب، أتعلم لماذا أنا متعب؟ لأني جلت أنحاء البلاد، وسرت حتى خارجها هذا الذي تمعن فيه شاهد عليّ... إني بتّ أتسكع في كلّ مكان. ساعات مضت وأنا أسير دون توقف، وساعات أفكر دون ملل، في ماذا أفكر؟ أفكر في أمر واحد، وهو كيف يمكن أن تتخلّص نافلة من وطأة السفر إذا لم يدفع عنها بعد... كنت أنت نائما ساعتها أو تفكر في رؤيتها، ربما كنت تفكر أيضا في طريقة هادئة للتخلي عن خطيبتك، وربما في اشياء أخرى لا أعلمها.

ـ أنت؟ كنت.

ـ ولم أنم إلى حدّ الآن منذ صباح الأمس...

ـ ولكنك...

ـ ولكنك. ولكنك ماذا؟ إني لا أستطيع النزول إلى العاصمة الآن واريد أن أنام. أغلق الباب خلفك عندما تخرج...

إنتهت جميع كلمات طارق، وانتهت معارضته، ورغبته، والحاحه...

إنتهى كل شيء وما عليه إلا أن يغادر... واستدار خارجا... دون أن يقول حرفاً آخر، أو دون أن يدري ما يقول، وليس هناك من حلّ الآن إلا أن يسافر دون هدف أو يعود إلى بيته خائباً.

* * *

مع حلول المساء غاضت إشاعة موت عبّاس في نفوس العباد تماماً، وكأنها ما انتشرت أصلا، وما أثارت من الأسئلة ما أثارت أبدا، وخرج أمبرتو من بيته لتغيير مزاجه، وأقبل الريّس من حاشية البحر منذ الظهر، ليرى ما آلت إليه أخبار الموت، وبقي في مقهى الحسيني ساعة من الزمن، وكذلك بمقهى الرحبة ومتجر هشام... وتصرّف الجميع بتلقائيتهم المعتادة، حتى شقيق عبّاس الذي أقرّ إتمام يومه في احدى المقاهي...

كان أمبرتو جالسا بمقهى الرحبة عندما إقترب منه عزوز وهو يسأل:

ـ أحقا تريد العودة إلى بلادك؟!

ـ من أخبرك؟!

ـ أنت... أنت نعم أنت، كان لك بالأمس، سألتني، وسألتك، فأجبتني، أحسست

أنك قلق ساعتها، متشنج كثيرا لم أعرف السبب طبعا، فأنت لم تخبرني به، وما سعيت لمعرفته، خشيت أن يزداد تشنجك إذا ما سألت أكثر... ابتسم أمبرتو وهو يستمع إليه، كان بودّه أن يضحك، أن يقهقه من أعماقه فالضحك العميق عبارة عن عملية ترميم ضخمة للروح... وانبعاث جديد إلى هذه الدنيا... عزوز يدفعه إلى الضحك دون أن يشعر... فهو يخشى على الخبر الذي يقتنصُ، والذي لابد أن يحوله بشكل أو بآخر إلى قضية أو حكاية تهم كل الناس، وفي نفس الوقت يخشى على نفسه وعلى محدثه من ردّة فعل ماحقة، عين الدبلماسية، مع شيء، من الذكاء، أو البلادة المفرطة، إنه يشتغل مثل وكالة من وكالات الأنباء بهذا الشكل، وبدون مقابل... هكذا. يعيش من «براد تاي» يطيغه لزبائنه في الحانوت ويتصدق عليهم بأخباره، واعلاناته وحكاياته... وفجأة توقف عن الضحك وحملق في عينيه، وسأل:

ـ عبّاس لم يمت... الخبر كان زائفا، كلّ الناس قد علموا بالوفاة الزائفة وعلموا أنها إشاعة، ولم يعلموا من أطلق الاشاعتين...

ـ هذا صحيح، أنا أيضا لا أعلم...

ـ أنا أعلم... أعلم أنك أنت، أتدري لماذا؟ لأنك لم تجد من الأخبار ما تخطف لبّ الناس هذه الأيام، والحلّ هو أن تطلق الخبر عمّن يبحث عن البوليس في كلّ مكان، وعمّن أطلقت حوله الأساطير... وبطبيعة الحال لو وجد شخص آخر غيرك لأخرجته من قلب الأرض، ولعرفه الناس جميعا... كما تفعل معي الآن، لتبث أخباري، ولكن الناس هنا ليسوا مثلك، ولن يستطيعوا فجأة أكتشافك يا عزيزي...

ـ هذا دمّ وقدح، وشتم... واساءة لمن أحسنوا إليك.

ـ بل هذه حقيقة، أقول لك يا صديقي إني لا أهتم لمثل هذه المعاني أبدا... وبالمناسبة وأنت تستعدّ لمغادرة طاولتي آأكد لك أني لن أقول ما ذكرته لك الآن لأحد، وكذلك، أطمئنك أني سأعود إلى بلدي في أقرب وقت ممكن، علّك تنشر هذا الخبر على الجميع، وأفوز بشهرة أوسع... ينكم ونهض أمبرتو من كرسيه قبل أن ينهض عزوز، وبقي هذا شاخصا مندهشا مما تسمعه، وعبر أمبرتو الباب إلى الخارج ويداه في جيب سرواله... لقد بقيَ جدى كلماته يترّ في أعماقه، كان ينبغي أن يطلف من عبارته... أو أن يقول ذلك بأسلوب مغاير على الأقل... ومع ذلك ـ وهذا ما يجعله مرتاحا ومسرورا في نفس

الوقت، هو أنه نفّس عمّا يشعر به من غضب، وغيظ... أليس هو من دفع به إلى الشاطىء عبر الغابة، في ذلك الليل المظلم، وهو أيضاً من أشاع خبر الوفاة لصديق له هوّ الآن بمثابة الشقيق، بل وكاد يلقى به وإيّاه في السجن... فهو يستحق ذلك إذا، وربما أكثر. كانت الشمس تستعدّ للاختفاء وراء الأفق، وكانت نسمات ربيعية باردة تهبّ فتلفح الجباه، وواصل سيره دون أن يدري نقطة الوصول أين... وما إن وصل إلى مقهى الحسيني حتى توقف واستدار فجأة لينظر في الأفق نصف الشمس غائب، ونصفها الآخر كقبة من الزجاج الأحمر، يترقب النزول، وبقي على تلك الحال لحظة، فتذكر سلفينا، وتداعى على أقرب كرسي إليه وكأنما روحه أخذت في التبخّر...

شعر بالتعب هذه المرّة أيضا، تعب مزدوج تعب الروح، والجسد معا، سلفينا رحلت، ولن تعود، وهو هنا في هذه البلاد ينظر إلى شمسها، ويتذكرها هيّ... ولبث على تلك الحال زمنا طويلا، وفي طريق عودته مرّ على منزل طارق وعرض عليه الذهاب معه إلى العاصمة صباح الغد. واعتذر بقليل من الكلمات عمّا بدر منه في ذلك الصباح ملقيا جلّ لومه على التعب...

* * *

تزاحم المسافرون القلائل ومن بينهم طارق وأمبرتو لحجز المقاعد الشاغرة رغم كثرتها بالحافلة، واقلعت في ذلك الصباح الباكر في اتجاه العاصمة، كان طارق مرتديا نفس لباس الأمس، ولكن على شفتيه ابتسامة عريضة هذه المرّة، ومع أن بداخله الكثير من المشاعر، والحكايات التي يريد الافصاح عنها فإنه لم يقل شيئا منها، إلى أن وصلت الحافلة إلى السهل الكبير، كان الضباب كثيفا في تلك المنطقة، حتى أن الأشجار على جانبي الطريق لا تكاد تشاهد بسهولة. والتفت أمبرتو إلى طارق، وقد كان شارد الذهن منذ أن جلس في مكانه

... قال:

- هذا الضباب ينذر بهطول مطر على ما أعتقد،

وقال طارق وكأنه كان ينتظر هذه الكلمات:

- سأكون سعيد لو هطلت... وإن كان ذلك على رؤوسنا العارية...

- هناك من يقول أن مثل هذا الضباب ينذر بيوم حارّ، أو بأيام متتالية...

إبتسم طارق وهو ينظر إليه، وإلى الضباب معا، وحلت عقدة لسانه فقال مغيرا مجال الحوار:

ـ أمبرتو...

وقد عاد أمبرتو ينظر من خلال الزجاج، ولم يجب.

ـ أمبرتو هل تسمعني.

والتفت إليه، وحدق في عينيه منتظرا ما سيقول:

ـ الحقيقة أن لدي أشياء كثيرة أودّ أن أقولها لك...

ـ حسنا...

ـ لا أدري كيف أبدأ في الحقيقة...

ـ ابدأ كما تشاء ومن أي مكان أردت، من الأوّل من الآخر... كما تشاء يمكنك أن تبدأ...

ـ هذا صحيح... يمكنني أن أبدأ، الحقيقة أني متردد... لست خائفا، ولكن...

ـ ولكن ماذا... ابدأ، هل هناك شيء خطير؟!

ـ لالا. إطلاقا... حسنا... علمت أنك تنوي العودة إلى بلادك... روما...

إبتسم أمبرتو، واستقام في جلسته ثم قال:

ـ فقط؟!.

ـ الحقيقة ما صدّقت هذا الخبر... هل تعلم، عند ما سمعت أحسست وكأنّ شيئا من جسدي سينقص، أقول يدا أو رجلا... أو دماغا... إني ما فكرت أبدا أنك سترحل حتى عندما أشيع منذ أشهر عديدة كنت مؤمنا أنك سوف لن تفعل ذلك أبدا... وقد بقيت بيننا أليس كذلك... لكن هذه المرّة وبعد أن علمت أمس شعرت بالعكس تماما، كأن قصة بدأتها واستمرّت وقد حان الآن الوقت لتنتهي طوعا أو كرها...

وابتسم أمبرتو أكثر حتى كاد يضحك ثم قال:

ـ هناك أشياء تبدأ بشكل متزامن وبعضها ينتهي، وبعضها الآخر يستمرّ أزمنة أخرى لينتهي، مثل الشجر، نعم الشجر. إذا غرست شجرتين من الزيتون والتفاح، فالأولى

تستمرّ في الحياة قرونا وهي ما تزال شابة، والثانية لا تكاد تبلغ العقدين حتى تهرم وتموت، وتأتي أشياء أخرى مكانها، ها أنت شجرة زيتون وها أنا شجرة تفاح، في أرض واحدة الآن، أو في قصة واحدة إن شئت، تستمرّ أنت في أرضك، وأرحل أنا...

وابتسم من جديد وابتسم طارق اثره، ثم ضحكا معا لحظة من الزمن ولمّا كفّا قال طارق:

ـ كنت أتمنى أن تظلّ بيننا دوما فما عاد يميزك عنّا شيء... أقصد أنك قد صرت وأحدا منّا حتى مزاجك اختلط بأمزجتنا فعدت تغضب سريعا وتصفح سريعا أيضا... ولو شاء غيرك ذلك ما استطاع.

ـ أحمد الله على ذلك.

ـ فعلا.

وبعد لحظات، قضياها في تقديم تذكرتيهما للمراقب قال طارق:

ـ أريد أن أقول شيئا آخر...

ـ نعم...

ـ أحسست أمس أنك غضبت مني كثيرا الحقيقة ماكنت أنوي الاساءة إليك أبداً. ولا قصدّت يوماً إنتهاز فرصة أو شيء تفكر فيه أو تطمع إليه لنفسي بالأمس سمعت ما قلته لي عندما أتيت إليك وقد بقيت طوال اليوم أفكر فيه، والحقيقة أني وجدت ما ذكرت صحيح، أقصد معارضتي لأشياء كنت تريدها. ولكني ما فكرت في جلبها لنفسي، أنت تعلم أخلاق بلدي وعاداته كنت أودّ أن أحميك من أشياء قد تضرّ بك في المستقبل... وكنت شريفا في مقصدي... الحقيقة فاجأتني في تلك الساعة حتى أني لم أجد ما أقوله لك... لأني عاجز عن الاساءة إليك وربما لأني لا أريد الاساءة أبدا... أنا الآن أعتذر إن كان رأي قد أدى إلى النقيض ممّا أريد... كنت رغبت أمس أن أعتذر لك كما فعلت أنت ولكنك أسرعت في العودة... أرجو أن يقبل اعتذاري الآن على أية حال...

وصلت الحافلة إلى باب سعدون بالعاصمة، ونزل ركابها، كانت الشمس قد اشرقت ساعتها وارتفعت أقداما عديدة في دائرة السماء ... وسار الاثنان معا بين أفواج المارة آلاف الخطوات...

بعد جولة في شوارع وسط المدينة، وقبل مقابلة نافلة في المكتبة أعلن أمبرتو برنامجه

لما بقي من ساعات هذا اليوم، حتى لا يقع سوء تفاهم فيما بعد وابتسم طارق معلناً موافقته، وتقديره له في نفس الوقت.

وبدأ اللقاء حوالي الساعة العاشرة والنصف:

ـ أهلا نافلة.

ـ مرحبا أمبرتو، أهلا وسهلا تفضّلا...

وقف طارق أمام الطارمة منشدها لحظة رؤيته نافلة، كانت أشبه ما تكون شقيقتها جليلة، كأنهما توأم حقيقي، وليستا شقيقتان فقط، فرغم تقدّم السنّ قليلا بهذه، وفعل الزمن فيها فانها تبدو ونسخة أخرى من تلك «الرائعة» جليلة. وتقدّمت في اتجاهه ويدها مبسوطة أمامها لمصافحته.

هل يذكر شيئا مثل هذا الذي يحدث الآن، إنه يذكر فعلا... فعلا يذكر، يذكر أعظم حدث عاشه في أيّامه المنصرمة:

ـ «إنه منزل رائع»

ـ أهلا وسهلا.

ـ ها هيّ، عيناها في عينيّ، في شفتيّ، غضت كقضيب الزيتون، بيضاء ناصعة، وتمدّ يدها، تقترب أكثر فأكثر... تدنو يلتصق جسدها بكيان شيئا... فشيئا أشتعل، ولا أذوب، ولا أرتخي، لماذا تسكنين هذه الجزيرة الخراب... تكلمي قولي.

ـ ها أنت، وها أنا... يا حريفي.

ـ إني أحترق.

«ضغطت على وسطي يا جنية الغابة، اني خائف...»

ـ ستطفأ نارك في لحظات... وتخرج من عندي كليمونة عصرت... أأنت خائف!؟ لا تخف... هيّا... إصعد... أم... أنت خائف، هذه أوّل مرّة تمارس ذكورتك...

ـ نعم... لالا. لا... لا أعرف...

ـ كأن قلمك لم يغمس بعد،

ـ صدقت. لست أدري... لا أبدا ليست أوّل مرّة لكنك معرقه، جمالك أنوثتك تذيب الرمل لا الرجال فقط...»

وجذبت نافلة يده قليلا فانتبه، وقالت:

- هل أعجبك شيء في المكتبة...

- نعم ... ربّما هيّ قصة بحجم إنسان.

- ما عنوانها، مااسمها... والتفت إلى الكتب المرصوفة.

- نافلة بن محسن.

ابتسمت وهي تعيد النظر إليه، ثم تحوّلت إلى أميرتو، اقتربت منه وقالت:

- صديقك هذا: إما أن يكون خفيف الظل، أو جريء، مع شيء من بلادة الذهن،

- الأولى طبعا. مع اعتذاري لك نافلة، هذه حقيقة...

وابتسمت من جديد لسرعة إجابته، وأحسّ هوّ باندفاعه المفرط إذ ما كان عليه أن يقول ذلك، وهي ما تزال تجهل من يكون... وقال أميرتو :

- هوّ فعلا كذلك: خفيف الظلّ... ولكن أراك وحيدة هذا اليوم.

- نعم فعلا... ها أنا، كل يوم أشعر بورقة تسقط مني غصبا عنيّ.

- لم أفهم، قال أميرتو، واقترب طارق منه أكثر...

- كما ترى كانت لي بالأمس صديقة وشريكة في هذا المحلّ، واليوم قد رحلت...

- رحلت؟! قال أميرتو.

- سافرت تقصدين. قال طارق.

- نعم سافرت...

- هذا جميل، قال طارق، دعيها تكتشف العالم.

- وإلى أين؟

- إلى اليمن، وقد سافر بعد ذلك إلى الصومال.

وفوجأ طارق بهذا الاخبار إذ كان يتصوّر أنها اتجهت إلى فرنسا أو أمريكا. ولكنها تسافر إلى اليمن والصومال، ما هذه الناقة. واكتفى بقول عبارة واحدة.

- غريب!!

ـ قد نفذت رغبتها إذا، قال أمبرتوا وأجابت هي بسرعة.

ـ نعم

وقال طارق:

ـ ولكن لماذا اختارت هذه البلدان الفقيرة.

ـ هذا صحيح لماذا اختارت هذه البلدان، الحقيقة أنه كان لها شخص عزيز عليها هو في الواقع خطيبها، كان يدعى عبّاس، لقد عمل مراسلا لاحدى الاذاعات من اليمن، ثم تحوّل إلى الصومال، وهناك لقي حتفه في احدى المظاهرات ولم تكن سفارتنا هناك على علم به.

ـ هذه الأيام، قال طارق.

ـ منذ بضعة أشهر راسلها صديق له من اليمن،

ـ الحقيقة لا أدري ما أقول:

ـ ولماذا لم تعلم الوزارة هنا؟ كان ذلك سيكون أفضل وأقل عناء.

ـ هذه قضية أخرى، ربما الوزير نفسه لا يستطيع إثناءها عن تنفيذ قرارها.

ـ حسنا. والآن؟!

قال أمبرتو.

ـ كما ترى باعت لي منابها في المحلّ وسافرت، قالت ربّما لن تسمح لها الفرصة بالعودة هي أيضا...

ـ الحقيقة كانت طيبة وذات أخلاق عالية.

وبعد لحظات من الصمت عادت فسألت:

ـ أين وصل العمل في مشروعك الآن...

ـ أكاد أنتهي منه، لم يبقى الكثير... الحقيقة لست أدري ما اقول ... إني ما كنت لأتي هذا اليوم ولكن بتشجيع من طارق قد جئت...

ـ آه. طارق، هذا إسم جميل لشاب في عمرك، مرحبا بك... قد نسي أمبرتو لم يقدمك لي، ولكن ها قد عرفت أنّ اسمك هوّ طارق.

- شكرا، قال طارق.

- إنه طارق، قد كنا زميلين في العمل، وهو من جهة بنزرت... وقد كان يعرف شفقتك... إنه إنسان طيب أيضا.

- مرحبا. أهلا بابن موطني، كأن رائحةُ معك الآن.

- أتمنى ذلك... حقا.

وعادت نافلة تنظر في وجه أمبرتو حتى يواصل حديثه:

- أنت تعلمين أن موضوع البحث يتلخص حول تأثير السحر في حياة الإنسان والواقع أن مبعث هذا الاهتمام جاء صدفة، لعلك لا تصدقين، ولكن فعلا صدفة، وبودي أن أروي لك كل ذلك من الأوّل فهل تتفضلين بالاستماع؟

- سأكون سعيدة بذلك، بل هذا يشرفني... تفضل...

- حسنا:

وجعل يروي لها كلّ التفاصيل منذ رؤيته جليلة بالحافلة وإلى غاية يوم أمس، وكادت هي أن يغمى عليها حين علمت أن عائلتها هيّ هذه الصدفة. التي يتحدث عنها.. وضلت تستمع إليه دون أن تكون لها القدرة على طرح سؤال، أو التعليق، أو التأكيد، كانت تستمع إليه وكأنها تستمع إلى واحدة من حكايات عبد العزيز العروي، أو حكاية من ألف ليلة وليلة. وبعد لحظات من الصمت وإثر توقفه تماما، أعاد طارق بثّ أحد الأسئلة وقالت هي:

- قد وقع أكثر من شيء غريب في هذه الأيام الماضية، الحقيقة لا أدري أيها يمكن أن أذكره لك.

- هذا جميل، قال طارق.

- فعلا هذا شيء مشجع جدّا. هات إني استمع إليك، قال أمبرتو.

- ولكن هناك حادثة فيها الكثير من الغرابة، لم أروها لأحد قبل غير آسيا.

وها أنتما الآن ستسمعانها... منذ حوالي الشهر، نمت مع صديق لي يدعى أمين، وقد حظر في بداية الليل أيضا عدد من صديقاتي، آسيا وخديجة.

- لا تعرفها أمبرتو، المهم في الصباح وبعد أن غادر أمين.

ـ أبات معك في بيت واحد؟!

حدجته نافلة، وقال أمبرتو.

ـ دعها تواصل، وما همّك أنت!

ـ قلت بعد مغادرته، أفقت لأجد أسرابا من الخنافس تغطي أرضية الغرفة وتقضم كلّ شيء حتى الزجاج، تصوّر تأكل الزجاج، وكان يتزايد ذلك العدد المهول بسرعة غريبة. ويسير في كل الاتجاهات، كنت أراها تزحف إلى النافذة وتخرج من تحت الباب ثم تندثر وكأنها ما وجدت أصلا. قد استغرق ذلك عدّة أيّام متتالية، أحسست فيها بالخوف والتقزز معا، تصوّر كانت تلتهم المبيدات وكأنها فيتامينات... كدت أتخلى عن البيت برمته ساعتها.

ـ ثم ماذا؟!

ـ لا شيء غادرت المنزل، ولجأت إلى منزل أمين ولم أخبره بذلك إلى حدّ الآن. كنت أخاف أن يتركني ويذهب، أو ينعتني بالقذارة. أنا أعترف أني تركته. أي المنزل. دون تنظيف لعدة أشهر... كنت ساعتها أشعر بالخيبة واليأس التام، قد كنت أنتمي لحزب سياسي، وقد فشل الحزب حتى في المحافظة على وجوده. ومات أحب الناس إلي، وتفرق الأصدقاء في كلّ إتجاه... ووجدت نفسي مسلوبة من كلّ شيء... كدت أجن ساعتها أو كدت أنتحر، كانت الدنيا بمساحة خرم ابرة أمام عينيّ... كرهتها، وحاولت التخلص منها...

ـ وهل انتهى ذلك الزحف الآن.

ـ نعم إنتهى، قد كان كابوسا فظيعا.

ـ وأمين؟!

ـ الحقيقة كان انسانا طيبا، ورائعا للغاية، منذ فترة قال أنه يريد أن يتزوجني...

ـ وبعد ذلك ؟! تراجع؟!

ـ أنا رفضت أو ربّما هوّ... لست أدري... الحقيقة أني لم أشعر تجاهه بذلك الحب الجارف رغم حبي وتقديري له... إني أتصوّر أن حبّا مثل هذا لن يتكرر كنت قد أحببت شخصا يدعى بسام، وقد مات كما ذكرت، وكدت أجنّ... ولكنها الأقدار...

- والآن هل تشعرين بأن حياتك قد بدأت في التغيّر شيئا ما.

- ربّما لن يكون من السهل أن يجيب أحدنا عن سؤال كهذا، ولكن هل تعلم، منذ حادثة الخنافس تلك، بدأت أشعر وكأن حملا ثقيلا يعاشرني بدأ في الانزياح.

- هذا طيّب، ومعناه أن فعالية السحر بدأت في الاضمحلال.

- أتمنى ذلك.

- وأنا أيضا. قال طارق.

- شكرا لكما على أية حال.

واستعدّا للمغادرة وقد إقتربت الساعة من الواحدة وطلبت منهما البقاء لمدّة أطول، ولكنهما قالا أن لديهما أعمالا أخرى لابدّ من القيام بها. وما إن وصلا إلى الباب حتى عاد أمبرتو إليها وهو يقول:

- نسيت، كان لابدّ من أن أخبرك قبل أن اسافر بشيء مهمّ بالنسبة لي:

- ما هوّ ياترى. وهل ستسافر أنت أيضا؟!

- نعم سأعود إلى بلدي قريبا، وربما لن تسمح لنا الفرصة باللقاء مرّة أخرى. أمّا ما أريد قوله فهو أنك أشبه ما تكونين لشقيقتك، وأنتما معا تشبهان إلى حدّ كبير فتاة كنت أحبّها حتى الموت. وقد رحلت الآن إلى الأمجاد السماوية... طالما كنت أفكر فيكما كانت صورتها تعاود خيالي. لقد ماتت في حادث مرور قرب روما. ليرحمها الربّ.

- إني متأسفة. رحمها الله تعالى.

وصافحها واتجه نحو الباب، وما إن وصل إليه حتى نادته لينتظر قليلا ورفعت حقيبتها على كتفها، وأخذت المفاتيح وتبعته، أغلقت المحلّ وأعلمته أنها ستذهب معه... ومع إعتراضه لهذه الفكرة فقد أقنعته وذهبت.

في الساعة الثانية والنصف كانوا جميعا في إحدى ضواحي العاصمة، وما إن ذكر أحد الاسماء الذي يودّ أن يقابل صاحبها، حتى تبينت مراده تماما. لكن دون أن تكتشف من من الناس سيجتاز الحدود خلسة.

ooo

مطبعة اليمامة
سورية - حمص - هـ: ٤٧٨٥٠٠ /ص.ب: ٣٧٥٩

من إصداراتنا

- سحر الرمز والأسطورة - مجموعة من المؤلفين - ترجمة ومقاربة عبد الهادي عبد الرحمن
- الجنس والثقافة - إ.اس. كون - ترجمة منير شحود .
- الأسطورة والمعنى - شتراوس - ترجمة صبحي حديدي .
- الحكايات والأساطير و الأحلام - إريش فروم .
- منعطف المخيلة البشرية - ص.هـ.هووك - ترجمة صبحي حديدي
- التخييل الروائي للجسد - نعمة خالد .
- في تاريخ الدين والفلسفة - هايني - ترجمة صلاح حاتم .
- الخنفساء المنقطة - لورانس - ترجمة زكي الأسطة .
- القوى الروحية وعلم النفس التحليلي - ك. غ.يونغ -ترجمة نهاد خياطة .
- الرواية العربية والحداثة - محمد الباردي .
- فتنة السرد والنقد - نبيل سليمان .
- جرماتي أو ملف البلاد التي سوف تعيش بعد الحرب - نبيل سليمان .
- حوارات وشهادات - نبيل سليمان .
- فضاء النص الروائي : مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان - محمد عزام .

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339